

مجلة
كلية الآداب

جامعة فاروق الأول



المجلد الثالث

١٩٤٦

تطلب هذه المجلة من مكتبة جامعة
فاروق الاول بمحرم بك
بالاسكندرية

الاسكندرية
طبعة التجارة

أكمل ضيع احمد الثالث من مجلة كلية
الآداب نصوصة التجارة بالاسكندرية
في شهر ربيع الأول سنة ١٣٦٦ تحت
اشراف الأستاذ الدكتور انين كومب
مدرس مهنتية جامعة فاروق الأول.

جامعة فاروق الأول
مجلة كلية الآداب

١٩٤٦

المجلد الثالث

موضوعات القسم العربي

صحيفة

- محمد خلف الله : قد لبعض التراجم السروح العربية لكتاب
أرسطو في صنعة الشعر (بويطيقا) ١ - ٤٩
- عبد المحسن الحياوي : حقيقة الآدمية أو كتاب الرياضة للحكيم
أبرمذى ٥٠ - ١٠٨
- أبراهيم صبرى : حول تأثير العربية والفارسية في تكوين
اللغة التركية ١٠٩ - ١١٨
- أ. كومب : بعض مقتضيات من كتاب الامام بلاعلام
فيما جرت به الاحكام والأمر المقضية في
واقعة الاسكندرية (سنة ٧٦٧ هـ) تأليف
نويرى الاسكندري ١١٩ - ١٢٩

نقد لبعض التراجم والشروح العربية

لكتاب أرسطو في صناعة الشعر (بريطيقا)

بدأ العرب منذ أوائل العصر العباسي يتصون بالتراث اليوناني عن طريق الترجمة ، وكان السريان أداة تلك الحركة في الغالب ، وظل النقلة يوالون النقل حتى حوالى منتصف القرن الرابع الهجري (١).

وقد كان من بين هؤلاء النقلة « أبو بشر متى بن يونس القنائي » المتوفي حوالى سنة ٣٢٨ هـ . (٢) وهو نصراني انتهت اليه رئاسة المنطقيين في عصره ، وقرأ عليه المنطق أبو نصر الهاراني . نقل متى كثيراً من كتب أرسطو من السريانية الى العربية ، من بينها كتب الشعر ، يقول « ابن النديم » في معرض الكلام على كتب أرسطو : (الكلام على أبو طيقا — ومعناه الشعر — نقله أبو بشر متى من السرياني الى العربي . ونقله « يحيى بن عدي » وقيل إن فيه كلاماً لثامسطيوس ، ويقال إنه منحول اليه . والكندي مختصر في هذا الكتاب .) (٣) ثم جاء الفيلسوف « ابن سينا » (٣٧٠ أو ٣٧٥ الى ٤٢٨ هـ) فوضع فيما وضع موسوعة الكبيرة « الشفاء » في الفلسفة ، ولخص في

(١) راجع الصفحات من ٦ الى ٢٣ من كتاب « تاريخ الفلسفة في الاسلام » تأليف دي بور « ترجمة « أبو ريدة » لجنة التأليف والترجمة والنشر . ط . ١٩٣٨ .
(٢) ينقسم « ستانلانا » رجال حركة الترجمة عن الثقافة اليونانية في العصر العباسي تقسماً زمانياً الى طبقات ثلاث : يضع متى في الطبقة الثالثة ، ويقول ابن تاريخ وفاته مجهول ، إلا أنه يذكر عنه أنه كان ينفذ بين سنة ٣٢٠ و سنة ٣٣٠ هـ (راجع مخطوط محاضراته في الجامعة المصرية سنة ١٩١٠ - ١٩١١ ، في تاريخ المذاهب الفلسفية . ولا سيما من ٢١٦ الى ٣٤٩) .

(٣) « الفهرست » لابن النديم ط . مصر . سنة ١٣٤٨ هـ من ٢٤٩ - ٣٥٠ ثم ٣٦٩ — ٣٦٨ .

القرن التاسع من الحملة الأولى منها ما وجد في أيامه من كتاب الشعر للمعلم الأول .
وفي القرن السادس الهجري وجد فيسوف ابن رشد (٥٢٠ إلى ٥٩٥ هـ)
هم إلى مذهب أرسطو دراسة وموازاة ، نرحب ، ولخص فيما يخص من مذهبه
« ما في كتب أرسطوطاليس في الشعر من القوانين الكلية المشتركة لجميع
الأمم أو ثلاثاً أكثر » .

هذه الكتب الثلاثة هي أهم ما بين أيدينا من التراجم والشروح العربية
القديمة لكتاب الشعر لأرسطو .

وقد قد يترجمه حديثاً^١ الذات الكذب ، معتمدين فيها على التراجم
الأوربية الحديثة . مستعينين بالشروح لبعض الأوربيين وتعليقاتهم ، وبالرجوع
إلى تاريخ الأدب اليوناني وأعمال أرسطو .

وإن حاول هذا في صورة ترجمة جديدة . أن أنشد التراجم والشروح
العربية القديمة التي سبقت الإشارة إليها ، وأين قربها أو بعدها من الفهم الصحيح
لنظرية أرسطو في الشعر . ثم أين . في حكم الباحثين الأوربيين على هذه الجهود
العربية من تصانيف أو تعسف .

في الألبانيون سر ترجمته متى بن بولس لكتاب الشعر اسم « النص »

١ (١) الذين منها محفوظات في « ترجمة كتاب الشعر » (متى بن بولس) مكتبة جامعة
فؤاد الأول رقم ٢٣٠٥٢ . وكانت « الشعر » لابن سينا مكتبة جامعة فؤاد الأول
رقم ٢٦٠٥٣ . والثالث مخطوط وهو « لبعض كتب أرسطوطاليس في الشعر »
تأليفه (متى بن بولس) رقم ٢٣٠٥٢ . جميع وتصحيح فوسطو لازينيوس
(Fausto Lasinio) بمدينة فيرصة سنة ١٨٧٢ هـ .

(٢) الترجمة الحديثة تحت الطابع ومطبوع ، كاتب هذا البحث والزميل طهف سلام
بمكتبة جامعة فؤاد الأول سنة ١٩٤٥ وعضو البعثة النهمية الآن في باريس .

العربي The Arabic Version (A.V). ويمكن أن يلخص موقفه منه فيما كتبه الباحثان «بايووتر» و «بشر» .

فأما «بايووتر» فقد ذكر أن هذا النص كان معروفا منذ زمن ملويل للمستشرقين الفرنسيين ، ولكن فضل مواجهة صعبه وتعميم الاطلاع عليه كان من نصيب المستشرق الانجليزي «مرجليوث» في أواخر القرن التاسع عشر (١) وهذا النص لم يترجم من الاغريقية مباشرة ولكن من ترجمة سريانية (مفقودة الآن) عن الاغريقية ، فهو إذن صورة شرقية من أخرى . ثلثا للأصل الاغريقي . ولن ينتظر منه في مثل هذه الحال أن ياتزم من الدقة الحرفية ما التزمته الترجمة اللاتينية للكتابات الاغريقية في العصور الوسطى .

وأهم ما يلاحظه النقاد الغربيون على هذا النص ميله الى زيادة الشرح بذكر أكثر من كلمة عربية في مقابل اللفظ الاغريقي الواحد : فمن ذلك الكلمة الاغريقية Hypocritai (أى الممثلون) تقابل في النص العربي بكلمتي المنافقين والمرائين (Hypocrites And Dissemblers ، والكلمة Choros (أى

(١) لم نشر في مصر على نسخة من المجموعة التي نشرها مرجليوث في لندن سنة ١٨٨٧

(Analecta Orientalia Ad Poeticam Aristotelem)

وقد رجوت زميلي الأستاذ محمد حسن الزيات — في اكفورد — أن يبحث عن نسخة في إنجلترا فلم يجد الا واحدة في معهد « جريفت » هي نسخة مرجليوث نفسه وعليها تعليقاته بخطه . وكتب الى الزميل يخبرني بأنها تشمل قسمين : الأول نصوص عربية وسريانية . والثاني مختارات مترجمة الى اللاتينية . وفي القسم الأول كتاب أرسطاطاليس في الشعر نقل أبي بشر متى بن يونس القناني من السرياني الى العربي في ٧٦ صحيفة ، ثم صحيفتان ونصف بالسريانية في تعريف التراخيدا ، ثم الفن التاسع من الجملة الأولى من كتاب الشقلايين سينا في ٢٣ صفحة ، ثم قطعة صغيرة من شرح كتاب عيون الحكمة لابن سينا تأليف الفخر الرازي ، ثم صفحات أخرى بالسريانية . .

ثم عز الزميل طائف سلام على نسخة أخرى من هذه المجموعة في مكتبة معهد اللغات الشرقية بباريس تحت رقم (CC. VI. 86) . وأرسل الى خلاصة محتوياتها . وسنحاول الانتفاع بما فيها في ترجمتنا الحديثة التي سننشرها .

الجوقة (تقابل بكلمتي « الصفوف والدستند » . وأحياناً تكون هناك ثلاثة تفسيرات للكلمة الواحدة . وفي رأى « بايووتر » أن مثل هذه الزيادات تمكن رجوعها الى الترجمة السريانية من الاغريق ، والمعروف أن ذلك شائع في تلك التراجم .

وفي تقدير قيمة النقص من الوجهة العلمية يقول بايووتر : « وإذا استعملنا النص العربي فهناك حقيقتان يجب أن نذكرهما دائماً : الأولى أن النص الموجود كما هو في المخطوطة الوحيدة التي تحتفظ به مشوه بالتحريفات الكثيرة ، والثانية أنه ليس بعيد على المترجم العربي أن يسيء فهم الأصل السرياني الذي ليس موجوداً أمامنا الآن ، والذي لا يلزم أن نفترض براءته من الأخطاء . من الممكن أن يجهل الغلط من أن المترجم السرياني لم يحسن قراءة النص اليوناني ، أو لم يحسن فهمه . وهذا الخطئ يؤيده الاطلاع على قطعة باقية من النص السرياني . والنتيجة أنه حتى لو كان النص السرياني موجوداً كله لوجب أن نخضع قراءته للتحقيق الدقيق » .

وخلاصة فائدة النص العربي - في رأى هذا الباحث - أن بعض قراءاته تبدو مؤيداً لعدد محدود من القراءات التي اقترحها من قبل باحثو عصر الاحياء والباحثون المحدثون . على أن عدداً كبيراً من الفقرات التي يبدو النص الاغريقي فيها معقولاً ومرصياً لا نجد لترجمة النص العربي أى صلة مفهومة به ، فالأولى - إذاً - إهمال الكثير من هذه باعتبارها لامثلة نصاً اغريقياً آخر ولكن من أوام واحد أو آخر من الشرقيين 1 « فالنص العربي يشير الى عدد معين من التصحيحات الصغيرة العرضية أو يؤيده ، حذو كل قيمته ، وما وراء ذلك فشهادته غير كافية . . . والنور الجديد الذي يمكن أن نحصل عليه من هذا المصدر الشرقي ليس في الغالب إلا مجرد ضوء خادع ، ومن واجبتنا أن

نستعمل منتهى الحذر قبل أن نسمح لأنفسنا بأن نسير على هديه حين يختلف هذا النص للدرجة خطيرة عن النص الذي حققه العارفون باليونانية (١) وأما «بتشر» فانه يقول في التعريف بهذا النص (Arabs) : « انه النص العربي لكتاب الشعر (Paris 882 A) من حوالى منتصف القرن العاشر الميلادى ، وهو نص مستقل عن مخطوطاتنا الأوربية الموجودة ، وليس مأخوذاً مباشرة من الاغريقية ، ولكن ترجمة عن نص سرياني من كتاب الشعر (مفقود الآن) لمؤلف غير معروف . ويعتمد «بتشر» على المجموعة التى نشرها مرجليوث عن هذا النص في أكثر من موضع في تصحيحاته ، وفي ترجيح بعض القراءات على الأخرى ، ثم يقول : « ان القيمة الحقيقية (للنص العربي) في قد النص (الأصلي) لا يستطاع القطع بها بعد ، ولكن من الواضح أن كثيراً من فقراته تعود بنا الى نص أصلي إغريقى أسبق من أى واحدة من مخطوطاتنا الموجودة » . . . ويقول : « وهناك نتيجة أخرى على جانب عظيم من الأهمية قد تم إثباتها : ففي حوالى خمسين مثلاً يشير فيها النص العربي الى أصل إغريقى يختلف من نص المخطوطة الأوربية القديمة (A C) نجد النص العربي يؤيد قراءة مخطوطة أو أخرى من (Apographa) المخطوطات الأوربية غير مخطوطة (A C) أو الفروض التى عملت في عهد الريفسانس أو في الأيام الحديثة . . . وفي معظم هذه الأمثلة تتمتع القراءة التى يشهد لها النص العربي بواقفتنا التى لا يلابسها شك ، وإذن لم يعد من الممكن أن تنفرد مخطوطة القرن الخامس عشر (A C) بالسلطات الممتازة التى ادعاه لها " Vahlen " . (٢)

(١) راجع المقدمة النقدية التى كتبها Ingram Bywater لكتابه

" Aristotle On The Art Of Poetry " Oxford 1909.

(٢) راجع المقدمة التى كتبها S. H. Butcher لكتابه

" Aristotle's Theory Of Poetry And Fine Arts "

4th ed. London 1932.

أما في مصر فقد وصل اليها هذا النص في صورة شمسية للمخطوطة القديمة
أولها : « بسم الله الرحمن الرحيم . كذب أرسطو طاليس في الشعرا نقله أبو بشر
متى بن يونس العبدي من السرياني الى العربي . قال أرسطو طاليس : إذا متكلمون
الآن في صناعة الشعر ، ويخبرون أي قوة لكل واحد واحد منهم ، وعلى أي
سبيل ينبغي أن تتقوم الأنشعار والأشعر . . . الخ » .

وبمقارنة هذا النص بما بين أيدينا من النصوص الأوربية الحديثة المحققة
يبدو أنه يتمشى وكتب الشعر المعروف لأرسطو ، ويتبع ترتيبه في موضوعاته
وفصوله ، إلا أن في كثير من صفحاته كلمات غامضة في السكتة أو الهجاء ،
وفيها أسماء أشخاص وفنون يونانية محرفة لا يمكن التأكد منها في كثير من
الأحيان إلا بالرجوع الى الأصل اليوناني . واقدرى ، لهذه الترجمة وحدها -
دون الاستعانة بتراجمه أخرى - لا يمكن أن يكون فكرة واضحة عن نظرية
أرسطو في الشعر عامة - وفي التراجيديا خاصة . ويغلب على الظن أن هذه
الترجمة (١) كانت واحداً من العوامل التي عاقت الفكر العربي عن العناية
بالشعر اليوناني . وقد نكون مرجع ذلك الى شيئين رئيسيين :

الأول : عدم تمكن المترجم من فهم نظرية أرسطو في التراجيديا
والكوميديا وكل ما هو خاص بالمشرح اليوناني ، فهو من أول الأمر يتحاشى
الكلمتين اليونانيتين : تراجيديا وكوميديا ، فيضع بدلها على أطراف كلتي مديح
وحجاء . والواقع أن منهجه في ترجمة هذه المصطلحات مضطرب غير سائر على

(١) يقول « طه حسين » أن كتاب الشعر الذي ترجمه متى بن يونس في القرن
الرابع « لم يمهّد على الإطلاق » (راجع « تمهيد في البيات العربي من الجاهل الى
عبد قاهر » ... بحث بالفرنسية وضعه طه حسين وترجمه عبد الحميد العبدي . مقدمة الكتاب
قد استقر له دواءه من غير تحذيره . التأليف سنة ١٩٢٠)

وتيرة واحدة ، فينا تراه يحتفظ بكثير من المصطلحات الشعرية والفنية اذ يذكر «ديرمبو الشعرى وأولييطى ودراماطا وإفي وإسطوريا واسطقس وأنافسطس وطروخاص ، إذا . هو يعرب فيستعمل «الأوزان السدسية» في مقابل Hexameter ، ويسمى التمثيل على المسرح «جهاداً» والممثلين «منافقين ومرايين» والديمقراطية «ولاية الجماعة والتدير» . على أن كثيراً من محاولاته في ترجمة المصطلحات قريبة من التوفيق ، فبكلمة Imitation عنده «تشبيه وبجاءة» و The art of poetry «صناعة الشعر» و Archon «الوالي على أثينية» ، و fable or plot «خرافة الحديث أو القصص» ، و discovery «الاستدلال» . الخ .

ونحارنا الشك في معرفته باليونانية حين نراه يضطر الى الاقتضاب أو الغموض في الفقرات التي تحاول رد كل كلمة الى أصلها ، وتبرير وجهة نظره بالرجوع الى الاشتقاق اللغوى . ومن أظهر الأمثلة على هذا ترجمته ذلك الجزء من الفصل الثالث (١) الذى يناقش فيه أرسطو دعوى كل من الدوريين والميغاريين الفضل في نشأة التراجيديا والكوميديا . يقول متى في ترجمته :

«ومن هاهنا قال قوم إن هذه تلقب أيضا دراماطا من قبل أنهم يشبهون بالذين يعملون ولذلك صار أصل أدريانس هم متمسكون بالمدح والهجا أما بالهجا نحسب ماظن فهذه التي هاهنا كما أنه ما كان قبلم ولاية الجماعة والتدير والتي كان الذين من سيقليا يقولون أنها موجود كما كان يفعل افيخارمس اشاعر وهو الذى كان أقدم كثيراً من كيونيدس وماغنس من حيث كان أعطيا الرسوم عند ما كان يستعملان الاقرار من أسما المدح التي في فالوفونوس وذلك

(٢) من المحتمل أن تكون الترجمة الاولى من الاغريقية الى السوربانية مشتولة عن بعض ما ترجمه في ترجمة متى من الغموض أو عدم الدقة .

(أن) أنه إما ذاك لقب القرى قوماس وأما ديموس فلقب أهل أثينية المهجورين من قبل أنهم كانوا ممتننين مستخف بهم من أهل القرى . «
فاذا ما رجعنا الى التراجم الأوربية للنص الأصلي جاءت ترجمتنا العربية الحديثة لهذا الجزء كما يلي :

« ويذهب بعضهم الى أن هذا هو السر في أن بعض الروايات تسمى « درامات » ، ذلك لأن الأشخاص في هذه الروايات يقومون بالقصة عليها . ومن هنا ادعى « الدوريون » أنهم هم الذين كشفوا التراجميد والكوميديا ، وادعى « الميغاريون » الكوميديا لأنفسهم ، فيغاريو اليونان يقولون إنما نشأت عند ما صرت « ميغار » ديمقراطية ، ويدعيها ميغاريو صقلية بحجة أن الشاعر « إبيخارموس » (Epicharmus) من بلادهم ، وهو متقدم عن « خيونيدس » (Chionedes) و « ماعنس » (Magnes) زمن طويل . وحتى التراجميد ادعاه كذلك بعض « دوريو البلوونيز » وتأيدوا لهذه الدعوى يشيرون الى كلمتي كوميدية ودراما : فيقولون إن الكلمة التي تدل على القري الثائية في لغتهم هي كوماي Comae (في حين يسميها الأثينيون ديمس Demes) يريدون بهذا أن يزعموا أن الكوميديين لم يشتوا الاسم من حفلاتهم كومو comoe ولكن من نحوهم من قرية الى أخرى بعداً عن المدينة التي لا يحضون فيها بكثرة من التقدير . ويقولون أيضاً إن الكلمة التي تدل على العمل عندهم هي « دران » dran في حين يستعمل الأثينيون « براتين » pratein .

والشيء الثاني الذي يرجع إليه نقص ترجمة متي رداة أسلوبها العربي وعجمته ، فكثيراً ما تجد الجملة العربية فيها ملتوية البناء مختلطة الضمائر عامية الصياغة ، والمثل التالي يكفي للتدليل على هذه الظاهرة . يقول متي :

« وليس كالتي يعملون الشعر الذي هي بالحكاية والتشبيه ، لكن التي

بالمقابلة المشتركة في أوزانها ، وذلك إن عملوا شيء من أمور الطب أو أمور الطبيعة بالأوزان فكذا قد جرت عادتهم بالتغليب ، ذلك أنه لا شيء يشتر كان فيه « أوميروس » و « أثادافس » ما خلا الوزن . ولذلك أما ذاك فينبغي أن نلقه شاعرا أما هذا فليشكله في الطبيعيات أكثر من الشاعر ^(١)

ومن الحائز أن يكون بعض الاضطراب في عبارات متى راجع إلى تحريف في النسخ أو خطأ في التهجي ، ولكن هناك عبارات في ترجمته لا شك في أن رداءته راجعه إلى حتمتها ، فلقد قرأ قوله : « ويتعلم ويجهل التلذذات بالقشيش » فلا تكاد تفهم مراده حتى ترجع إلى الأصل فتجد أرسطو يقول ما ترجمته : « إن الانسان بعد أولا من طريق الحكاة » . وقرأ عبارة ستي في الكلام علي تنوير التراجيد : « أحدثت الفؤ والتربة قليلا من حيث قد كنت قد عه » ، وهذا هي في عبارة أرسطو : « ثم كان ترقيه (أي التراجيديا) بعد رويدا رويدا ، منتفعا في كل مرحلة بما مر قبلها » .

هذه الأمثلة وأشباهاها تقوي عندنا الظن الذي أشرنا إليه في مستهل هذا البحث من أن متى لم يكن علي علم كاف بالثقافة اليونانية ، وثبتت ملاحظاته من رداءة أسوبه وعجمته ، وسنري « ابن سينا » بعد يخوض في الكلام علي هذه الموضوعات في عبارة عربية سليمة .

ن . بين أدلة من المراجع لا يدل علي أن المتقدمين لاحظوا هذه الظاهرة

(١) هذا آخر ، في ترجمتنا الحديثة كما يلي : « ولو أن العادة قد جرت أن يوسم الشاعر باسم الوزن الذي يحطم فيه ، فيحدث عن شعراء المرآني وشعراء اللاحم — لا على حسب طبيعة العمل الحكائي — بل على حسب الوزن الذي ينظم فيه . حتى لقد جري العرف علي أن يوصف علي هذا النحو كاتب قد وضع نظرية طبية أو فلسفة طبيعية في قالب منظوم . خذ مثلا « هو ميروس » وأتاذقليس : أنهما لا يجتمعان في شيء إلا في الوزن الذي كتبنا فيه . ولكن إذا وصف أحدهما بأنه شاعر كان الثاني أحري أن يسمى عالم طبيعة من أن يسمى شاعرا » .

في أسلوب متي بن يونس . ولكنهم يذكرونها في بعض أسانئده وغيرهم من رجال ذلك العصر ، فيقول ابن النديم - مثلاً - في ترجمة « قويري » : « .. وعليه قرأ أبو بشر متي بن يونس ، ولقويري من الكتب كتاب تفسير قاطيغورياس .. وكتبه مطرحة مجفوة لأن عبارته كانت غفطية غلظة (١) .

وبلاحظ « مصطفى عبد الرزاق » في أسلوب فيلسوف العرب الكندي « غموضا يأتي بعضه من أن الألفاظ الاصطلاحية الفلسفية لم تكن استقرت في نصابها وتحددت معانيها » ، ثم يقول : « والواقع أن الأصول التي كان يرجع الكندي إليها مترجمة كانت إلى العربية أو غيرها أو موجودة في لغاتها الأصلية لم تكن تخلو من تحريف ومن غموض ، وكان طبعها أن يجد الكندي غناء في استخلاص معان منها مستقيمة في نظر العقل منتظمة النسق » ، ويقول كذلك : « والظاهر أن الغموض كان غالباً على أساليب المشتغلين بالبحوث العلمية في عصر الكندي لأسباب مختلفة يشير إلي بعضها الجاحظ في كتاب الحيوان (٢) .

والواقع أن موضوع النقلة من السريان في العصر العباسي ومقدار تمكنهم من اليونانية ومن العربية ، ونوع أسلوبهم ، ومقدار إلمام البيئة العربية إذ ذاك بالثقافة الفنية الاغريقية موضوع يحتاج مزيد بحث . ولقد أورد « سننلانا » (٣)

كثيراً من المعلومات عن هذا الموضوع جمعها من كتابات المؤلفين العرب كابن النديم والقفطي وابن أبي أصيبعة ، ولكنها لا يمكن لتكوين صورة واضحة . وذكر « البستاني » ، قلاً عن بعض المصادر القديمة كتاب « مختصر الدول » لابن العبري وغيره — روايات يستنتج منها أن اليونانية كانت معروفة في عهد

(١) « الفهرست » لابن النديم ط . مصر . ص ٣٦٧

(٢) « فيلسوف العرب والعلم الثاني » لمصطفى عبد الرزاق ط . الحلبي سنة ١٩٤٥

ص ٢٩ - ٣٠

(٤) راجع مخطوط « أضرته في » تاريخ المذاهب الفلسفية .

العباسيين في بغداد تقرأ وتدرس حتى في بيوت الخلفاء ، وأن منظومات هوميروس كانت معروفة فيها بين المشتغلين بلغات الأجانب ، ومعظمهم إذ ذاك من النصارى (١) . وباحث — مثل « دي بور » يذهب الى أن الذي ترجمه السريان من كتب اليونان كان طابعه الأمانة في الجملة ، إلا أنه يفرق في هذا بين بعض النواحي وبعض فيقول : « غير أن مطابقة الترجمة للأصل تبدو في كتب المنطق والعلم الطبيعي أكثر مما تبدو في كتب الأخلاق وما بعد الطبيعة ، فقد حذفوا كثيراً من غوامض هذين العلمين أو فهموه على غير وجهه » . أما الناحية الفنية فالأمر فيها جد مختلف ، يقول « دي بور » : لم يكن يتأتى للشرفيين أن يصلوا الى أتمن شيء ورثناه عن العقل اليوناني في الفن والشعر وكتابة التاريخ ، بل ربما كان عسيرا عليهم أن يفهموه ، لما كان يعوزهم من الالمام بحياة اليونان ، ولأنه لم يكن عندهم ميل إلى تعرف هذه الحياة . . (٢)

نستطيع ، إذاً ، أن نقول — وذلك فرض يحتاج مزيد تحقيق — إن ثقافة النقلة السريانيين اليونانية من الوجهة الفنية والأدبية لم تكن كاملة ، وإذا اردنا أن نحكم على الثقافة العربية لبعضهم من آثارهم التي وصلت إلينا لنستطيع أن نبرئهم من المعجمة والعموض .

تقع المقالة الأولى في المنطق — من كتاب الشفاء لأبي الحسين عبد الله بن

(١) «لزيادة هوميروس مربعة نظاماً» بقلم سليمان الستايني ط . اخلاص بمصر سنة ١٩٠٤

ص ٢٥ - ٢٦ .

(٢) « تاريخ الفلسفة في الاسلام » — دي بور — ترجمة أبو ريطة ص ١٩ - ٢٠ ،

٢٥ - ٢٦ .

سينا - في تسعة فنون ، الفن التاسع منها يبحث في الشعر في ثمانية فصول وظاهر من أول الأمر أن ابن سينا لا يترجمه ، وإنما يؤلف ويلخص ويشرح . وحظته في هذا التلخيص حتى أن يتكلم عن الصفات الشعرية عامة على سبيل الاختصار ، ثم يذكر ما كانت لليونانيين فيها من أوضاع وأعراض معينة ، شارحا بعض أنواع الشعر اليوناني ، موازنا أحيانا بينها وبين ما قد يماثلها في العريضة . كل ذلك في أسلوب عربي غير ذي عوج ، إلا حيث يعرض له الغموض من صعوبة الموضوع . ولست نستطيع أن نقرر هل رجع ابن سينا مباشرة إلى الأصل اليوناني أو اعتمد على ترجمة متى (أو غيرها) ، وإن كانت هناك شواهد تدل على أنه انتفع بهذه الترجمة -- في ناحية المصطلحات على الأقل .

يبدأ ابن سينا موضوع الشعر بشرح تعريفه فيقول : « إن الشعر هو كلام تخيل مؤلف من أقوال موزونة متساوية ، وعند العرب مقفاة . ومعنى كونها موزونة أن يكون لها عدد إيقاعي ، ومعنى كونها متساوية أن يكون كل قول منها مؤلفا من أقوال إيقاعية ، فإن عدد زمانه مساو لعدد زمان الآخر ، ومعنى كونها مقفاة هو أن تكون الحروف التي يختم بها كل قول منها على حدة » . وهذه النواحي من الشعر يبحث فيها الاختصاصيون كل في ميدانه : فالوزن ينظر فيه من الوجهة العامة صاحب الموسيقى ، ومن جهة التجربة والمستعمل عند مختلف الأمم صاحب علم العروض ، والتقفية ينظر فيها صاحب علم القوافي ، « وإنما ينظر المنطقي في الشعر من حيث هو تخيل ، والتخيل هو الكلام الذي تدعئ له النفس فتنبسط عن أمور ، وتقبض عن أمور ، من غير روية وفكر واختيار ، وبالجملة تفعل له اتعالا نفسانيا غير فكري » . ويتوسع ابن سينا في هذه الناحية فيتكلم عن أثر التخيل في النفس ، وكون الناس أطوع للتخيل منهم للتصديق ،

وإذا كان التصديق إذعاناً لقبول أن الشيء على ما قيل فيه ، فالتخييل إذعاناً للتعجب والالتذاذ بنفس القول . « والشعر قد يقال للتعجب وحده ، وقد يقال للأغراض المدنية . وعلى ذلك كانت الأشعار اليونانية . والأغراض المدنية هي في أحد أجناس الأمور الثلاثة . أغنى المنورية والمشارجية والمتأففة ، ويشترك الخطابة والشعر في ذلك . لكن الخطابة تستعمل التصديق ، والشعر يستعمل التخيل . »

وحكما يستوفي ابن سينا عدة الصفات الشعرية على سبيل الاختصار ، ثم ينتقل بعد هذا التمهيد إلى الكلام عن الشعر اليوناني فيقول : « اليونانيون كانت لهم أغراض محدودة يتولون فيها الشعر ، وكانوا ينجسون كل غرض بوزن عني حدة ، وكانوا يسمون كل وزن باسم عني حدة . فمن ذلك نوع يسمى طاعوديا له وزن طريف لذيذ يتضمن ذكر الخير والأخبار والمناقب الإنسانية ، ثم يضاف جميع (ذلك) إلى رئيس يراد مدحه . وكانت المثلوك فيه يعني بين أبيهم بهذا الوزن . وربما زاد فيه تغيات عند موت المثلوك للنياحة والمروية . ومنه نوع يسمى قوموديا ، وهو نوع يذكر فيه الشرور والوزائل والأهالي . وكانوا يربط زادوا فيه نعمات تذكروا القضاة التي يشترك فيها الناس وسائر حيوانات . » وعلى هذا الخط بعد ما ذكرنا أحد عشر نوعاً من أنواع الشعر اليوناني معروفاً بكل منها تعريفاً مجملاً .

هذا هو التقدير الذي أمكن ابن سينا فهمه . كما يقول من التعليم لأول . « إذا ذكرنا فيه اقتصاص أشعار ورسوم كانت خاصة بهم . ومنه رقة عنهم ، يعقوبهم تعرفهم إياها عن شرحها وبسطها . » أما كتب الشعر فيبدأ في الحقيقة من الفصل الثاني الذي يعقده ابن سينا في أصداف الأغراض الكلية والمحاكاة الكلية التي للشعراء ، وهنا نجد أنفسنا أمام ما يشبه أن يكون تلخيص

لكتاب أرسطو وتعرفنا به يتمشي وأقسام الكتاب كما نعرفه وتعرفه أوروبا الآن^(١). غير أن ابن سينا لخص في سبعة فصول (من ثمانية) مافصله أرسطو في ستة وعشرين قسما . وليس من الواضح : قسم ابن سينا كتابه إلى هذه الفصول . واختار أن يجمع في بعضها موضوعات متبينة . ولو أنه أراد لساير الترتيب الفكري للتسلسل الذي جري عليه أرسطو ، فنظام كتاب المعلم الأول كما يقول بايرونر بسيط ومنطقي يتضمن خمسة أجزاء رئيسية ، كل جزء منها يشتمل عددا من الأقسام الستة والعشرين^(٢) .

والقدري لكتاب ابن سينا بحس من أول الأمر أنه أمام مجهود علمي حقيقى قصد به صاحبه إلى تقريب الأصل اليونانى للدارس العربى . والمؤلف هنا لا يترجم ولكنه يقرأ ويدرس ويفهم ثم يحاول أن يعبر ، ويستطرد في مناسبات قليلة إلى الموازنة بين الأديين اليونانى والعربى : كأن يقول في معرض الكلام على الشعر : « فالشعر اليونانى إنما كان يقصد فيه فى أكثر الامر محاكاة الافعال والاحوال لاغير ، وأما الذوات فلم يكونوا يشغلون بمحاكاتها أصلا

(١) الفعل الثانى عند ابن سينا يقابل الأقسام الثلاثة الأولى من أرسطو ، والفصل الثالث عنده يقابل الرابع من أرسطو ، والفصل الرابع يقابل الخامس والسادس من أرسطو ، والخامس يشتمل أجمالا السابع والثامن . . إلى نهاية الحادى عشر من أرسطو ، والفصل السادس يتناول الموضوعات التى يعالجها أرسطو فى أقسامه الثانى عشر والثالث عشر . . . إلى نهاية التاسع عشر ، والفصل السابع لخص الأقسام العشرين والواحد والعشرين . . . إلى نهاية الرابع والعشرين عند أرسطو ، والفصل الثامن (الأخير) من ابن سينا يلخص الفصول الأخيرين الخامس والعشرين والسادس والعشرين من كتاب أرسطو .

(٢) الجزء الأول كلام تمهيدى فى التراخيدا وشعر الملحمة والكوميديا : ذلك أنها الأنواع الرئيسية لشعر المحاكاة وموضوع البحث الذى سبى . (ويشمل هذا الأقسام الخمسة الأولى) ، والجزء الثانى تعريف التراخيدا وقواعد بنائها (الأقسام ٦ — ٢٢) ، والجزء الثالث قواعد بناء الملحمة (٢٣ — ٢٤) ، والجزء الرابع تعداد نواحي النقد التى يمكن أن توجه إلى ملحمة أو تراخيد ، وما يمكن أن يجاب به عليها (٢٥) ، والجزء الخامس موازنة بين شعر الملحمة والتراخيدا ، بين التفوق الفنى لتأنيده (٢٦) .

كاشتغال العرب ، فان العرب كانت تقول الشعر لوجهين : أحدهما ليؤثر في النفس أمرا من الامور يعلم به نحو فعل واتفعال ، والثاني للعجب فقط ، فكان يشبه كل شيء ليعجب بحسب التشبيه . وأما اليونانيون فكانوا يقصدون أن يحثوا بالقول علي فعل أو يردعوا بالقول عن فعل ، وتارة كانوا يفعلون ذلك علي سبيل الخطبة ، وتارة علي سبيل الشعر ، ولذلك كانت المحاكاة الشعرية عندهم مقصورة علي الافاعيل والاحوال ، وعلي الدوات من حيث لها تلك الافاعيل والاحوال . . .

وليس هناك من شك في أن ابن سينا يبدو أقرب من متى إلى فهم أرسطو ، وأبعد عن الخلط في ظواهر الادب اليوناني ، وأكثر حرصا علي تسمية تلك الظواهر بأسمائها ، وتحس أحيانا أنه صاحب رأي في الترجمة ، وأنه ينقد بعض تراجم سابقة . يقول مثلا .

«وأظن أنا أن الرباعيات هي الاوزان القصيرة التي يكون كل بيت فيها من أربع قواعد ، وكل مصراع من قاعدتين ، وليس يجب أن يصفى إلى الترجمة ^(١) التي دلت علي أن الرباعيات هي التي تضاعف الوزن فيها أربع مرات ، بل الترجمة الصحيحة ما يخالف ذلك ، فان ذلك الثقل يدل علي أن هذه الرباعية قديمة ، وبسبب الرقص السمي ساطوريقا ، والاقدم من الأشعار هو الاقص ، والمستعمل للرقص هو الاخف .. »

ويعود إلى هذا التعريض مرة أخرى فيقول : « وأما أيامو فلها أربعة

(١) هل هذا النقد منسوب إلى ترجمه متى بن يونس ؟ هذه مسألة فيها نظر ، فان عبارة متى في نقطة رباعيات الايامو غامضة مستغلفة .

أوزان، وتحرك إلي هيئة (وقضية) مع التحريك الانفعالي ، ولا يجب أن يخفي هذا كما خفي علي فلان .

على أنه من الظاهر ان ابن سينا (١) يتابع متي في كثير من المصطلحات فقابل epic هو افي عند الاثنين ، و imitation تشبيه ومحاكاة عند متي ، ومحاكاة عند ابن سينا ، و chatacter عادة وحلق عند كليهما ، والديمقراطية « ولاية الجماعة والتدير » ، والبناء المناسب لحبكة القصة « حسن قوام الأمور » ، Archon « الوالى على أثينية » عند متي ، و « ملك أثينوس » عند ابن سينا و discovery « استدلال » ، و plot خرافة ، و complication و dénouement « رباط وحل » علي التعاقب ، وأجزاء اللفظ (ال syllable فهى « اقتضب » عند متي و « مقطع » عند ابن سينا) من فاصلة واسم وكلمة . الخ متفقة عند الاثنين ، وهما يتفقان — إلا يسيراً — في المصطلحات التي يضعانها لأجزاء الأسم من حقيقى ومنقول . الخ ، ويسمى ابن سينا الكلمة الغريبة « لغة » على حين يسميها متي « لسانا » ، والاسم إما مذكر أو مؤنث أو متوسط بين المذكر والمؤنث (عند متي) ووسط (عند ابن سينا) ، والمناقشون والمراءون ، والأخذ بالوجوه تورد عند كليهما ، وهما يتفنان في معظم الألفاظ التي يضعانها لأجزاء التراجيديا بحسب الترتيب والأنشاد .

والشواهد هنا تميل بالباحث إلى أن يرجح أن ابن سينا اطلع على ترجمة متي وانتفع بها ، ولكن الذى يفرق أحد الاثنين من الآخر إنما هو الأسلوب

(١) الظاهر أن ابن رشد — كما سيجى — يتابع ابن سينا في مصطلحاته وتعبيره في الغالب إلا في تسمية التراجيديا والكوميديا فانه يتبع منهج متي ، وله نواح في الفهم خاصة جره إليها الهدف الذي كان يرمى اليه .

وطريقة الفهم فتى مترجم حرفي وابن سينا شارح مجتهد ، ومتى ناقل أعجمي العبارة ، وابن سينا فيلسوف عربي الأداء ، وترجمة متى لاندل على أن صاحبها حاول أن يفهم جو الأذب اليوناني قبل إقدامه على الترجمة ، وتلخيص ابن سينا يدل على أنه بذل جهداً في هذه الناحية ، ويستطيع الدارس أن يخرج من ابن سينا بفكرة فيها شيء من الوضوح عن بعض التطورات الرئيسية في نظرية أرسطو ، على حين لا يتيسر هذا من ترجمة متى إلا بمساعدة خارجية ، وابن سينا يستبقى في تلخيصه كلتي طراغوديا وقوموديا فلا يخلطهما كما فعل متى بالمديح والهجاء ، ولم يحاول متى بجوار الترجمة شيئاً من التحقيق أو التعريف بالكتاب على حين نجد عند ابن سينا التفاتات نافعة في هاتين الناحيتين .

ومع ذلك فهناك نواحي قص واضطراب يقع في بعضها ابن سينا وحده ، ويشاركه متى في بعضها الآخر : فانت لاتفرغ مثلاً من الفصل الثاني عند ابن سينا حتى تلاحظ أن قسطاً مهماً في فكرة أرسطو قد ابتدأت تختفي في تلخيص الفيلسوف الاسلامي ، ففكرة هيكل القصيدة وحكمتها ، وفكرة المحاكاة القصصية أو المسرحية ، والقضية التي يعرض لها أرسطو في الفصل الثالث عن مهد الدراما بسميها التراجيديا والكوميديا ، والدعوى التي يحكيها عن اشتقاق هذه الأسماء — كل أولئك يختفي عند ابن سينا لتحل محله المصطلحات البيانية من تشبيه واستعارة وتركيب ، ومن تحسين وتقييح ومطابقة .

وتغمض عبارة ابن سينا حين يتعرض لظواهر الخاصة بالمسرح اليوناني ، فيقول مثلاً :

(٢) لعل من اسرار ذلك الغموض عندنا أن السرح الحديث قد أوجد فينا القلا لالفاظ اصطلاح حية غير الالفاظ التي حاول المتقدمون أن يعبروا بها عن ظواهر السرح اليوناني من أمثال الاخذ بالوجوه والمجاهدة والتظار .. الخ

« ثم لما نشأت الطراغوديا لم تترك حتى أأكملت تغيرات وزادات وكانت تليق بطابعها ثم أضيف إليها الاخذ بالوجوه حتى صار الشيء الواحد يفهم من وجهين أحدهما من حيث اللفظ والآخر من حيث هيئة المنشد . ثم جاء اسخيلوس القديم فخلط ذلك بالالخان فوقع للطراغوديات ألقانا بقيت عند المغنين والرقاصين وهو الذي رسم المجددة بالشعر يعني المحسوبة والمناقضة كما قيل في الخطابة وسوفقليس وضع الالخان التي يلقيها في المحافل على سبيل المزمل والتطائز . . . »

هذه العبارة تبدو غموضها وانحرافها شيئا ما إذا وضعنا بجانبها ترجمة حديثة لكلام أرسطو في هذه النقطة كما يلي :

« والواقع أن حركة تطور التراجيديات لم تقف إلا حين وصلت إلى شكلها الطبيعي بعد سلسلة من التغيرات طويلة (١) فقد زاد إيسكلوس لأول مرة عدد الممثلين إلى اثنين ، وحد من عمل الجوقة ، وجعل الحوار أو الجزء الكلامي هو الدوران تسمى في الرواية (٢) وزاد سوفوكليس الممثلين إلى ثلاثة وأضاف المناظر (٣) وبلغت التراجيديات أوجها عندما تخطت مرحلة القصص الصغيرة والعبارة الهازلة . »

وأحيانا نجمع بين سينا رسته في تقريب الظواهر الأدبية اليونانية إلى القارئ العربي فتوقعه في الخلط ، فهو مثلا يجعل الانتقال « قريبا من الذي يسمى في زماننا للمطابقة » كما يقول ، ويشرح الدلالة (الاستكشاف) شرحا

غير دقيق فيقول : « هو أن يقصد الحالة الجميلة بالتحسين لامن جبة قسيح مقابلها . » (١)

وكثيراً ما يختصر في أمثلة أرسطو ، ويحذف بعض الاعلام التي يذكرها (٢) فيقول مثلاً : « وذكر له مثال . وذكر قوماً أحسنو البقلة المذكورة » ، ويقول « مثل رجلين سماها فلهما لما صارا في آخر أمرها من النساك المتقين أنشدوا في الرائي أشياء لا تناسب » ويقول : « ويجب ألا تكون الحرافة موردة مورد الشك حتى تكون كأنها تعسر علي التخيل فان هذا أولى بأن يخل جيداً كما كان يفعله فلان (٣) علي أنه يذكر الاسم أحياناً إذا اتصل الموضوع بهومبروس كقوله « وكذلك يجب أن تكون المحاكاة للأخلاق كما يقول أومبروس في بيان خيرية أسيلوس . »

ويشارك ابن سينا ومتي في أنهما لا يؤديان أداءً واضحاً مراد أرسطو في التفرقة بين الشعر والتاريخ ، فأرسطو يذكر (٤) أن وظيفة الشاعر هي أن يصف — لا شيئاً حدث — ولكن شيئاً يمكن أن يحدث — أي شيئاً

(١) الانتقال — على ما يظهر — هو اللفظة التي اختارها ابن سينا للدلالة على ما يقابل Peripeteia أو Reversal ويقصد به أرسطو ما يحدث من التغير أو الانقلاب في حظوظ البطل نتيجة لسير الحوادث . ويعبر ابن سينا « بالدلالة » على ما يسميه أرسطو Discovery وهو ما يحدث أثناء سير الرواية من استكشاف لامر مجهول (فصل ١١ أرسطو) .

(٢) أكثر ما يجيء هذا فيما يقابل القسم الثالث عشر والقسمين الرابع والعشرين والخامس والعشرين عند أرسطو . يقول ابن سينا بعد تلخيصه لوجوه تقصير الشعراء : « وقد شمن هذا الفصل من التعليم الاول بأمثلة » . ولكن ابن سينا يحذف هذه الامثلة ولا يبق الا متناكراً لا يمكن الانتفاع الحقيقي منه ، ولا يعطى فكرة أرسطو الاساسية في الاجابات على وجوه النقد .

(٣) و« فلان » هذا هو في الاصل بوربيديس .

(٤) فصل ٩ من كتاب الشعر .

محتملا احتمالا راجحا أو ضروريا ، والفرق بين اللؤرخ والشاعر ليس في أن أحدهما يكتب نثرا والآخر شعرا ، فأنت تستطيع أن تنظم مؤلفات « هيرودوت » ، ومع ذلك تظل نوعا من التاريخ . أما الفارق الحقيقي فهو أن اللؤرخ يصف الشيء الذي كان ، والآخر شيئا يمكن أن يكون . ومن ثم كان الشعر أعمق فلسفة وأجل خطرا من التاريخ ، فتقريراته ذات طبائع عامة ، في حين أن تقريرات التاريخ فردية . وأعني بالقضايا العامة تلك التي يخبر عما يمكن — على طريق الرجحان أو الضرورة — أن يقوله أو يفعله مثل هذا النوع من الانسان ، وهذا هو هدف الشعر . . . (١)

هذه هي عبارة أرسطو كما تؤديها الترجمة الحديثة . ولكن مترجمينا وشراحنا الاوائل حين يعالجون هذه النقطة يجيء عبارتهم عامة خامضة أو منحرفة عن مراد أرسطو . فأما « مني » فعبارة في المخطوطة مشوهة لا يمكن فهمها إلا بضميمة أخرى ، فهو يقول :

« وظاهر مما فيل أن التي كانت مثلا ليست من فعل
الشاعر لكن ذلك إنما في مثل أي شيء يكون إما ما هو
ذلك من الممكن على الحقيقة وإما التي تدعو الضرورة اليه
وذلك أن الذي يثبت الاحاديث والقصص والشاعر أيضا وإن كانا يتكلمان
هكذا بالوزن وبغير وزن هما مختلفان ولذلك
صارت صناعة الشعر هي التي فلسفية وأكثر في باب ماهي

(١) راجع في هذه النقطة الفصل المطول الذي عقده « بنتر » تحت عنوان « Poetic Truth » في كتابه (Aristotle's Theory of Poetry and of Fine Art) وفيه خلاصة لآراء ناقدين آخرين في الموضوع مثل كوليردج .

راجع كذلك الصفحات الاولى من الجزء الثالث (From Myth to History and Philosophy) من كتاب (A History of Classical Greek Literature) مؤلفه T.A. Sinclair

حريصة من إسطوريا الامور من قبل أن صناعة الشعر هي
كلية أكثر وأما إسطوريا فأنما تقول وتخبر بالجزئيات وهي
بالكلية . . . »

وأما ابن سينا فيقول :

واعلم أن المحاكاة التي تكون بالامثال والتقصص ليس هو
من الشعر بشيء بل الشعر إنما يتعرض لما يكون ممكنا
في الامور وجوده أو لما وجد ودخل في الضرورة ، وإنما
كان يكون ذلك لو كان الفرق بين الخرافات والمحاكيات
الوزن فقط ، وليس كذلك بل يحتاج إلى أن يكون
الكلام مسددا نحو أمر واحد ولم يوجد ، وليس الفرق
بين كتابين موزونين لهم أحدهما فيه شعر والآخر فيه
مثل ما في كلية ودمنة وليست شعر إلا بسبب الوزن فقط
حتى لو لم يكن لما يشبه (يشاكل) كلية ودمنة وزن
صار ناقصا لا يفعل فعله بل هو يفعل فعله من افادة
الآراء التي هي نتائج وتجارب أحوال ينسب إلى أمور
ليس لها وجود وإن لم يوزن . . . ولهذا صار الشعر
أكثر مشابهة للفلسفة من الكلام الآخر لأنه أشد تناولا
للوجود وأحكم بالحكم الكلي فأنما يقول في واحد علي أنه
عارض له وحده . . . »

وسنري بعد ، حين نعرض لابن رشد في القسم الرابع من حد
البحث ، أن موضوع التفرقة بين الشعر والتاريخ يعمض عليه حتى يبعد عن
مراد ارسطو بعدا كبيرا .

وإذ يفرغ ابن سينا من تلخيصه يقول :

« هذا هو تلخيص بقدر الذي وجد في هذه البلاد من كتاب الشعر للعميد لأور . وقد بقي منه شطر صالح ، ولا يبعد أن نجتهد نحن فنبتدع في علم الشعر المطلق ، وفي علم الشعر بحسب عادة هذا الزمان كلام شديد التحصيل والتفصيل ، وأما هـ . هـ . فلنقتصر على هذا المبلغ فان وكـ د غرضنا الاستقصاء فيما ينفع به من العلوم ، والله اعلم وأحكم . »

هذه الخاتمة تبرز أموراً تستحق التنويه : الاول أن موقف ابن سينا من كتاب الشعر لأرسطو موقف انتقاص الذي يريد ان يستقصي موسوعة العلوم ، والثاني إشارته إلى ان هذا التلخيص إنما يتناول ما وجد في هذه البلاد (١) من كتاب أرسطو ، والثالث تنبيهه إلى أن هناك خطوة أبعد من خطوة أرسطو يستطيع الباحث اللاحق ان يخطوها ، ذلك ان يبتدع في الشعر من حيث هو شعر ، والرابع إشارته إلى ان بحوث الشعر في زمانه قد اتسعت وأصبح فيها مجال للتحصيل والتفصيل .

يحتل ابن رشد (٢) منزلة خبابة بين شراح أرسطو . يقول دي بور :
« حصر ابن رشد جهده في مذهب أرسطو ، فتناول كل ما استطاع ان يحصل

(١) هل يعني « فارس » أم قطرا آخر من الاقطار الاسلامية ؟
(٢) أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد الفيلسوف الاندلسي ولد في مدينة قرطبة عام ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) ومات في سبراتش سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٨ م) .

عليه من مؤلفات ذلك الفيلسوف او من شروحها بدراسة عميقة ، ومقارنة دقيقة ، وكان علي علم بما لكتب اليونان من تراجم فقد بعضها فلا نعرف عنه شيئا ، ووصلنا البعض الآخر ناقصا . وابن رشد يمضي في مهمته علي طريقة النقد ، وعلي منهج مرسوم ، وهو يلخص مذهب ارسطو ويشرحه . بالمجاز تارة وباطنان تارة اخري ، فيطالعنا بشروح ملخصة ، حتي انه ليستحق أن يسمي « الشارح » ، وهو القلب الذي اطلقه عليه « داتي » في كتاب الكوميديا الالهية . (١)

ويمننا من بين هذه الشروح هنا شرح كتاب الشعر الذي حدد ابن رشد هدفه فيه في اول صفحة منه فقال :

« الغرض في هذا القول تلخيص ما في كتاب « ارسطوطاليس » في الشعر من القوانين الكلية المشتركة لجميع الامم او للاكثر ، إذ كثير مما فيه هي قوانين خاصة بأشعارهم وعادتهم فيها ، وإما ان تكون نسبا موجودة في كلام العرب او موجودة في غيره من الالسن . »

عرفت اوربا هذا الشرح منذ زمن طويل فقد ترجم بعد تأليفه بقليل إلى العبرية ثم ترجمه « هرمانوس المانوس » (٢) إلى اللاتينية تحت عنوان "Aristotelis Poetica" . وفي سنة ١٨٧٢ طبعه — في اصله العربي — « فوستولازينيو » في مدينة فيرنسة بإيطاليا .

ولكن النقاد الاوربيين يحملون علي شرح ابن رشد حملة شديدة ، ويعتبرونه مثالا واضحا من امثلة سوء فهم الشرقيين لنظرية ارسطو في

(١) تاريخ الفلسفة في الاسلام . تعريب أيوريدة ص ٢٥٦ .

(٢) هرمانوس الالماني مترجم عن العربية عاش في القرن الثالث عشر الميلادي . والمعروف أن « روجر بيكون » اطلع على أعماله .

التراجيديا . يقول بايوتر : « ويمكن أن يرى احتمال الجلالة الشرقية بارزا للعيان في شرح ابن رشد الذي بناه على النص العربي . إن ابن رشد يطمئن شيئاً ما في الاجزاء الفلسفية والأجرومية من كتاب الشعر ، ولكن معنى الكتاب كنظرية للتراجيديا الاغريقية كان من مبدئه الى منتهاه لغزاً هائلاً للعالم الارسطي القرطبي العظيم » (٢) ويقول دي بور : « ولكنّه (أى ابن رشد) يعد كتاب الخطابة وكتاب الشعر جزءين من منطق أرسطو ، وفي هذا الوضع نجد من الاخطاء أغربها ، فمثلاً يعد ابن رشد التراجيديا مدحاً والكوميديا هجاءاً والشعر يجب أن يقتنع بأن يدل إما على حقائق يمكن أن يقام عليها البرهان أو على أشياء خادعة ، ويعتبر ابن رشد أن التعارف على المسرح معرفة استدلالية وهكذا . ولم يكن لابن رشد بطبيعة الحال أى معرفة بالعالم اليوناني . وقد نتجاوز عن مثل هذا الخطأ لأن ابن رشد لم تيسر له معرفة ذلك العالم . ولكن ينبغي الانسارع إلى معذرة رجل كان قاسياً على الناس في قده » (٣)

وليس رأى النقد العربي الحديث في ابن رشد بأقل من رأى الغربيين شدة ! يقول طه حسين : « ولست أتعرض في هذا المقام لما كتب ابن رشد عنها (عن كتابي الخطابة والشعر) ، فذلك غير خاف على القارئ من جهة ثم هو من جهة أخرى لا يتفق بوجه من الوجوه ومعاني أرسطو . ذلك لأن ابن رشد لم يفهم هذه المعاني فحرفها جهيد استطاعته . وقد نسأل انفسنا ونحن نقرأ ابن رشد عن سبب هذا التحريف : أهو قصور من الفيلسوف القرطبي ، أم فساد ترجمة الخطابة والشعر ؟ » (٤)

(٢) ص XXXII من مقدمة كتاب Aristotle on the Art of Poetry لـ Bywater

(٣) تاريخ الفلسفة في الاسلام — دي بور — ترجمة أبو ريدة : ط . سنة ١٩٣٨ ص ٢٥٨

(٤) ص ٢٤ « تمهيد في اليات العربي من الجاحظ الى عبد القار » . طه حسين .

وسنحاول هنا أن نتبع تلخيص ابن رشد لنظرية أرسطو لتئين وكيف قرب أو بعد من جوهر الفكرة الأصلية ، ولنحدد موقفه من الموضوع . يسير « ابن رشد » على نسق الأصل والترجمة فيقول : « قال إن قصدنا الآن التكلم في صناعة الشعر وفي أنواع الأشعار ... » . ولكنه لا يكاد يسرد ما عده أرسطو من نقط البحث حتى قرأه يقسم الشعر إلى هجاء ومديح ، « قال فكل شعر وكل قول شعري فهو إما هجاء وإما مديح وذلك بين باستقراء الأشعار وبخاصة أشعارهم التي كانت في الأمور الإرادية أعني الحسنة والقيحة .. » . هذا الاتجاه في فهم الشعر سيكون له أثره في الفكرة كلها عند ابن رشد . والظاهر أنه اعتمد هنا على متى اعتمادا كبيرا ، فمتى في ترجمته يقول بعد أسطر من أول كتابه : « وكل شعر وكل نشيد شعري إما مديح (؟) وإما هجاء » . ويلاحظ أن ابن سينا — وهو الحلقة المتوسطة بين المترجم السرياني والفيلسوف القرطبي — يقرأ من هذا الانحراف في الفهم ، ولا يذكر المدح والذم إلا في معرض قريب من ذكر أرسطو إياها فيقول :

« ولذلك كانت المحاكاة الشعرية عندهم (أي اليونان) مقصورة على الأفاعيل والاحوال ، وعلى الدوات من حيث لها تلك الأفاعيل والاحوال ، وكل فعل إما قبيح وإما جميل ، ولما اعتادوا محاكاة الأفعال اتقل بعضهم إلى محاكاة التشبيه الصرف لا التحسين وتقييح ، فكل تشبيه ومحاكاة كان معدا عندهم نحو التقييح أو التحسين وبالجملة للمدح أو الذم » .

لا يلبث ابن رشد أن يستطرد إلى الكلام عن الاقاول الشعرية — كما فعل ابن سينا من قبل — وهي الاقاول الخيلة ، ويتناول أصناف التخيل والتشبيه ، ويلجأ بسرعة إلى القرآن والأدب العربي يستمد منها مادته للتشبيه : فالإبدال — الذي هو أخذ الشيء بعينه بدل الشيء — يمثل له بقوله تعالى

(وازواجه أمهاتهم) ، وبقول الشاعر : هو البحر من أى النواحي اتبته ... ثم يقول : « وينبغي أن تعلم أن فى هذا القسم تدخل الأنواع التى يسميها أهل زماننا استعارة وكناية ، مثل قول الشاعر : وعرى أفراس الصبا ورواحله » ويعود ابن رشد الى متابعة أرسطو فيتكلم عن المحاكاة بالالوان والاشكال والاصوات ، وكون هذه المحاكاة إما نتيجة صناعة وملكية وإما نتيجة عادة تهدمت فى ذلك ، ويقول : « والمحاكاة فى الاقاويل الشعرية تكون من قبل ثلاثة اشياء . من قبل النغم المتفق ، ومن قبل الوزن ، ومن قبل التشبيه نفسه.... وقد تجتمع هذه الثلاثة بأسرها مثل ما يوجد عندنا فى النوع الذى يسمى الموشحات والازجال ، وهى الاشعار الطبيعية إما توجد للامم الطبيعية ، فان أشعر العرب ليس فيها لحن وإنما هى إما بالوزن فقط وإما الوزن والمحاكاة معا فيه . وإذا كان هذا هكذا فالصناعة الخيلية أو التى تفعل فعل التخيل ثلاثة : صناعة اللحن وصناعة الوزن ، وصناعة عمل الاقاويل المحاكية ، وهذه الصناعة المنطقية التى ننظر فيها فى هذا الكتاب » .

هنا نجد انفسنا أمام شعب جديد فى الفكرة وفى الادب للقارن ، وأمام رغبة ملحة فى تطبيق ما يمكن تطبيقه من نظرية أرسطو - ولو بتعسف - على الشعر العربى . وهذه الرغبة ستفرض نفسها فرضا فى ثنايا الكتاب ، وستتضرع الباحث أن يجعل لها اعتبارها فى الحكم على حسن أداء ابن رشد أو سوء أدائه لنظرية أرسطو . وعندنا أن كثيرا من الباحثين قد أغفلوا هذا الاتجاه عند ابن رشد ، فحكموا عليه باعتباره شارحا وملخصا فحسب ، فجد حكمهم هذا شديدا بعيدا عن القصد .

يسير ابن رشد بعد ذلك على عقد فصول غير مرقمة يعالج فيها الموضوعات العامة

العامة من كتاب الشعر ، فيبحث في الأول منها فكرة أن « كل تشبيه وحكاية إنما يقصد بها التحسين والتقييح ، وأن الماثلين بالطبع الى محاكاة الفضائل أفاضل والمحاكون للرزائل أنقص طبعا من هؤلاء ... وعن هذين الصنفين من الناس وجد المديح والمجوى ، أغنى مدح الفضائل وهجو الرذائل ... وهناك نوع من التشبيه يقصد به مجرد مطابقة المشبه بالمشبه به ، وكانت طريقة اومبروش أن يأتي في تشبيهاته بالمطابقة والزيادة المحسنة وللقبحة ، وهو من أجاد في الامرين معا »

وهنا يعرج ابن رشد ثانية علي ما استهدفه منذ اول الأمر من الموازنة بين الاديين العربي واليوناني . وله في فهم الظواهر الأدبية آراء جد غريبة ينقل بعضها عن أبي نصر الفارابي ، يقول — مثلا — :

« وأنت فليس يعسر عليك وجود مثالات ذلك (أى أصناف التشبيهات الثلاثة) في اشعار العرب ، وإن كانت أكثر أشعار العرب إنما هي كما يقول أبو نصر في النهم والكريه ، وذلك أن النوع الذي يسمونه النسيب إنما هو حث على الفسوق ، ولذلك ينبغي أن يتجنبه الولدان ، ويؤدبون من اشعارهم بما يحث فيه علي الشجاعة والكرم ، فانه ليس تحت العرب في اشعارهم من الفضائل علي سوى هاتين الفضيلتين ، وإن كانت ليس تتكلم فيهما علي طريق الفخر . وأما الصنف من الاشعار الذي المقصود به المطابقة فقط فهو موجود كثيرا في اشعارهم ، ولذلك يصفون الجمادات كثيرا والحيوان والنبات . وأما اليونانيون فلم يكونوا يقولون أكثر ذلك شعرا إلا وهو موجه نحو

الفضيلة أو الكف عن الرذيلة أو ما يفيد أدبا من
الآداب أو معرفة من المعارف . . . »

وبلي ذلك فصل آخر يعود فيه ابن رشد إلى مسامرة أرسطو في الكلام على
العلل المولدة للشعر بالطبع فيذكر كما ذكر ابن سينا من قبل أنها علتان : الأولى
وجود التشبيه والمحاكاة للانسان بالطبع . . . والثانية التذاذ الانسان أيضا بالطبع
بالوزن والالخان . وبعد أن يشرح هاتين علتين ينبه إلى أن هذا القدر هو
« ما في هذا الفصل من الأمور المشتركة لجميع الأمم أو للاكثر ، وسائر ما
يذكر فيه فكله أو جله مما يخص أشعارهم وعادتهم فيها » .

ويختتم الفيلسوف القرطبي هذا الفصل بكلمة عن صناعة المهجاء ، ثم ينتقل
في الفصل التالي إلى صناعة المديح ، فيحدها حداً مطولاً تبسّط فيه معالم نظرية
أرسطو أصيلة أو مغيرة ، يقول :

« والحد المفهم جوهر صناعة المديح هو أنها تشبيه ومحاكاة
للعمل الارادي الفاضل الكامل الذي له قوة كلية في
الامور الفاضلة لا قوة جزئية في واحد واحد من الامور
الفاضلة محاكاة تنفعل لها النفوس افعالا معتدلا بما يولد
فيها من الرحمة والخوف ، وذلك بما يخيل في الفاضلين من
النقى والنظافة فان المحاكاة إنما هي للبهات التي تلزم الفضائل
للالهالكات إذ ليس يمكن فيها أن يتخيل . وهذه المحاكاة
بالقول تكمل إذا قرن بها اللحن والوزن ، وقد توجد من
للنشدنين أقوال أخر خارجة عن الوزن واللحن تجعل القول
أتم محاكاة ، وهي الاشارات والأخذ بالوجوه الذي قبل
في كتاب الخطابة » .

هكذا عبر ابن رشد عما استخلصه من تعريف أرسطو للتراجيديا . وأكبر ما يصادفنا من الغموض في التفاصيل التي يذكرها بعد ذلك التعريف كلامه في أجزاء صناعة المديح ، يقول :

« وقد يجب أن تكون أجزاء صناعة المديح ستة : الأفاويل الخرافية والعادات والوزن والاعتقادات والنظر والحن . والدليل على ذلك أن كل قول شعري قد ينقسم إلى مشبه ومشبه به ، والذي به يشبه ثلاثة : المحاكاة والوزن والحن ، والذي يشبه في المدح ثلاثة أيضا : العادات والاعتقادات والنظر ، أعني الاستدلال لصواب الاعتقاد فتكون أجزاء صناعة المديح ضرورة ستة . . »

فن الظاهر أن هذه الأجزاء الستة تقابل الأجزاء الستة للتراجيديا كما يقرها أرسطو (في القسم السادس من كتابه)^(١) ، ولكن إذا وضعنا بجانب الأصل مصطلحات ابن رشد تين لنا أن الأصل اليوناني والتلخيص القرطبي ليسا على تمام الوفاق ، فليس ندري إن كان ما يسميه ابن رشد الأفاويل الخرافية هو « الحبكة » أو « العبارة » أو هما معا ، ثم إذا اعتبرنا النظر عند ابن رشد هو ما يقابل « الفكر » عند أرسطو ، قبل العادات والاعتقادات معا يقبلان « الخلق » عند أرسطو ؟ وإذا كان الحن هو ما يقابل « النعم » في الأصل ، فما هو عنصر

(١) يقول أرسطو : « ان الله كما يمثل في المسرحيات هو الموضوع أو الحبكة ، إذ الحبكة في اصطلاحنا هي بكل بساطة ربط الحوادث أو الأشياء التي تحدث في القصة ، في حين أن الخلق هو ذلك الذي يجعلنا ننسب الاشخاص (الفاعلين) صفات أخلاقية معينة ، والفكر يشجلى في كل ما يقولون عند ما يدلون على فكرة خاصة أو يقررون حقيقة عامة . وإذا فهمناك ستة أجزاء في كل تراجيديا ، وهذه الأجزاء هي التي تغطي التراجيديا صفها العامة ، وهي : الحبكة والخلق والعبارة والفكر والنظر المسرحي والنعم ، اثنان من هذه (العبارة والنعم) ينشأ من وسائل المحاكاة ، وواحد (النظر) من طريقتهما ، والثلاثة الباقية (الحبكة والخلق والفكر) من موضوعات المحاكاة . » [ترجمنا الحديثة لكتاب الشعر] .

الوزن الذي يذكره ابن رشد ؟ وأين في تلخيصه عنصر « النظر المسرحي » (Spectacle) الذي هو للظهر التمثيلي من التراجيديات اليونانية ؟

يعقد ابن رشد — بعد ما تقدم — فصلا لمعالجة موضوع القسم السابع من أرسطو ، (البناء المناسب للقصة) ، وهو هنا واضح متمكن من فهم الفكرة الفلاسفية الذوقية التي يقرها أرسطو في خواص الشيء أو الكائن الجميل . ونلاحظ أن فيلسوفنا إذ تعوزه اللمعة الواحدة الدالة على التصور الأصلي في النص يلجأ إلى طريقة الشرح المظلول ، كما فعل في شرح فكرة الحوادث الاستطردية في التراجيديات (episodes) ، يقول : « ومما يحسن به قوام الشعر ألا يطول فيه بذكر الأشياء الكثيرة التي تعرض للشيء الواحد المقصود به الشعر ، فإن الشيء الواحد تعرض له أشياء كثيرة ، وكذلك يوجد للشيء الواحد المشار إليه أفعال كثيرة ، ويشبه أن يكون جميع الشعراء لا يتحفظون بهذا بل ينتقلون من شيء إلى شيء ولا يلزمون غرضا واحدا بعينه ما عدا أومبروش . ثم يقارن فيقول : « وأنت تجد هذا كثيرا ما يعرض في أشعار العرب والمحدثين وبخاصة عند المدح ، أعني أنه إذا عن لهم شيء ما من أسباب المدح مثل سيف أو قوس اشتغلوا بمحاكاته وأضربوا عن ذكر المدح » .

ومن أبرز مظاهر الانحراف في تلخيص ابن رشد الكلام على ماسماه صناعة الأمثال والقصص ، والفرق بينها وبين صناعة الشعر . وقد أوردنا في الكلام على ابن سينا خلاصة فكرة العلم الأول (في القسم التاسع من كتابه) في التفرقة بين عمل المؤرخ وعمل الشاعر ، فكيف فهم ابن رشد هذه الفكرة وفي أي ثوب أبرزها ؟ يقول :

« وظاهر أيضا مما قيل من مقصد الاقاويل الشعرية أن
المحاكاة التي تكون بالأمور المحترمة الكاذبة ليست من

فعل الشاعر وهي التي تسمى أمثالا وقصصا مثل ما في كتاب كليله ودمته ، لكن الشاعر إنما يتكلم في الامور الموجودة أو الممكنة الوجود لان هذه هي التي يقصدها المهرب عنها أو طلبها أو مطابقة التشبيه لها علي ما قيل في فصول المحاكاة ، وأما الذين يعملون الامثال والقصص فان عملهم غير عمل الشعراء ، وإن كانوا قد يعملون تلك الامثال والاحاديث المخترة بكلام موزون ، وذلك أن كليهما وإن كانا يشتركان في الوزن فالجهدا يتم له العمل الذي قصده بالخرافة وإن لم تكن موزونة ، وهو التعقل الذي يستفاد من الاحاديث المخترة ، والشاعر لا يوصل له مقصوده علي التمام من التخيل إلا بالوزن ، فالفاعل للامثال المخترة والقصص إنما يخترع أشخاصا ليس لها وجود أصلا ويضع لها أسماء ، وأما الشاعر فانما يضع أسماء لأشياء موجودة ، وربما تكلموا في الكليات ولذلك كانت صناعة الشعر أقرب إلى الفلسفة من صناعة اختراع الامثال ، وهذا الذي قاله هو بحسب عادتهم في الشعر الذي يشبه أن يكون هو الامر الطبيعي للامم الطبيعية .

إن الباحث ليجد نفسه هنا في حيرة من طريقة ابن رشد في معالجة الموضوع ، فقد اختفى التاريخ من المسألة — وهو أحد ركائزها — وحلت محله الأمثال والقصص (مثل ما في كتاب كليله ودمته) ، وأصبحت الموازنة بين الذين يعملون الأمثال والقصص وبين الشعراء ، ثم أصبحت التفرقة علي أساس أن الأولين يخترعون أشخاصا ليس لها وجود أصلا ، والآخرين يضعون أسماء لأشياء موجودة ، وربما تكلموا في الكليات ١ وقد كان الباحث يستطيع أن يلتبس عندرا

لابن رشد في هذا الخلط لولا أنه يقرر في صراحة أن البحث هنا منصب علي عادة الاغريق في الشعر .

وهذا الخلط في الفهم يستمر فيخيل لابن رشد أن الصور البيانية القائمة علي تشخيص الأشياء (كالجود مثلا) ونسبة الأفعال اليها « لا ينبغي أن يعتمد في صناعة المديح فان هذا النحو من التخييل ليس مما يوافق جميع الطبائع ، بل قد يضحك منه ويزدرجه كثير من الناس » . وثمت خلط آخر يقع فيه في هذا الفصل عند كلامه علي العنصرين الذين يسميهما « الادارة والاستدلال » ، فهو يعتبرهما نوعين للتخييل ، وهذا استعمال غريب لكلمة «التخييل» فان أرسطو حين يذكر هذين العنصرين (الاقلاب والكشف قسم ١٠) إنما يذكرهما باعتبارهما العنصرين الرئيسيين في الحكمة (plot) ، وهذا التصور الدرامي للعنصرين يستحيل عند ابن رشد إلى تصور آخر بعيد عن الأصل ، يقول

« قال وأعني بالادارة محاكاة ضد المقصود مدحه بما ينفر الناس عنه ثم ينتقل منه إلى محاكاة المدح نفسه ، مثل أنه إذا أراد أن يحاكي السعادة وأهلها ابتداءً أولاً بمحاكاة الشقاوة وأهلها ثم انتقل الى محاكاة أهل السعادة ، وذلك بضد ما حاكي به أهل الشقاوة ، أما الاستدلال فهو محاكاة الشيء . فقط » .

وبعد أن ينسخ التصور الأصلي علي هذا الوجه يسهل علي ابن رشد ان ينقله الى الشعر العربي وأن يمثل لنوع منه (وهو الاستدلال والادارة في الاشياء غير للتنفسة) بقول أبي الطيب :

كم زورة لك في الأعراب خافية أدهى وقد رقدوا من زورة الذيب
أزورهم وسواد الليل يشفع لي وأتني وياض الصبح يغري بي

ويعلق علي هذين البيتين بقوله : « فإن البيت الأول هو استدلال ، والثاني إدارة . ولما جمع هذان البيتان صنفى المحاكاة كانا في غاية من الحسن » .

ويعقد ابن رشد فصلا للكلام علي أجزاء صناعة المديح من جهة الكمية (قسم ١٢ من أرسطو) ، ولكنه يسرع فيتحاشى مصطلحات التراجيديا اليونانية قائلا إن الذي ذكره أرسطو في هذا المعني أجزاء خاصة بأشعارهم ، « والذي يوجد منها في أشعار العرب فهي ثلاثة : الجزء الذي يجري عندهم مجرى الصدر في الخطبة وهو الذي فيه يذكرون الديار والآثار ويتغزلون فيه ، والجزء الثاني المدح ، والجزء الثالث الذي يجري مجرى الخاتمة في الخطبة .. »

يطول هذا الفصل عند ابن رشد حتى يشغل من اقسام أرسطو ثمانية (من ١٢ إلى ١٩) (١) . ومما يشيع في هذا الفصل وتجدر ملاحظته كثرة التفات ابن رشد إلى بعض النواحي التراجيدية والقصصية في القرآن وفي الادب العربي ، واستشهاده في كثير من المواضع بالاقاويل الشرعية والسنن المكتوبة . فهو يمثل للاقاويل اللديحية التي تكسب النفوس رقة ورحمة وانصرافا إلى الفضائل « بما ورد من حديث يوسف صلى الله عليه وسلم واخوته وغير ذلك من الأفايص التي تسمى مواعظ » . ويمثل للمآسي التي تحدث في محيط الأسرة والتي يلحق فيها السوء بعض المحين علي يد بعض — مثل قتل الآباء الأبناء أو لأبناء الآباء — بما ورد من قصص إبراهيم عليه السلام فيما أمر به من قتل ابنه ، ويذكر أن هذا القصص « في غاية الأقاويل للوجبة للحزن والخوف » . ويذكر أن من الشعراء من يدخل في المدائح محاكاة أشياء يقصد بها التعجب فقط من غير أن تكون مخيفة ولا محزنة ، ثم يقول : « وأنت تجد مثل هذه الاشياء كلها كثيرا في للمكتوبات الشرعية إذ كانت مدائح الفضائل ليس توجد في أشعار العرب

(١) وكذلك فعل ابن سينا من قبله.

وإنما توجد في زماننا هذا في السنن المكتوبة .

ويفيض ابن رشد إفاضة ظاهرة في شرح قطعة الحزن والرحمة ، وفي الكلام على الأفعال الغاضلة التي تصغر عن علم وإرادة والتي هي محور المحاكاة في صناعة المديح . ثم ينتقل إلى الكلام على العادات (مترجما بها على ما يظهر لما يقابل Character) ، وكلامه هنا يقرب من الدقة حيث ينصب البحث على الأمور العامة ، فهو يذكر الشروط الأربعة التي تشترط فيما يحاكمي من العادات في المدح الجيد من كونها خيرة (good) ولائقة (appropriate) ، وعلى أنهم ما توجد في المدح من الشبه والمواقفة (like reality) ، ومن كونها معتدلة متوسطة بين الأطراف (consistent and the same throughout) . ولكنه ينحرف مرة أخرى في الكلام على أنواع الاستدلال ، فينقل الكلام — من ميدان الكشف (discovery) بالعلامات الوراثية والتكتبية — إلى أنواع التشبيه العربي مستعملا أحيانا نفس أمثلة أرسطو (التي أوردها في القسم ١٦ للكلام على أنواع الكشف) . إن أرسطو يتكلم على أنواع الاستكشاف التي يستعملها الشعراء في حبيكات ما سيهم من سمات تولد مع الشخص أو تكتسب بعد الميلاد ، ومن علامات على الجسم كالندوب ، أو علامات خارجية كالقلادة ، ومن حيل أخرى فنية كخطاب يرسل ، أو ذاكرة تستيقظ ، أو استنتاج يقوم به الفكر . أما ابن رشد فيصرف الكلام في هذه النقطة إلى أنواع من المحاكاة « منها أن تكون المحاكاة لأشياء محسوسة بأشياء محسوسة من شأنها أن توقع الشك لمن ينظر إليها ، وتوهم أنها هي لأشياء كما في أحوال محسوسة ، ذلك مثل تسميتهم لبض الكواكب سرطانا ، وبعضها ممك الحربة لأنها من جهة الشكل يمكن أن يتوهم متوهم أنها هي هي ، وجل تشبيهات العرب راجعة إلى هذا الوضع ولذلك كانت حروف التشبيه عندهم تقتضي الشك . . . ومنها أن تكون

المحاكاة لأمر معنوية بأمر محسوسة ، مثل قولهم في المنسة إنها طوق العنق
وفي الاحسان قيد . . . »

ومن الدليل على الخلط هنا أن ابن رشد يحوز — حين يحدد السبيل —
أن يعود الى كلام أرسطو في أنواع الاستكشاف فيقول : « قال والنوع الثالث
من المحاكاة هي المحاكاة التي تقع بالتذكر » (١) غير أنه سرعان ما ينحرف
الى الكلام عن الحنين والذكرى والخيال في الشعر العربي . وهكذا تنتقل
— قبل أن يرتد الينا الطرف — من ملاحم هوميروس ومأسي سوفوكليس
الى تشبيهات امرئ القيس وأبي تمام وأبي الطيب وأبي فراس !

والفكرة البارزة التي لا يفتأ ابن رشد يرددها في هذه الفصول هي أن
بعض الظواهر الأدبية المهمة التي يتناولها كلام أرسطو لا توجد في الشعر العربي
إلا قليلا ، ولكنها توجد في الكتاب العزيز (٢) وعلى أساس هذه الفكرة
يعلل ابن رشد موقف القرآن من الشعراء وإنجده عليهم باللائمة . وقد أوردنا
فيما مضى بعض أمثلة من هذا ، ونضيف الآن مثلا آخر . يقول ابن رشد :

« قال والاستدلال التفاضل والادارة إنما تكون للأفعال
الارادية . وأكثر ما يوجد هذا النوع من الاستدلال في
الكتاب العزيز ، أعني في مدح الأفعال التفاضلة وذم الأفعال
الغير فاضلة ، وهو قليل في أشعار العرب . ومثال الادارة
في المدح قوله تعالى (ضرب الله مثلا كلمة طيبة . . . الى
قوله ما لها من قرار) ، ومثال الاستدلال قوله تعالى (كمثل
حبة أنبتت سبع سنابل . . . الآية) وليكون أشعار العرب

(١) وهو النوع الثالث من أنواع الاستكشاف عند أرسطو .

(٢) بحثت في القرآن في قصصه ، وناقشت فكرة ابن رشد فيه في مقال بعنوان « من

فنون القرآن » (الثقافة . عدد خاص للهجرة ٣٦٣ ص ١٣)

خلية من مدائح الأفعال الفاضلة وذم النقائص أنقى
الكتاب العزيز عليهم واستنقى منهم من ضرب قوله الى
هذا الجنس .»

ثم لابن رشد كذلك لفتات في النقد العربي يوردها أحيانا ويستشهد لها
بشعر مشاهير الشعراء ولا سيما امرؤ القيس والمنتبى ، فهو إذا تكلم — مثلا —
عن القصص الشعرى الذى يقصد به الى مطابقة التمشيه فقط ذكر أنه « قد يوجد
ذلك في اشعارهم في وصف الأحوال الواقعة مثل الحروب وغير ذلك مما يمدحون
به » . ثم يقول : « والمنتبى أفضل من يوجد له هذا الصنف من التخييل ، وذلك
كثير في اشعاره ، ولذلك يحكى عنه أنه كان لا يريد أن يصف الوقائع التى لم
يشهدها مع سيف الدولة » .

ويحاط ابن رشد مرة أخرى حين يتناول الكلام على الوط والحل (١) ،
فكل تراجيديا كما يقول أرسطو من حبة تعقيد (complication) ، ومن حبة
حل (dénouement) ، فحوادث ما قبل للنظر الافتتاحى — وفي كثير من
الأحيان بعض حوادث الرواية نفسها — تؤلف التعقيد ، والباقي هو الحل . يقول
أرسطو : « وأنا أدعني بالتعقيد كل شيء من مبدأ القصة الى النقطة التى تسبق
التغير فى حظوظ البطل مباشرة ، وبالحل كل شيء من مبدأ التغير الى النهاية » .
أما ابن رشد فينجذب الى ظاهر هذا التقسيم ، والى فكرة سابق والملاحق فى
سوء التراجيديا ، فينتقل هذا التصور قلا سطحيًا الى بناء القصيدة العربية فيقول
« ويشبه أن يكون أقرب الأشياء شها بالرباط الموجود فى
أشعارهم هو الجزء الذى يسمى عندنا الاستطراد وهو
ربط جزء النسيب وبالجملة صدر القصيدة الملبى ، والحل

(١) تابع أرسطو هذا الموضوع فى القسم ١٨ من البوطيقا .

تفصيل الجزئين أحدهما من الآخر أى يؤتي بهما مفصلا
وأكثر ما يوجد الرباط في أشعار المحدثين ... وأما الحل
فهو موجود كثيرا في أشعار العرب مثل قول زهير : دع
ذا وعد القول في هرم .

ولا يكاد ابن رشد يختلف من ابن سينا في تلخيص موضوع "العبارة"، ولكنه
لا يفتأ يطبق ملاحظاته على الشعر العربي، وينبه على ما يخص وما يعم من الظواهر
فالكلمة « الغير مصرفة هي التي تدل على الحال وهذا خاص بلسانهم » ،
والاسم المرتجل الذي يختاره الشاعر اختراعا (coined) ويكون هو أول من
استعمله « غير موجود في أشعار العرب » ، وإنما يوجد ذلك في الصنائع الناشئة
وأكثر ما في الصنائع هو منقول لا معمول مخترع، وربما استعمله المحدثون من
الشعراء على طريق الاستعارة « ، وأفضل أنواع القول في التضميم هو القول المشهور
للبتذل « وذلك مثل شعر فلان وفلان لقوم مشهورين عندهم ، وينبغي أن نتفقد
من الغالب على أشعاره هذا النوع من الالفاظ من شعراء العرب » . وهو في
سياق تلخيصه لكلام أرسطو في هذا الموضوع يستطرد الى بعض النواحي العربية
من مثل المطابقة والمجانسة فيتكلم فيها ويمثل لها من النثر ومن الشعر العربي، ويعتبر
القوافي عند العرب « موافقة في المقدار وفي بعض اللفظ ، ذلك إما في حرف واحد
وهو الأخير ، وإما في حرفين وهو الذي يعرفه المحدثون بالزوم » . ويشير الى
نواح من النقد العملي كالقضية المشهورة حول يتي امرئ القيس (كأنني لم
أركب جوادا ...) ، ويتي أبي الطيب (تمر بك الابطال ..) ، وكالمركبة
النقدية حول الأبيات (ولما قضينا من منى كل حاجة) يقول : « إنه اذا غير
القول الحقيقي سمي شعرا أو قولاً شعريا ووجد له فعل الشعر ، مثل تلك الأبيات
فإنها إنما صارت شعرا من قبل أنه استعمل قوله أخذنا باطراف الاحاديث يتنا

وسالت بأعناق المطى الاباطح ، بدل قوله نحدثنا ومثينا .

ويتكلم ابن رشد عن المجاز عند العرب ممثلاً لأنواعه ، ثم يحاول - متبعاً ابن سينا - أن يلخص ما يقرره أرسطو في القسم الثاني والعشرين من البوطيقا عن مناسبة أنواع الكلام لأنواع الشعر ، يقول ابن رشد :

« قال والأسماء المركبة تصلح للوزن الذي يثني فيه عي
الأخبار من غير تعيين رجل واحد منهم ، وهذه الأسماء
هي قليلة الوجود في لسان العرب ، وهي مثل قولهم
العبيشى - المنسوب الى عبد شمس ، وأما اللغات فتصلح
للشعر الذي يذكر فيه أمر المعاد وما فيه من الأحوال ، وكان
صفا من الشعر عندهم معروفاً ، وأما الأسماء المنقولة الغريبة
فتختص بالأشعار التي تقال في الأمثال والحكم والقصص
المشهوره . »

مثل هذا النوع من الفهم لضروب الشعر اليوناني مر بنا عند الكلام على
ابن سينا ، وإذا قابلنا الأصل الأرسطي وتمعننا في العربية وجدنا أن ما سمي
ابن سيد وابن رشد « الوزن الذي يثني فيه عي الأخبار من غير تعيين رجل
واحد منهم » يقابل « الديترامب » عند أرسطو ، « والشعر الذي يذكر فيه أمر
المعاد وما فيه من الأحوال » يقابل عند أرسطو شعر الـ Heroics ، « والأشعار
التي تقال في الأمثال والحكم والقصص المشهورة » هي الشعر الأيادي عند أرسطو .
وإذا رجعنا الى تاريخ تطور هذه الأنواع في الأدب اليوناني رجحنا أن معلومات
العرب عنها ترجع الى كتابات العصر الاسكندردي وطريقة فهم أهله لفنون

الادب القديم (١).

يستمر ابن رشد في هذا الفصل فيتكلم عن الشعر والقصص ، وهو هنا — كعادته — لا يسلم من الخلط . فقد تصور أن الحكاية في الأشعار القصصية « ليست تكون للأفعال فيها ، وإنما تكون للزمنة الواقعة فيها تلك الأفعال . وذلك أنه إنما يحكي في هذه كيف كانت أحوال للتقدم مع أحوال للتأخر وكيف تنقل الدول والممالك والأيام » . والظاهر أن الخلط جاءه من أن أرسطو يقارن أولا بين الدراما والشعر القصصي ، ثم يفرق بين هذا والتاريخ . واليك نص عبارة أرسطو مأخوذة من ترجمتنا الحديثة :

« . . فمن الواضح أن بناء حكاياته (أي الشعر القصصي) ينبغي أن يكون على مثال ما في الدراما ، بأن تكون قائمة على أساس فعل واحد ، كل كامل في نفسه ، له مبدأ ووسط ونهاية ، حتى يمكن أن يحدث العمل الأدبي لذاته الخاصة به ، وأن تتحقق فيه الوحدة العضوية التي تتمثل في الكائن الحي . ولا ينبغي أن يظن ظان أن هناك شيئا بهذه الحكايات في تواريخنا العادية ، فالتاريخ لا يعالج فعلا واحدا ، ولكن مرحلة واحدة بكل ما حدث فيها لشخص أو أكثر ، مهما كانت الحوادث المتعددة فيها غير مترابطة » (٢).

(١) هذا فرض يحتاج إلى مزيد تحقيق ، وربما عدنا إليه في بحث آخر . غير أن هناك شواهد تؤيد راجع — مثلا — الصفحات ١٠٤ ، ١١٠ ، ١٥٠ من كتاب سنكلير

" A Hist. of Classical greek Literature. " Sinclair

(٢) قسم ٢٣ من كتاب أرسطو

فابن رشد . كما هو ظاهر — يخلط بين التاريخ والشعر القصصى ، ويرتب عل هذا تقريره أن المحاكاة فى الأشعار القصصية « ليس تكون للأفعال فيها ، وإنما تكون للآزمئة الواقعة فيها مثل تلك الأفعال » .

وحين وصل ابن رشد الى ما يقابل قسم ٢٤ من كتب الشعر — حيث يبحث أرسطو موضوع الملحمة — تسأل الفيلسوف القرطبى من الموضوع واكتفى بأن يشير اليه إشارة غامضة ، ثم اسرع ليعلل لعدم وجوده فى الشعر العربى فى قوله :

« وذكر فروقا بين صناعة المديح وبين صنائع الشعر الأخر عنهم ، وحواص تختص بها تلك الأشعار الأخر فى الأوزان والأجزاء والمحاكاة والقدر ، وإن هاهنا أوزانا هي أليق ببعض الأشعار من بعض ، وذكر من أجاد من الشعراء فى هذه الأشياء ومن لم يجده ، وانتهى فى هذا كله على أومير وش ، وكل ذلك خاص بهم وغير موجود مثله عندنا إما لان ذلك الذي ذكر غير مشترك نأكثر من الأمم ، وإما لانه عرض للعرب فى هذه الأشياء أمر خارج عن الطبع . وهو أين ، فانه ما كان ليثبت فى كتابه هذا ما هو خاص بهم ، بل ما هو مشترك للأمم الطبيعية » .

هنا دعوتان جديرتان بالبحث تتكرران كثيرا فى كتاب ابن رشد : أولها أن ما يذكره أرسطو فى كتاب الشعر ليس خاصا باليونان بل هو مشترك لأمتهم من الأمم الطبيعية . وهذه دعوى لا يؤيدها شراح أرسطو ونقاد ، ولا نظام كتاب الشعر نفسه . وقد أشار « سانتسبرى » إلى أن تفكير أرسطو فى هذه

الناحية — علي الرغم من فلسفته واستقرائه — مؤسس بالضرورة علي ما وجد في أيامه من الأدب اليوناني ؟ بل في الواقع علي بعض ما وجد لا كله . وهل سانسبري في هذا المقام الكلمة التي قالها « دريدن » الشاعر الانجليزي وهي : « لو أن أرسطو رأى مآساة لكان من المحتمل أن يغير رأيه » . (١) والدعوى الثانية أن هذه الظواهر طبيعية في الأمم الطبيعية ، فإذا لم توجد بعض هذه الظواهر في واحدة من تلك الأمم كان ذلك لأمر خارج عن الطبع . ولم يشرح ابن رشد ماذا يريد بالطبيعية في وصف تلك الأمم : أيريد بها كونها علي درجة معينة من البدائية والقفرة ! أم يريد بها حالة تلك الأمم قبل أن تتأثر بتشريع سماوي أو أحوال اجتماعية طارئة ! ذلك يحتاج الي مزيد بحث .

أما الخاتمة التي يختم بها ابن رشد كتابه فلها مغزاها : فهي تبين طريقة فهمه للظواهر النقدية التي أثارها أرسطو في كتاب الشعر ، وتشير الى أنه إنما اطلع علي ترجمة (أو تراجم) للكتاب فحسب ، ثم تشير الى موقفه من الجزء الناقص من الكتاب ، وتنبه الى رأي له خطر في صلة البحوث العربية في القوانين الشعرية ببحوث أرسطو في كتابي الشعر والخطابة . يقول ابن رشد :

« فهذا هو ما تأدى الى فهمنا مما ذكره أرسطو في كتابه هذا من الأقاويل المشتركة لجميع أصناف الشعر والخاصة بالمدح ، أعني المشتركة منها أيضا للاكثر أو للجميع . وسائر ما ذكره في كتابه هذا من الفصول التي بين سائر أصناف الشعر عندهم وبين صنف المدح فهو خاص بهم . ومع ذلك فلسنا نجد ذكر من ذلك في هذا الكتاب

(١) راجع A Hist. of English Criticism لولته G. Saintsbury — ادنبره

الواصل إلينا الا بعض ذلك . وذلك يدل علي أن هذا الكتاب لم يترجم علي التمام ، وأنه بقي منه التكلم في سائر فصول أصناف كثير من الأشعار التي عندهم . وقد كان هو وعد بالتكلم في هذه كلها في صدر كتابه . والذي نقص مما هو مشترك هو التكلم في صناعة الهجاء . يمكن يشبه أن يكون الوقوف علي ذلك يقرب من الأشياء التي قيلت في باب المديح إذ كانت الأضداد يعرف بعضها من بعض . وأنت تبين إذا قمت علي ما كتبناه هنا أن ما شعر به أهل لساننا من القوانين الشعرية بالاضافة إلى كتاب أرسطو هذا في كتاب الخطابة نزر يسير كما يقوله أبو نصر . وليس يخفى عليك أيضا كيف ترجع تلك القوانين إلى هذه ولا ما ذكروا من ذلك علي وجه الصواب مما ذكر علي غير ذلك . والله الموفق للصواب بفضلِهِ ورحمته .»



وبعد فما قيمة هذه المحاولات العربية المتعاقبة في تقريب نظريات أرسطو في الشعر إلى العقل العربي ؟

١ — إن متى بن يونس قد وقف موقف المترجم فحسب ، هذا إلى أنه رجع إلى ترجمة سريانية للأصل الأغريقي فترجم عنها . وقد وجدنا أن ترجمته تمشي وكتاب الشعر المعروف لنا الآن في نصوصه الأوربية المحققة ، وتببع ترتيبه في موضوعاته وأقسامه . ولكن دراستنا لهذه الترجمة كشفت لنا أن أسلوبها العربي غلق غامض ، وأن المترجم يعوزه أحيانا القهم الصحيح لظواهر

الأدب اليوناني الحياة اليونانية . وإذا فقيمة الترجمة ضئيلة اذا أريد الاعتماد عليها في دراسة نظرية أرسطو في الشعر . ولكن هناك ناحيتين تزداد منها أهمية هذه الترجمة :

الأولى ناحية الاستعانة به في تحقيق النص الأصلي وترجيح بعض قراءاته علي بعض . وقد أفاد الأوريون من هذه الناحية كما أشار إلى ذلك «بايوتري» و«بتشر» فيما أسلفنا من كلامهما . والثانية ناحية للمصطلحات العربية التي وفق اليها «متي» في ترجمة بعض التصورات اليونانية في الشعر ، والتي أفاد منها من غير شك «ابن سينا» و«ابن رشد» ، والتي يمكن الباحث أن يفيد منها من وجهة تطور اللغة وأنس ليب الترجمة علي الأقل .

ب أما «ابن سينا» فلم يمكن مترجما . وإنما كان ملخصا وشارحا لتعاليم المعلم الأول . وقد جاء تلخيصه لكتاب الشعر لأرسطو ضمن تلخيصه لمنطق أرسطو . وقد تكلم عن الصفات الشعرية عامة علي سبيل الاختصار ، ثم ين ما كان لليونانيين فيها من أوضاع وأغراض معينة ، موازنا في حالات قليلة جداً بينها وبين ما قد يماثلها في العربية ، كل ذلك في أسلوب عربي واضح لا عجمة فيه ، إلا حيث يعرض له الغموض من صعوبة للموضوع ، كالكلام في ظواهر المسرح اليوناني . وكالتفرقة بين التاريخ والشعر . وقد حاول ابن سينا محاولة موفقة في كثير من الأحيان في ترجمة الظواهر الاغريقية واختيار المصطلحات العربية المناسبة لها . فقالة ابن سينا - إذا - ليست ترجمة ، ولكنها عرض لنظرية أرسطو ، وقد تفيد شيئا ما في دراسة هذه النظرية ولكنها تحتاج الى شرح وتفصيل . والمعلومات التي يوردها من تاريخ الأدب اليوناني والتعريف بظواهره قد تعين الدارس العربي ، ولكنها في حاجة إلى التحقيق وإعادة النظر . وأغلب الظن أنها مستقاة من كتابات الأفلاطونية الحديثة . وبعضها يذكره

ابن سينا على طريق الظن والشك . وموازنات ابن سينا بين الأديين العربي واليوناني قليلة وليست بذات خطر .

ح - وأما ابن رشد فقد كان أمره عجبا ، فلا هو ترجم (مثل ما فعل متي) ، ولا هو لخص في شيء من محاولة ان فهم الموضوعي الصحيح (مثل ما فعل ابن سين) . ولا هو ألف مستقلا في النقد العربي مثل ما ألف غيره من علماء العربية متأثرين أحيانا بنظريات أرسطو (كما فعل عبد القاهر الجرجاني) . ولكنه حاول الجمع بين مهمتين : بين التلخيص (معتمدا في الغالب على ترجمة سني وشرح ابن سينا) وبين تطبيق نظرية أرسطو على ظواهر الأدب العربي ، وقد جاءت جهوده في التلخيص على هامش جهوده في التطبيق . فكانت النتيجة أن اختفت معالم النظرية الأصلية في التراجم وفي الفنون اليونانية الأخرى ، ولم تبق منها إلا أشباح تبعد أو تقرب من الأصل حسب قرب الموضوع أو بعده من مألوف الثقافة العربية . ولهذا حمل بعض المستشرقين عليه حملة شديدة وأهموه بسوء الفهم وبالخلط بين التراجم والكوميديا من جهة والمديح والهجاء من جهة أخرى ، وذهبوا إلى أن نظرية الشعر من أولها إلى آخرها كانت لغزا على عقل الفيلسوف القرطبي . على أنهم أهملوا في الواقع التنبيه إلى ما قصد إليه ابن رشد من محاولة استخلاص العناصر العامة من نظرية أرسطو وتقريبها إلى الثقافة العربية بربطها بعناصر تقرب منها في البيان العربي . ومن الانصاف أن تذكر لهذا الفيلسوف ثلاثة جوانب أخرى مهم النقد العربي : أولها التنبيه إلى بعض الفنون القرائية التي لا توجد كثيرا في الأدب العربي ، والثاني محاولته شيئا من الأدب المقارن ، والثالث ملاحظاته النقدية على بعض نواحي الأدب العربي وشعرائه .

RESUMÉ

A CRITICISM OF ARABIC TRANSLATION OF, AND COMMENTARIES ON ARISTOTLE'S POETICS

The present article aims at answering the following question: "How did the Arabs understand Aristotle's Poetics?" This is part of a wider research which tries to determine to what extent was Arabic literary criticism influenced by Greek literary theories. One aspect of that wider research was dealt with in the previous volume of this Bulletin under the title of Abd-ul-Kahir's Theory in his "Secrets of Eloquence".

The present article is based on a modern translation of the Poetics undertaken by the writer in collaboration with A. A. Sallam. It reviews and criticises three successive types of effort made by Arabic culture — in three centuries — to understand the Poetics. The first step was translation. As a representative of that stage we took "Matta ibn Younos" [10th cen. A.D.] who based his Arabic translation on a Syriac rendering of the Poetics. This translation in the main corresponds to the book as we now know it in its verified Greek text and in its various European translations. But the translator appears to lack genuine knowledge of Greek life and literature, and his Arabic style is very obscure. As an Arabic text of Aristotle's theory, therefore, the book is of no great value. Its value, perhaps, lies in two other aspects: first, as an aid to the verification of the original Greek text. French scholars have known that version for a long time and have made use of it; and English scholars began to draw on it from the last quarter of the 19th cent. Chief among them were "Margoliouth", "Butcher" and "Bywater". Secondly, it is valuable as a source of Arabic terminology. "Matta" was able to develop a workable terminology for rendering Greek conceptions, and that has certainly been drawn upon by Avicenne and Averoes. Thus, from the point of view of linguistic development, the version is of considerable value.

The second stage was one of commenting and summarising, and its best representative is "Avicenne" (10th to 11th cen. A.D.). As part of his larger summary of Aristotle's logic he

summarised the *Rhetorics* and the *Poetics*. In his introduction to the last he dealt with poetry in general, and Greek poetry in particular. On very few occasions he attempted some comparison of literature. But, unlike Matta, he wrote in clear and understandable Arabic, except when difficulty of matter brought obscurity on his style. That is quite apparent when he is dealing with such matters as the phenomena of the Greek theatre, the distinction between history and poetry, and the differentiation of tragedy from epic. On the whole Avicenne was successful in treating of Greek conceptions, and in choosing for them suitable arabic terms. His version can, to some extent, be relied upon in grasping a good part of Aristotle's theory. The information it contains of the history of Greek literature and its arts may be helpful to the Arabic reader, but they need verification. Most probably they are inspired by the writings of the Neo-Platonists. The comparisons which Avicenne draws between Arabic and Greek literatures are few and unimportant.

The third stage is one of commentary and application, and its representative is Averoes (12th A.D.). Averoes neither translated (like Matta), nor confined himself to the role of commentator and expositor (like Avicenne), nor wrote independently on Arabic criticism drawing some time on Aristotelian theories (as did Abd-ul-Kahir for example). He combined both, commentary on, and application of the Aristotelian conceptions to Arabic literature, concentrating the larger part of his effort on the second aspect. As a result the fundamentals of the theory of Greek tragedy disappeared, leaving only shadows and traces here and there. Consequently, European scholars accused Averoes of misunderstanding Aristotle and of confusing tragedy with panegyric, and comedy with satire. They went as far as to suggest that Aristotle's theory of poetry was from beginning to end an enigma to the Arabian philosopher.

There is truth in that accusation. But scholars seem to ignore the fact, stressed in this article, that Averoes deliberately aimed at extracting, from Aristotle's theory, general principles which would apply to all or to most literatures, and in particular to Arabic literature. Hence the apparent confusions and transformations which have taken place in his

writing. In our analysis of Averoes's book we have been able to note commendable features (1) he had the merit of drawing attention to some Qurânic literary forms which were very rarely found in classical Arabic, (2) he attempted comparative literature on a considerable scale, (3) and he showed a keen sense of literary appreciation exemplified in many critical observations in his book.

Thus the present article claims to have shown that Arabic culture in the past has made a determined effort to understand and assimilate Aristotle's theory in the Poetics. But that effort did not bear its desired fruit, and consequently, poetical Arabic production down the Ages remained — up to the advent of modern Arabic renaissance — unaffected by that theory.

M. KHALAFALLAH

المراجع كما وردت في البحث

- ١ — دي بور « تاريخ الفلسفة في الاسلام » ترجمة أبو ريده -
القاهرة ١٩٣٨
- ٢ — سنثلاثا محاضرات « في تاريخ المذاهب الفلسفية » أقيمت في
الجامعة المصرية سنة ١٩١٠ - ١٩١١ (مخطوط) .
- ٣ — ابن النديم « الفهرست » . ط . مصر ١٣٤٨ هـ .
- ٤ — مقي بن يونس « ترجمة كتاب الشعر لأرسطوطاليس » صورة
مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد الأول رقم ٢٣٠٥٢ .
- ٥ — ابن سينا « الشفاء » صورة مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد الأول
رقم ٢٦٠٥٣ .
- ٦ — ابن رشد « تلخيص كتاب أرسطوطاليس في الشعر » . طبع
وتصحیح فوسطو لازينيو (Fausto Lasinio)
في سنة ١٨٧٢ م .
- ٧ — خلف الله وسلام « ترجمة حديثة لكتاب الشعر وقد لبعض تراجمه
وشروحه العربية القديمة » . تحت الطبع
- ٨ — مرجليوت Analecta Orientalia ad Poeticam
(Aristoteleam) لندن سنة ١٨٨٧ .
- ٩ — بيووتر (Ingram Bywater)
« Aristotle on the Art of Poetry »
أكسفورد ١٩٠٩ .
- ١٠ — بشار (S. H. Butcher) . لندن ١٩٣٢ ط . رابعة
« Aristotle's Theory of Poetry and Fine Arts »

١١ - طه حسين «تمهيد في البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر»
 بحث بالفرنسية. ترجمه إلى العربية عبد الحميد العبادي
 (مقدمة لكتاب تمهيد النثر لقدمه) .

لجنة التأليف ١٩٤٠

١٢ - مصطفى عبد الرازق «فيلسوف العرب والملة الثاني» ط. الحلبي ١٩٤٥

١٣ - البستاني «إلياذة هوميروس» معربة نظمًا - ط. البلال بمصر

سنة ١٩٠٤

١٤ - سنكلير (L. A. Sinclair) لندن سنة ١٩٣٤

« A History of Classical Greek Literature » .

١٥ - خلف الله «من فنون القرآن» . مقال في عدد الهجرة

من الثقافة (٣٦٣).

ب - « نظرية عبد القاهر الجرجاني في أسرار

البلاغة » . بحث في مجلة كلية الآداب بجامعة

فاروق الأول . المجلد الثاني سنة ١٩٤٤ .

١٦ - سانتسبري (G. Saintsbury) . إدينبره سنة ١٩١١ .

« A History of English Criticism » .



حقيقة التلاميذ

أو
(كتاب الرياضة)

للحكيم الترمذى

قام بشره وتحقيقه
عبد المحسن الحسينى

هذا النص الذي أقدم له الآن هو كتاب لآبى عبد الله محمد بن على بن الحسن بن بشير ، الملقب بالحكيم الترمذى ، أحد أعلام الصوفية في القرون الثالث الهجرى ، وإمام طائفة كبيرة منهم .

ولد أبو عبد الله الترمذى فى العشرة الأولى من القرن الثالث فى مدينة ترمذ حيث بدأ نشأته الأولى ، فاقبل بأهل الحديث وأخذ عنهم . فأخذ عن أبيه (١) أول الأمر . ثم أخذ بعد ذلك عن صالح بن عبد الترمذى (٢) ، وصالح ابن عبد الله الترمذى (٣) (٢٣١ أو ٢٣٩) والجارود بن معاذ السامى الترمذى (٤) . (٢٤٤) .

وقبل تمام العشرة الثالثة من القرن الثالث انتقل الترمذى الى مدينة بلخ حيث بدأ المرحلة الثانية من نشأته العلمية . وهناك فى مدينة بلخ بدأ الترمذى يتجه فى طريق ذى شعبتين . أما الشعبة الأولى فقد كانت امتداداً لوجهته السابقة التى رسمها لنفسه ، وهى طلب الحديث وأما الوجهة الثانية فقد كانت وجهة جديدة وجهته فيها حياته بين الصوفية فى بلخ ، إذ كانت هذه الوجهة

(١) إله هو الذى يذكره الخطيب فى تاريخ بغداد تحت اسم على بن الحسن بن بشير ابن هارون الترمذى ١١ : ٣٧٣ (٦٢٢٦) — (٢) الذهبي : الميزان (٣٧٦٩) — الخطيب : بغداد ٩ : ٣٣٠ (٤٨٦٦) — (٣) الذهبي : الميزان (٣٧٦٩) — الخطيب : بغداد ٩ : ٣١٥ (٤٨٥١) الخرجي : الخلاصة ١٤٥ — (٤) الخرجي : الخلاصة ١٤٥

نحو التصوف . وهكذا اتصل الترمذى فى بلخ بأهل الحديث كما اتصل بالصوفية فصادف هناك من المحدثين الحسن بن عمر بن شقيق البلخى (١١) (٢٣٠) وقتيبة ابن سعيد الثقفى البلخى (٢) (٢٤٠) وعيسى بن احمد العسقلانى (٣) (٢٦٨) . وصادف من الصوفية هناك احمد بن خضرية البلخى (٤) (٢٤٠) وأبا تراب النخشى (٥) (٢٤٥) ويحيى بن معاذ الرازى (٦) (٢٥٨) .

انتقل الترمذى بعد ذلك الى بغداد استكمالاً لما بدأ فى طبله قبل ذلك ، فأخذ يبحث بها عن أهل الحديث كما أخذ ينشد الصوفية فقابل هناك من أهل الحديث يعقوب الدورقى (٧) (٢٥٠) ويعقوب بن أبى شيبة (٨) (٢٦٢) . وقابل من صوفية بغداد يحيى بن الخلاء . غير أن الترمذى بدأ فى هذه المرحلة يميل نحو الصوفية أكثر من ميله الى أهل الحديث . فاعلمه - يخرج الى العراق الا صالحة للصوفية فى رحلاتهم . فقد كانت صلتهم بذكرنا من أصحاب التصوف صلة صريحة واخوة . لامة لقاء شمس . كتمان الى كانت بينه وبين أهل الحديث .

ينتهى الترمذى بعد ذلك من رحلاته العلمية . ويستكمل مراحل الطلب . ويعود الى بلده الاولى لبدء حياة التأليف . وكان ذلك حول عام ٢٦٠ للهجرة . وقد كانت هذه الفترة أخصب مرحلة من مراحل حياته إذ كتب فيها قريبا من ثلاثين مؤلفا ، ما بين كتاب رسالة . كما اصراف فيها الى تكوين فرقته الصوفية التى تدب اليه وتعرف باسم «الحكيمية أو الترمذية» . ولكن هذه الفترة لم تكن لتخلو مما يعكرها فقد ألف كتابا المشهورين «ختم الولاية» و«علل الشريعة» فأثارا عليه القوم فى ترمذ وعرضاه لأضطهادهم . فنفوه عنها ، فسار الى بلخ ، حيث قبله أهلها لموافقته إياهم فى المذهب . ولكن حياة

(١) الخطيب : بغداد ٧ : ٣٥٥ (٣٨٧٦) (٢) ابن العماد : سيرت ٩٤٢ : الخطيب : بغداد ١٢ : ٤٦٤ (٩٦٤٢) (٣) ابن العماد : سيرت ٢ : ١٥٤ (٤) السهمى : الطبقات ٢١ : ٣١ - (٥) - ٣١ - (٦) - ٢٢ : الخطيب : بغداد ١٤ : ٢٢٧ (٨) - ١٤ : ٢٨١ (٩٧٥٥) .

الترمذي لم تطل به بعد ذلك فتوفي عام ٢٨٥ عما يقرب من ثمانين سنة (١) .
والفاري لمؤلفات الترمذي يرى أن ثقافته لم تقتصر على ماطلبه من الحديث
أو التصوف برمذ وبلغ وبلغاد . بل هناك ثقافات أخرى تشيع في مؤلفاته
غير تلك التي تشيع في أوساط الصوفية والمحدثين .

أما أولي هذه الثقافات فهي ثقافة بعيدة البعد كله عن ثقافة الصوفية وأهل
الحديث ، إن لم تكن تعارضها وتناقضها . تلك هي مجموعة العلوم والمعارف التي
يكلف بها أصحاب الجديد عادة فيصفون إليها منصرفين عن كل موروث وقديم .
فوقف الترمذي في ميدان الفقه على مذاهب أهل الرأي ومنهجهم . فدرس
القياس والاستنباط واستعرض معهم كثيرا من مسائلهم التي يتجهجون فيها
هذا المنهج . ووقف الترمذي كذلك على مذاهب المتكلمين من غير أهل السنة
أو أهل الحديث فتعمق مقالاتهم وأحاط بمناهجهم ، وتبين مصادر آرائهم ،
ومقاصد وجهاتهم ، وأسباب اختلافهم

ووقف الترمذي كذلك في ميدان العلوم التي كان يقدم بها أصحاب الجديد
لمناهجهم على مذاهب أهل اللغة من المشايخ للاتجاهات الجديدة فوقف على
آراء البصريين من اللغويين ومن نحائحوهم ، وقف في ميدان التفسير وعلوم
القرآن على آراء أصحاب الجديد هؤلاء .

ووقف الترمذي بعد ذلك على آثار هذه الاتجاهات الجديدة ، في كل من
الميدان السياسي والاجتماعي ، وتبين ما تهدف إليه هذه الحياة الجديدة من غاية
تباين وتختلف عن تلك الغاية القديمة التي تنطوي عليها الثقافة الموروثة بما
تحمله من نظم وأساليب .

وأما ثاني هذه الثقافات التي نصادفها في مؤلفات الترمذي فهي الثقافة الشيعية

(١) مصادر حياة الترمذي : السلمي : الطبقات ٤٨ ب — ايجوري : كشف المحجوب
(بيكن) ٢١٩٤ : ٢١ — المطار : التذكرة ٢ : ١٠٩ / ٩١ — جامي : التلخيص
١٣٩ — أبو نعيم : الحلية ١٠ : ٢٣٣ — السكي : الطبقات ٢٠ : ٢ — الذهبي
التذكرة ٢ : ٢١٨ .

فقد وقف على جميع نواحيها سواء كان ذلك في الاعتقاد أو الاجتماع أو السياسة . فالتصل بمصادرها وتعمق منهجها وتفهم مراميها ووقف على مآذنها إليه أنصارها في الاحتجاج لها .

وهناك ثقافة ثالثة نصادفها كثيرا في مؤلفات الترمذى تلك هي الثقافة الفلسفية الحرة التي تدور حول طائفة العلوم الانسانية . فقد وقف الترمذى على مذاهب هذه الفلسفة ومناهجها سواء في فلسفة الكون أو المعرفة أو الاخلاق . كما وقف كذلك على ما تقدم به هذه الفلسفة لمناهجها من دراسة الطب أو الانسان . ويظهر في هذه الفلسفة الطابع اليوناني كما يظهر كذلك الطابع الفارسي سواء كان مانويا أو زرادشتيا .

هذه الثقافات جميعا نصادفها في كتب الترمذى الى جوار ثقافة الصوفية وأهل الحديث . غير أن النوعين لا يقفان على درجة واحدة فأحدهما يقوم في خدمة الآخر ويقدم له .

أراد الترمذى أن يدافع عن أهل الحديث وينتصر لغايتهم الموروثة واتجاههم القديم فقد تأثر بثقافتهم وبما تحمل في طياتها من مثل اخلاقية ودينية وبما تنشد من نظام اجتماعي وسياسي . وكان الترمذى مرآة صادقة لثقافة عصره ومعارفه وكانت تنعكس عليه هذه الثقافات بما تحمل من اتجاهات جديدة ومناهج مستحدثة ، وكان عميق الفهم واسع النظرة متعدد الجنبات ، فاستطاع أن يحجب أوديتها جميعا وأن يستكنه أسرارها ، فاعجب بمناهجها واساليبها وطرائقها ولكنه انكر غاياتها واتجاهاتها ومثلها .

ليستبدل إذن بهذه الاتجاهات الجديدة التي أنكرها تلك الاتجاهات القديمة التي وقف لمناصرتها . وليستبدل بذلك المناهج القديمة التي لم يعجب بها هذه المناهج الحديثة التي أعجب بها . وليأخذ إذن في نصرة أهل الحديث وفي تقرير مبادئهم مستعينا بهذه الاساليب المستحدثة والمناهج الجديدة وليقف إذن بين الغايات القديمة وبين المناهج الجديدة أو بعبارة أخرى بين وأهل

الحديث في غاياتهم وبين « أهل الرأي والفلاسفة » في مناهجهم .

أما هذا التوفيق أو هذا المذهب الجديد الذي وقف الترمذى عليه حياته فقد خصه لنا في هذه المسائل الأساسية التي وقف عندها :

«أولاً» في الاتجاه العام : تفضيل أهل الحديث على بقية طوائف العلماء وقد ألف في هذا كتاب العلوم

«ثانياً» في المعرفة : تقسيم المعرفة الى ثلاثة اقسام العلم والحكمة الظاهرة والحكمة العليا . وتفضيل الحكمة الظاهرة والعليا على العلم . وقد ألف في ذلك كتاب ختم الولاية .

«ثالثاً» في اللغة : قد فكرة الترادف تمهيداً لتقيد القياس والاستنباط ليحل محلها نوع آخر من القياس وقد ألف في ذلك كتاب الفروق ومنع الترادف وكتاب تحصيل نظائر القرآن .

«رابعاً» في الاخلاق : فكرة الحق والعدل والصدق . وقد ألف في ذلك كتاب الأكياس والمفتربين وكتاب العقل والهمى .

«خامساً» في السياسة والاجتماع : فكرة الولاية وقد ألف في ذلك كتاب ختم الولاية .

في هذه المسائل استطاع الترمذى أن يسخر مناهج المتكلمين وأهل الرأي من الفقهاء والفلاسفة والشيعة والمعتزليين في الدفاع عن مذهب أهل الحديث أو بعبارة أخرى استطاع الترمذى خلال هذه المسائل أن يخرج لنا مذهب في التوفيق بين أهل الحديث وبين المناهج العقلية في عصره .

غير أن الترمذى كان إمام فرقة صوفية قبل كل شيء . وكان همه الاول اذاعة هذه التعاليم بين اتباعه الذين لم يكونوا ليكتفوه أن يصوغها لهم في صورة مذهب علمي أو فلسفي متماسك ، بل كانوا يقتنعون بما دون ذلك يلتصقونها في صورة مواعظ أو رسائل . وهكذا لم يكلف الترمذى نفسه أن

يصوغ من هذه المسائل مذهباً فلسفياً متكاملًا . أما الذى كلفه نفسه فهو أن يعيش هذه التجارب الصوفية التى تشتمل عليها مؤلفاته وأن يحيا فيها يكتب ويفكر .

وكتاب الترمذى « حقيقة الادمية أو كتاب الرياضة » الذى نحن بصدد الان هو صورة واضحة لهذه الحياة العقلية التى كان يحياها الترمذى او بعبارة أخرى هو صورة حية للتوفيق بين هذه المناهج العقلية التى بدأت تنعكس على نفس الترمذى مع الثقافات الجديدة وبين الحياة الروحية التى ورثها عن الثقافة القديمة . هو صورة للتوفيق بين المنهج الجديد والغاية القديمة . وكم كان الترمذى شديد الاحساس بما يحمله هذا الكتاب من اتجاهين متباينين فاطلق عليه اسمين مختلفين يمثل كل واحد منهما اتجاها من هذين الاتجاهين . فاطلق عليه « حقيقة الادمية » تمثيلاً للمنهج العقلى المتحرر الذى اراد ان يجعل منه اصلاً يستند اليه فى تأليفه . كما سماه « كتاب الرياضة » تمثيلاً للغاية الروحية التى يسعى لتأيدها .

وان كانت هذه الظاهرة تدور فى هذا الكتاب الان فهى تبدو كذلك فى حياة الترمذى جميعاً . ولامر ما جمع فى تسميته وتلقيبه بين لقب الحكيم والصوفى . فقد كان حريصاً على ان يجمع بين الناحية الروحية القديمة للثقافة الاسلامية وبين المنهج العقلى الذى جد فى عصره .

اما هذا الاتجاه فقد أنزل الترمذى بين اهل عصره وبين تلاميذه وافراد طائفته منزلة خاصة . وهذا الاتجاه نفسه هو الذى يعطى « لكتاب حقيقة الادمية او كتاب الرياضة فى تعلق الامر بالخلق » منزلة الخاصة بين كتب الترمذى .

٥ ٥ ٥

اما الكتاب فقد انتهى البناء منه ثلاثة اصول وهى كل ما ظهر حتى الان من مخطوطاته ، وهى التى اعتمدنا عليها فى تحقيق النص ونشره .

(١) اما النص الأول : فيوجد ضمن مجموعة للترمذى بالمكتبة الأهلية

يباريس تحت رقم (٥٠١٨ من القسم العربي) وتحتوي هذه المجموعة اثني عشر كتاباً للترمذي . وترتيبها على النحو الآتي :

كتاب الصلاة — كتاب الحج — كتاب الاحتياطات — كتاب الجمل اللازم معرفتها — كتاب الفروق ومنع الترادف — كتاب حقيقة الادمية — كتاب عرس الموحدين — كتاب الاعضاء والنفس — كتاب منازل العباد من العبادة . كتاب العقل والهوى — كتاب الامثال — كتاب المنهيات

وهذه المجموعة مكتوبة بخط مغربي صغير الحجم غير أنه رديء . وكان نسخها من النص النقط دائماً ، هذا الى اضطراب في يده كان يجعل حروفه يلبس بعضها ببعض . غير ان الناسخ كان على غاية من الدقة والفهم والعناية . فكان يضبط المشكل من الكلمات وكان يراجع ما يكتب من حين الى آخر ، ويثبت تصويباته في هامش النسخة . وكان اذا وقع منه خطأ اثناء الكتابة أصلحه وكان له في اصلاحه هذا طرق ثلاث : (١) اذا نسي شيئاً في اثناء الكتابة ووضع خطاً صغيراً عند مكانه ثم كتب في نهاية السطر الذي وقع فيه هذا السهو . (ب) اذا زاد شيئاً عن خطأ شطبه بخط خفيف او وضع فوق ما يجب حذفه علامة صغيرة خفيفة . (ج) اذا التبس عليه كلمة فكتبها ثم فطن الى صوابها بعد ذلك عاد الى حروفها فاقامها . ما استطاع . على الصواب .

وتدل خصائص هذه المجموعة على انها كانت مجموعة خاصة كتبها صاحبها لنفسه . نظرية ، كتبها والعناية بها تؤيد ذلك . فهي رديئة الخط ، صغيرة حجمه ، مزدوجة الصفحات بالنص والتصويبات ، فقدد سطورها ٢٥ سطراً . وهي مع ذلك دقيقة صحيحة غير أن بها من حين الى حين بعض البياض الذي اصاب سطورها من اثر القدم .

أما تاريخ هذه المجموعة او صاحبها فهو علي بن سليمان بن احمد بن سليمان المغربي المرادي الاندلسي . انتهى من كتابة بعض رسائلها في الحادي عشر من رمضان سنة اربع وثمانين . ثم لا يذكر بعد ذلك القرن الذي يقع فيه هذا العقد .

وانا وان كنا لانستطيع ان نهتدي الي شخصية كاتب المجموعة ولا ان نحدد القرن الذي كتبت فيه الا اننا نستطيع ان نجزم بانها اقدم الاصول الثلاثة التي بين ايدينا . وان كانت حالتها وخصائصها تمهد لأن نعتقد بانها كتبت في القرن السابع او الثامن .

أما « كتاب حقيقة الادمية » في هذه المجموعة فيسمى « كتاب حقيقة الادمية او كتاب الرياضة في تعلق الامر بالخلق » ويبدأ بعد التسمية « قال أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن الترمذي رحمه الله عليه : الحمد لله رب العالمين ولي الحمد وأهله . اما بعد . فان الله عز وجل خلق الادميين لخدمته وخلق ما سواهم سخرة لهم » . وينتهي « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما عبد الله عز وجل مثل طول الاحزان — تم كتاب الرياضة والحمد لله كثيرا كما هو أهله ، والصلاة على رسوله محمد وآله اجمعين كما ينبغي له . رزقنا الله الرياضة في سبيله واجتماع مرضاته في خير وعافية ، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه » وهو يشغل من هذه المجموعة الورقات (من ٩٩ الي ١٠٨) وقد اعتبرنا هذه النسخة الاصل الذي اعتمدنا عليه في نشر النص ورمزنا اليها برمز (ب) .

(٢) اما الاصل الثاني فيوجد ضمن مجموعة الترمذي بالمكتبة الظاهرية بدمشق تحت رقم (١٠٤ تصوف) وتضم هذه المجموعة خمسة مؤلفات للترمذي هي (كتاب الاكياس والمقربين — جواب كتاب من الري — كتاب بيان الكسب مسائل سئل عنها وذكر اجوبتها — كتاب الرياضة) .

وهذه المجموعة مكتوبة بالخط النسخ الجميل مع شكل للكلمات يكاد يكون تاما . غير ان هذا الشكل لا يتخلو في بعض الاحيان من خطأ . فلهذا الذي قام به هو الناسخ نفسه . وبذل مظهر هذه المجموعة وخصائصها على انها قد تكون نسخت لحساب بعض الولاة او العلماء . فخطها جميل متناسق وسطورها متناسبة وهوامشها فسيحة . اما عدد سطور صفحاتها فهو ١٧ سطرا غير ان بسطورها بعض البياض من اثر القدم وان يكن ذلك قليلا جدا وفي صفحات معدودة

وفي اول هذه المجموعة اشارة الى انها موقوفة واشارة اخري تبين تاريخ ذلك الوقف مع بعض اختتام «واقف هذا الكتاب الوزير المكرم الحاج محمد باشا والي الشام حالا دام فضله على طلبة العلوم ، وشرط الا يخرج من مكانه الا لمراجعته سنة ١١٩٠» اما تاريخ كتابة هذه المجموعة فلعله اقدم من تاريخ هذا الوقف كثيرا . وان كنا لا نستطيع ان نتهدي اليه ، كما انا لا نستطيع ان نذهب الى انه يبلغ من القدم حتي يعاصر النسخة السابقة .

واما كتاب حقيقة الادمية في هذه المجموعة فيسمى «كتاب الرياضة» ويبدأ بعد البسملة : « قال ابو عبد الله رحمه الله الحمد لله رب العالمين ولى الحمد واهله . اما بعد . فان الله عز وجل خلق الادميين لخدمته وخلق ما سواهم سخرة لهم . » وينتهي : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما عبد الله عز وجل بمثل طول الاحزان — تم كتاب الرياضة بعون الله ومنه وحسن توفيقه . الحمد لله وحده وصلاته علي سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلامه وهو حسبنا ونعم الوكيل » .

اما صلة هذا الأصل بالأصل السابق فتكاد تكون منقطعة . فكل منها قد وصل الينا عن طريق خاص وان يكونا قد اشتركا في مصدر فلعله ان يكون عاليا مرتفعا . فكل مجموعة من المجموعتين تحوي طائفة من الكتب غير التي تحويها الاخرى فهما لا يشتركان الا في كتاب الرياضة فحسب . هذا الى ان نص كل منهما يستقيم استقامة تامة مستقلا عن النص الآخر ، وبمبدأ ان يكون قد تأثر به .

اما مظاهر الخلاف بين النسختين فترجع الي ثلاثة : (١) الخلاف في النقط ، وخاصة في الإفعال ، هذا الخلاف الذي من شأنه ان يعود بالضائر — في احد النصين — علي غير ما يعود بها في النص الآخر . وقد حرصنا علي اثبات مثل هذا الخلاف . (ب) الخلاف في استعمال الصفات التي تضاف الي لفظ الجلالة . وقد اهلنا اثبات ذلك لعدم تأثيره علي النص . (ج) الخلاف في متن اللغة واتامة النص . ومثل هذا الخلاف قد حرصنا الحرص كله علي

اثباته . وكثيرا ما تكون قراءة هذه النسخة اجمل واقرّب منالا من قراءة النسخة الاولى الا انا لا نستطيع الا ان تثبت في الهامش ما استقام لنا نص النسخة الاولى . أما حين لا يستقيم نص النسخة الاولى فانا نثبت نص هذه النسخة في الاصل — اذا استقام — ونثبت القراءة الاخرى في الهامش . هذا وقد رمزنا الى هذه النسخة بالرمز (ظ) .

(٣) واما الاصل الثالث فيوجد ضمن مجموعة للترمذي بمكتبه عاشر باستا بول تحت رقم (١٤٧٩) وهي تتضمن الكتب الانية (كتاب الاعضاء والنفس - منازل العباد من العبادة - العقل والهوى - الامثال من الكتاب والسنة - المنهيات - حقيقة الادمية) .

وهذه المجموعة مكتوبة بالخط الفارسي الجميل في كثير من الاناقة والدقة وداخل اطار مذهب . وعدد سطورها ٢٧ سطرا . وبهامشها — الى جانب الاستدراكات النادرة التي قام بها الناسخ — توبيات وعناوين تفصول الكتب التي تصبها المجموعة . اما هذه العناوين فهي مكتوبة بالخط النسخ وبناية واناقة اقل بكثير من تلك التي يكتب بها الناسخ . ولعلها هن فعل بعض قراء المجموعة او من تويب صاحبها .

وحالة هذه المجموعة وخصائصها تدل على انها نسخت لحساب بعض اولي الامر او العلماء فناسخها وهو «الحاج احمد بن محمد بن الحاج علي بن ولي» لم يكن يستطيع أن يفهم النص او يقيمه ولا ان يميز بين المذكر والمؤنث من الكلمات ، بل كان كثيرا ما يقيم النض على لهجة اعجمية .

واما تاريخ هذه المجموعة فيثبت الناسخ في آخر « كتاب المنهيات » : « قد وقع القراغ من هذه المجموعة اللطيفة المشتملة اثني عشر رسالة للحكيم الترمذي على يد اضعف العباد الحاج احمد بن محمد بن الحاج علي بن ولي غفر ذنوبه واحسن اليهم واليه لسنة عشرين ومائة والف » . وان كانت هذه الاشارة لتدل كذلك على ان هذه المجموعة كانت اكبر من ذلك اذ كانت تشتمل على اثني عشرة رسالة . كما تدل على ان كتاب حقيقة الادمية لم يكن

في آخرها اذ كان آخرها كتاب المنهيات . والراجع ان كتاب حقيقة الادمية كان اول هذه المجموعة ولكنه جلد خطأ في آخرها .

اما « كتاب حقيقة الادمية » في هذه المجموعة فيسمى « كتاب حقيقة الادمية » او « كتاب الرياضة في تعلق الامر بالخلق » ويبدأ بعد البسملة « قال ابو عبد الله محمد بن علي بن الحسن الترمذي رحمة الله عليه . الحمد لله رب العالمين ولي الحمد واهله . اما بعد . فان الله عز وجل خلق الادمين بخلائقه وخلق ما سواهم سخرة لهم » وتنتهي بقوله : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما عبد الله عز وجل بمثل طول الاحزان — ثم كتاب الرياضة والحمد لله كثيرا كما هو اهله والصلاة على رسوله محمد وآله أجمعين كما ينبغي له . رزقنا الله الرياضة في سبيله » .

اما عن صلة هذا الاصل بالاصلين السابقين فنستطيع ان نقول انه يرجع الي الاصل الاول اذ قد نقل عنه وان ترتيب الكتب في المجموعتين وعددها ليمهدان الى الاعتقاد بذلك غير ان المراجعة الدقيقة للنصين تؤكد ذلك تأكيداً لا مجال للشك فيه . ولتحاول توضيح ذلك خلال استعراضنا لمظاهر الانتماء والاختلاف بين النصين واسبابها :

(ا) ان اماكن البياض التي ترد في الاصل الاول هي بعينها اماكنه من هذا الأصل .

(ب) ان ما ينسأه ناسخ الاصل الاول فيثبته بعد ذلك في الهامش ينسأه ناسخ هذا الاصل كذلك غير انه لا يستدرك ذلك في الهامش الا نادرا .

(ج) ان ما ينسأه ناسخ الاصل الاول فيثبته بعد ذلك في آخر السطر او في اوله مع اشارة صغيرة عند موضعه من النص يثبته ناسخ هذا الاصل حيث ينتهي اليه من نهاية السطر او بدايته دون ان يفتن الى هذه الاشارة الصغيرة التي تحدد موضع النقص . وهكذا ياتي نصه في هذه المواطن غير مرتب .

(د) ان ما يخطيء فيه ناسخ الاصل الاول فيثبته زيادة ثم يحذفه على طريقته بشطبه بخط خفيف او بوضع (ج) فوقه يثبت ناسخ هذا الاصل جميعا دون تمييز . ومن امثله ذلك : (خلق الفرح وجعل له بابا . فلبس خلق الجنة خرجت الاضلاع غراس) فيثبتها ناسخ هذا الاصل (الافراح) (د)

غراس) دون ان يتنبه للخط . (فتعيمة ذكر الله وعبودته ، وشهوته وموته راحته ويوم عيده) فلا يظن ناسخ هذا الاصل الثالث اعلامة الحذف (ج) الموجودة فوق كلمة شهوته فيثبتها في النص

(هـ) ان ما يخطيء فيه ناسخ الاصل الاول فيصلح حروفه يلتبس على ناسخ هذا الاصل الثالث فيرسمه كما هو دون ان يتبين كيف يقرأ

(و) ان ما تضطرب فيه يد ناسخ الاصل الاول فيتسبب عنه لبس في القراءة يلتبس على ناسخ الاصل الثالث فيكتبه كما التبس عليه . ومن ذلك مثلا كلمة «القلوب» تضطرب بها يد الناسخ الاول فتتصل «القاف» «باللام» على شكل «ط» فيكتبها ناسخ الاصل الثالث «الطوب» .

(ز) ان ما يلتبس على ناسخ الاصل الثالث من عدم تناسق حروف الاصل الاول يرسمه كما هو دون مراعاة للفهم او المعنى . ومن ذلك مثلا «وفي الابتدا تنفر عن اللجام» تلتبس عليه فيثبتها «وفي الامتدا بعض عن اللجام» وكذلك «في جلبة الصناعين مثل الحدادين والنجارين» تلتبس عليه فيثبتها «مثل الحدارت والبحارت» .

(ح) ان بقية الخلاف بين النسختين هو في مواضع النقط حسب . واما غير ذلك من الخلاف فيرد الى الاسباب السابقة .

من هذا يتبين ان هذا الاصل الثالث قد نقل مباشرة عن الاصل الاول وان يكن هذا النقل دون عناية او فهم غير اننا لم نشأ ان نهمل نقط الخلاف بين النسختين . مع علمنا باسبابها — فاثبتناها احتياطا . اما الخلاف الذي ينتج عن النقط فقد اهملناه وقد رمزنا الى هذا الاصل الثالث بالرمز (ع) .

كتاب حقيقة الادمية

« بسم الله الرحمن الرحيم »

قال أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن الترمذي رحمه الله عليه: (١)
الحمد لله رب العالمين ولي الحمد وأهله -- أما بعد -- فإن الله عز وجل خلق
الآدميين لخدمته ، وخلق ما سواهم سخرة لهم . فقال في تنزيهه : « هو الذي خلق
لكم ما في الأرض جميعا » . ثم قال : « وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض
جميعا منه » . فجعل في كل مسخر ما يحتاج إليه هؤلاء الخدم ، وما يرجع ثمنه إليهم .
فهم كلهم قاتنون يؤدون (٢) السخرة إلى هؤلاء الخدم . فأظهر خلقهم من القدرة
بقوله « كن » وأظهر خلق هؤلاء الخدم من المحبة بيده .

[صفة ظاهر الادمي وباطنه]

[خلق آدم : فتح الروح والنفس . أعضاء الجسم . القلب والفؤاد .
الشهوة . مكان الروح والنفس . الذهن والحفظ والفهم . الفرح .
العقل . نور التوحيد وبور الحياة . المعرفة والهوي . خلق الشهوات .
الحق والظن والعكس .]

- ١ -

فمعجن طينته وصوره بيده . ثم جعله ذا أجزاء كل جزء منه يعمل عملا غير
عمل الآخر . ثم فسخ فيه من روحه : وهو روح الحياة ، ونفسه الطيبة . (٣) فبدت

(١) ظ : « قل أبو عبد الله رحمه الله » . واسم جده « الحسن » لا يذكر إلا في هذه
الرسالة فقط . وهو موافق لما ورد « بطيقات الصوفية للسلمي » ٤٨ ب وأن كان يختلف عما
ذكره ناشر نوادر الاصول اذ يذكره « الحسين » كما يختلف كذلك عما ذكره Massignon
اذ يذكره « الحسين » Essai 256 . — (٢) ع : مؤدون . — (٣) ب : « نفس الطيبة »
بضبط « نفس » بالكسر وبدون نقط « الطيبة » — ظ : « نفس الطيبة » — ع : « نفس
الطيبة » مع تشديد « الطيبة » .

النفس فاستقرت^(١) في الجوف. (٢) فجعل في ظاهره يدين ذواقي أصابع وذواقي^(٣) مفاصل تبسط وتقبض^(٤)، ورجلين موشجتين في الوركين ذواقي ساقين وقدمين يختلف بهما في قطع المسافات، وعينين بهما يشتمل علي الألوان لذة وخبراً، وأذنين بهما يتناول الأصوات لذة وخبراً، ولساناً يديره في قبوحه إلى شفتيه ليلفظ بنغاته من صدره إلى شفتيه، مؤدية تلك النغات معنى الأمور التي تُعقل^(٥) وترد في صدره صور تلك الأمور، فتصير تلك الصور حروفا مؤلفة، فيرزها بصوت يُسمع به آذان المستمعين له، حتي تصير تلك الأسماع قعالم هذا الصوت، فيتحول ما في صدر هذا من علم الأمور إلى صدر المستمع، من طريق فم هذا إلى أذن الآخر، فيكون قد أفرغ ما في صدره من صورة الأمور ومعانيها، بخروفي والصوت إلى صدر صاحبه. وجعل له منخرين للنفس والمشام، ومعدة صيرها دار رزقه. وباب هذه الدار متصل بالثبوت^(٦)، وبابين في أسفل حسده: أحدهما مخرج للذرة، والآخر مخرج للفضول والأذى. وذلك أن العدو إذا غرد حتي أكل من الشجرة وجد السبل إلى معدته بتلك الأكلة التي أطاعه فيها، فجعله مستقرد، فتنى ما في المعدة منذ^(٧) يومئذ رجاسة العدو. فمن حابه وجب عيناً غسل الأطراف مما يظهر من المعدة من الغائط والبول ويريحها. ثم وضع في حوفه بضعه جوفاء سمها قلباً وفؤاداً. فما بطن منه فهو القلب، وه ظير منه فهو الفؤاد. وبما سمي قلباً لأنه يتقلب بتقليب الله عز وجل يبه لأنه بين أصبعين من أصابع الرحمن عز وجل يقلبه بمشيأته فيه. وسمي فؤاداً لأنه غشاء لتلك البضعة الباطنة. ومنه يقال « هذا خير فئيد » و « خير ملة » لأنها خبزة قد ظاهرها أخرى. وجعل له علي هذا الفؤاد عينين وأذنين وباباً— وصير القلب

(١) ع: « واستقرت » — (٢) ع: « واستقرت بنفسه و الجوف » — (٣) ع: ناقصه
(٤) ع: « يعض ويبسط ». — (٥) ع: « عقل وتردد ». — (٦) ع: « بالقبلة »
(٧) ط: « منه ».

بيتا ، له عيانان وأذنان — وبابا في الصدر . وجعل الصدر ساحة هذا البيت . وجعل إلى جانبه بضعة أخرى سماها كبداً . وجعله مجمع عروق الجسد كله . ومنه ينقسم ما يجري (١) من المعدة من قوة الطعام الذي ملخته المعدة حتي صار دماً أمريتاً (٢) فجري (٣) في جميع العروق . وألصق بأسفله بضعة أخرى فسمها طحالاً ، وإلى جانب الأخرى (٤) سماها رئة ، ومسكن النفس فيها ، ومنها تنفس (٥) النفس بحياتها التي فيها ، فتخرج الأنفاس إلى الفم والمنخرين . ثم وضع بين القلب والرئة وعاء رقيقاً فيه ريح خفيفة تجري (٦) في مجري الدم . وأصل تلك الريح من باب النار ، مخلوقة من نار جهنم ، لم يصل إليها سلطان الله تعالى وغضبه فتسود كما اسودت جهنم . بل هي نار مضيئة ، حفت النار بها . موضوع في هذه (٧) النار الفرح والزينة . وسمها الشهوة . وإنما سميت شهوة لاشتياش النفس إليها ، يقال « اشتيت » بـ « ش » واشتيت . الاشتياش في الظاهر ، والاشتيا في الباطن ، وكلاهما في الحروف عددان سواء ، إلا أنه قدم « الباء » حاشنا وآخر (٨) هناك ليكون (٩) فرقاً بين النوعين .

- ٢ -

فالنفس (١٠) إذا هبت تلك الريح من ذلك الوعاء لعارض ذكرشيء أحست النفس بذلك قالت هبت (١١) نار الحرارة بتلك الريح . والنفس مسكنها في الرئة ، ثم هي منقشية (١٢) في جميع الجسد . والروح (١٣) أمكنه (١٤) في الرأس إلى أصل الأذن ومعلقها في الوتين وهي منقشية (١٥) في جميع الجسد . فالروح فيه

(١) ط : « يجري » . - (٢) ط : « أمريتاً » . - (٣) ع : « فجميع فجري » . - (٤) ط : « وبضعة سماها رئة » . - (٥) ع : « ينفس » . - (٦) ع : « مجري » . - (٧) ع : « هذا » . - (٨) ط : « آخرها » . - (٩) ط : « يكون » . - (١٠) ب : « غير واضحة » . ط : « والنفس » . ع : « تنفس » (١١) ط : « الحس » . - (١٢) ع : « منقشة » . - (١٣) ع : « فالروح » . - (١٤) ط : « مسكنها » . - (١٥) ع : « منقشة » .

حياة والنفس فيها (١) حياة . فيها (٢) يعملات في جميع الجسد بحياتها ، حتي تتحرك الجوارح وجميع الجسد في الظاهر والباطن بالحياتين اللتين وضعت فيهما . والروح نور فيه روح الحياة . والنفس روح كدرة جنسها أرضية وفيها روح الحياة . ووضع الرحمة في الكبد . وازأفة في الطحال ، والمكر في الكليتين ، وعلم الأشياء في الصدر . وجعل مستقر الذهن في الصدر ثم هو منقش في البدن كله . والذهن يقبل العلم جملة وقرينه حفظ ، وجعل في ناصيته الفهم وجعل له طريقا إلى عين القواد . فالحفظ مستودع لعم . وهذا احتاج القواد إلى شيء ، لخط إلى الحفظ فأبرز الحفظ له علم ذلك الشيء المستودع الذي قد تعلمه .

وجعل ماء الذرية في صلبه . فنه أمدعاه الميثاق يوم أخرجهم من الظهور فعرضهم على آدم صلي الله عليه وسلم . ومنه مالم يؤخذ عليه الميثاق . وجعل مجراه من صلبه إلى قسه . ووضع الفرح في قلبه . وجعل مجراه إلى صلبه لتأدي حرارة ذلك الفرح إلى الصلب فتذب (٣) . الصاب . فقوه هذا الفرح يخرج ذلك الماء فيدقق به . وإنه صدر دفقا لقوة الفرح وهبوب رياحه وضيق المخرج . فإذا افتقد الانسان الفرح عجز عن الدفق . فهذا العامة الآدميين .

ثم خص المؤمنين بنور العقل ، فجعل مسكنه في المدع ، وجعل له بابا من دماغه إلى صدره ليشرق شعاعه بين عيني القواد ليدبر القواد بذلك النور الامور فيميز بين الامور ما حسن منها وما قبح . ووضع نور التوحيد في باطن هذه البضعة وهي القلب . وفيه نور الحياة ، فيحيي القلب بالله تبارك وتعالى ، وفتح عيني القواد فأشرق نور التوحيد إلى الصدر من باب القلب ، فأبصر عينا القواد — بنور الحياة التي فيها (٤) — نور التوحيد فوحد الله عز وجل وعرفه . وميز العقل تلك العلوم التي أعطي الذهن في صدره جملة فصير هاشعبا شعب فصارت

(١) ظ : « فيه » . — (٢) ح : « فيهما » (٣) ظ : « بذ » . — (٤) ع : « فيها » .

معرفة حين اشعبت (١) . فهذا عمل العقل في الصدر :

— ٣ —

والهوى أصله من نفس النار . فاذا خرج ذلك النفس من النار احتمل —
من ذلك المحفوف من الشهوات يباب النار فيها — الزينة والأفراح ، فأورد علي
النفس . فاذا نالت النفس ذلك الفرح والزينة حاجت (٢) : بأفياها من الفرح
والزينة الموضوعة الي جانبها في ذلك الوعاء — وهي ربيع حارة — فدبت في
العروق فامتلاأت العروق منها في أسرع من الطرفة . والعروق مشتملة علي
جميع الجسد من القرب الي القدم . فاذا دبت في العروق ولذت النفس ديبها
واقشائها (٣) في الجسد فامتلاأت (٤) النفس لذة وهشت الي ذلك الشيء .
فتلك شهواتها ولذتها . فاذا تمكنت النفس بتلك الشهوة واللذة من جميع الجسد
فصار تلك الشهوات مهمة علي القلب . والمهمة غلبة الشهوة وغايلها ، (٥) فاذا
غلبت الشهوة غلبت علي القلب (٦) فيصير القلب مهوما وهو أن تقهر القلب حتي
تمنه فتستعنه بذلك فيصير سلطان الهوى والشهوة مع النفس ، ومسكنها في
البطن — وسلطان المعرفة والعقل والعلم والفهم والحفظ والذهن في الصدر ، وجعل
المعرفة في القلب ، والفهم في القواد ، والعقل في الدماغ ، والحفظ قرينة . وجعل
لشهوة ياب في مستقره الي الصدر — فيفور (٧) دخان تلك الشهوات (٨) الي
جاء بها (٩) الهوى حتي يتأدي ذلك الي صدره فيحيط بفؤاده وتبقى عينا القواد
في ذلك الدخان [١٠٠] — وذلك الدخان اسمه الحق قد حال بين عيني القواد
وبين النظر الي نور العقل ماذا يدبر له .

(١) ط : « انشعبت » . — (٢) ع : « تلاحت » . — (٣) ع : « انهاشا » . — (٤) ع :
« وامتلاأت » (٥) ع : « فاذا غلبت الشهوة علي القلب » . — (٦) ب : « يفور » .
ط : « يفور » : « يفور » — (٧) ط : « الشهوة » — (٨) ع : « الي جانبها الهوى » .

وكذلك الغضب اذا فار فهو كالغيم (١) يقف بين عيني القواد حتي يصير العقل منكمنًا . لأن العقل مستقره في الدماغ وشعاعه مشرق الى الصدر فاذا خرج ذلك الغيم — غيم الغضب — من الجوف الي الصدر امتلا الصدر منه وبقيت عينا القواد في ذلك الغيم لأن شعاع العقل قد اقطع وحال الغيم بينه وبين القواد . فصار القواد من الكافر في ظلمة الكفر وهي «الغلة» التي ذكرها الله تعالى في التنزيل : « وقالوا قلوبنا غلف » وقال : « بل قلوبهم في غلة من هذا » . وصار القواد من المؤمن في دخان الشبوات وغيوم الكبر فذلك غلة . ومن الكبر أصل الغضب . والكبر في النفس لما أحست بما ولى الله تعالى من خلقها ، فبقي ذلك الكبر فيها . فهذه صفة ظاهر الآدمي وباطنه .

[المقادير]

[جياة الله . الميثاق . صنع القلب و ماء الرحمة .

نور الحياة والتوحيد والعقل]

— ٤ —

فوقعت الجياة من الله عز وجل والخيرة على هذا الموحد من كل الف واحد . وبقي تسعمائة وتسعة وتسعون (٢) فرفع (٣) البال عنهم . وجعل باله لواحد من كل الف من الآدميين . قسم الخطوظ يوم المقادير بالبال ورفض من لم يبال به ، فخاوا عن الخطوظ . فلما استخرجهم ذرية من الأصلاب استنطقهم (٤) ، فاعترف له اهل الخطوظ من باله طوعا ، لقوله عز وجل حين قال : « ألسنت بربكم » واعترف من خاب عن الحظ ومن لم ينل من باله بقوله « لي » كرها . فذلك

(١) ع « كالغيم » . — (٢) ب ، ع : « تسع مائة وتسعة وتسعين » . — (٣) ع : « وقع » .

— (٤) ط : « فاستنطقهم »

قوله عز وجل : « وله أسلم من في السموات والأرض طوعا وكرها . » فصرم
فرعين عن اليمين وعن الشمال ، ثم قال هؤلاء في الجنة ولا أُمالي أي لا أبالي
بمغفرتي أن تنالهم ، وهؤلاء في النار ولا أبالي أي لا أبالي بهؤلاء أين
يصيرون . ثم ردهم إلى صلب آدَم عليه السلام ليخرجهم في أيام الدنيا للأعمال
وإقامة الحجة . فكل من وقعت فيه حبيته واختياره بدأ فصيح (٢) قلبه أي
عَمس قلبه في ماء ارحمة حتى طهره به . وهو قوله عز وجل : « صبغة الله ومن
أحسن من الله صبغة » . ثم أحياه بنور الحياة . وقد كان قبل ذلك بضعة من
الحمة خوفاء . فلما أحياه بنور الحياة تحرك وفتح عينيه اللتين علي الفؤاد . ثم
هداه بنوره وهو نور التوحيد ونور العقل . فلما أشرق في صدره واستقر
المؤود . — وممر الباب — إلى ذات النور — فعرف ربه عز وجل بذلك —
فذلك قوله عز وجل : « أومن كان ميتاً فأحييناه » أي بنور الحياة . ثم قال :
« وجعلناه نورا شمسيًا في السموات » . ثم أوله قلبه بذلك النور إليه حتى (٣)
اطمأنت النفس وسكنت إلى أمه وحده لا إله غيره . فعندها نطق اللسان — عن
طه نامة النفس وموافقته للقلب — بإلا إله إلا الله . وذلك قوله عز وجل :
« وما كان لنفس أن تؤمن إلا بذات الله » . وهو قوله عز وجل : « يأتينا
النفس المطمئنة » — ولما اطمأنت النفس حين رأت تلك الزينة التي زين
"عَمس بين عيني الفؤاد — فوجدت الرب عز وجل — وجدت حلوة حب الله
نعم التي وردت علي القلب مع نور التوحيد . فلما رأت تلك الزينة وجدت
حلوة الحب الذي في نور التوحيد ، فعندها اطمأنت وسكنت إلى توحيده ،
فشهدت بإلا إله إلا الله . وذلك قوله عز وجل : « حبيب اليكم الإيمان وزينه في
قلوبكم » . فلما زالت النفس تلك الزينة كرهت الكفر والتسوق والعصيان .

(١) ط : « إلى ابن » . (٢) ض : « وصيح » (٣) ع : « من » (٤) ط : « وأعم »

فللثمن اذا اذنب فاما يعصى بالشهوة والنهية وهو كاره للفسوق والعصيان ، ومع الكراهة يفسق ويعصى بفئلة ^(١) ، ولا يقصد الفسق والعصيان كما قصد ابليس . فثلك الكراهة موجودة فيه ، والشهوة غالبة عليه . والكراهة من أجل التوحيد الذي فيه ، الا أن القلب مقهور بما فيه ، والعقل منكمن ، والصدر ممتليء من دخان تلك الشهوة ، والنفس : أوردت قاهرة للقلب ، لان العقل قد غاب ، وللعرفة قد انقردت ، والذهن قد تبدد ، والحفظ مع العقل منكمن في الدماغ ، والنفس قد قامت [١٠٠ ب] علي ذنبها بما أوجدت من القوة في تلك الشهوة ، والعدويزين ويرجى ^(٢) ويمني المغفرة ، ويدل على التوبة ، حتي يجرئه قلبا ويشجعه .

[المجاهدة]

[المباح والمنهية : شهوة : الفرج والزينة : المكروه الآدمي .
قوة القلب ونور : نور الحلال : المشاق : جهاد القلب والعقل .
القلب أمع : على الجوارح]

فلما كان العبد بهذه الصفة أمر بالمجاهدة . فقال عزوجل : « وجاهدوا في الله حق جهاده » . ثم لما علم أن المجاهدة تشدد وتصلب ^(٣) علي العباد أخبرهم عن منته ، وحسن ضيعه وبره ولطفه بهم ^(٤) . فقال عزوجل : « هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج » . يعلمهم أنه لو لم يحببتهم ، ولم يوقع اختياره عليهم ما كانوا ينالون نور الرحمة ونور المعرفة ، وكانوا أسارى في يد العدو وخطبا للنار . فأخبرهم أنه اجتباهم . ثم قال عزوجل : « ما جعل عليكم في الدين من حرج » يعلمهم : أني ^(٥) حين ألزمت جوارحكم ^(٦) أمرني ونهيي لم أضيق عليكم حتي

(١) ط : « مع الفئلة » — (٢) ع : « وبوحى » — (٣) ع : ناقصة — (٤) ط : ناقصة — (٥) ع : « أي » — (٦) ع : « جواب حكم »

تخرجوا ، بل اجت لكم ، ووسعت عليكم مالا يضيق عليكم حتي تهزعوالي
الحرام ، ولم أحملك فرائضي حملا تعجزون عنه ، ووسعت لكم (١) في كل
فريضة مالم تضق (٢) عليكم فكل (٣) شهوة منعتكم عنها أطلقت لكم عن
بعضها ، فوضعت علي كل جارحة من هذه السبع حدا ووكلتكم بحفظها .
والجوارح السبع هي : اللسان والسمع والبصر واليدان والرجلان والبطن والفرج .
وحملت مستقر هذه الشهوة في البطن فان (٤) اشتبه الكلام خرج سلطان
تلك الشهوة الى الصدر والى القلب . والقلب أمير على الجوارح . فاذا غلب
سلطان الشهوة وحالاتها ولذتها على (٥) القلب وانكمن (٦) سلطان المعرفة
وحالاتها ولذتها (٦) في القلب ، وسلطان العقل وزينته وبهجته في الدماغ ،
تخبر الذهن عن التدبير ، وحمد نور العلم في الصدر فظهرت المعصية على الجوارح .
واذا غلب سلطان المعرفة ولذتها وحالاتها ، وسلطان العقل وزينته وبهجته احتد
الذهن واستنار العلم وانتشر وأشرق ، وقوى القلب فقام منتصبا متوجها بيمين
فؤاده (٧) الى الله عز وجل ، وجاء المدد والعطاء ، وظهرت العزيمة على ترك
المعصية العارضة . فاذا ظهرت العزيمة وجد القلب قوة على زجر النفس ، ورفض
معزمت عليه فاقتمعت النفس وذلت ، وسكن غليان الشهوة ، وماتت اللذة ،
وسكنت العروق ، ودرست صورة تلك المعصية عن الصدر ، وتخلص العبد .
وأمر بالمجاهدة اذا عرض ذكر شيء على الصدر ، وقد حرم الله عز وجل ذلك
الشيء عليه . وذلك انه لما عرض الذكر فاحتاجت النفس لما (٨) هانها الهوى ،
واورد العدو الزينة التي وضعت بين يديه ، وجعل له السبيل الى صدره ليزين (٩) .
وتلك الزينة هي الفسوح الذي وصفنا أنه يباب النار . فأصله الفسوح

(١) ط : « عليكم » — (٢) ط : « مالا يضيق عليكم » — (٣) ط : « وكل » — (٤) ط : « فؤاد »
— (٥) ط : « في » — (٦) ط : « قصة » ع : « وانكمن سلطان المعرفة وحالاتها
ولذتها في القلب وسلطان العقل » — (٧) ط : « الفؤاد » — (٨) ع : « بما » —
(٩) ط : « ليزين » .

وحشوه الزينة ، وكلاهما من النار خلقا . سميت « شهوة » لاحتشاش النفس ، وهو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حفت النار بالشهوات » ولذلك قال (١) عمر رضى الله عنه في خطبته : « إن (٢) العدو مع الدنيا وأرصاده مع الهوى ومكره (٣) مع الشهوات . » فأنما يصير العدو الى العباد مع أفراح الدنيا وزينتها .

— ٦ —

وَيَرْتَدُّ الْهَوَى الَّذِي يَبِيعُ مِنَ الْآدَمِيِّ وَيَكْرَهُ إِذَا اشْتَهَتْ النَّفْسُ . وَأَمَّا صَارَ مَكْرًا لِأَنَّ هَذِهِ الشَّهَوَاتِ بَعْضُهَا مَطْلُوقٌ وَبَعْضُهَا مُحْظُورٌ عَلَيْهِ . فَيَمْكُرُ بِهِ فِي الْمَطْلُوقِ لَهُ لِيَجِرَّهُ إِلَى الْمُحْظُورِ عَلَيْهِ لِأَنَّ النَّفْسَ بِلَهَاءِ . فَإِذَا مَرَّتْ فِي الْحَلَالِ فَتَمَكَّنَتْ مِنْهُ سَلَسَتْ فِي الْحَرَامِ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الْقَلْبِ مِنَ الْقُوَّةِ مَا يَقِيدُ النَّفْسَ عَنِ الْحَرَامِ وَيَقْوِيهَا حَتَّى لَا تَلْسَ . وَقُوَّةُ التَّائِبِ مِنَ التَّوْبِ فَإِذَا جَاهَدَ الْعَبْدُ فَمِنْ جِهَادِهِ أَنْ يَرُوضَ نَفْسَهُ فِيؤَدِّبُهَا . وَأَدَبُ نَفْسٍ أَنْ يَنْهَى الْحَلَالَ حَتَّى لَا تَطْمَعُ فِي الْحَرَامِ . وَذَلِكَ أَنَّ النَّفْسَ قَدْ اعْتَادَتْ لِمَذَّةِ التَّكَلُّمِ بِالْكَلَامِ فَذَا لَمْ يَأْزِمَهَا الصَّمْتُ فِيمَا لَا بَدَّ مِنْهُ حَتَّى تَعْتَادَ السَّكُوتَ ، فَإِذَا اعْتَادَتْ السَّكُوتَ عَنِ الْكَلَامِ فِيمَا لَا بَدَّ مِنْهُ فَقَدْ [١٠١] مَاتَتْ شَهْوَةُ (٤) الْكَلَامِ فَسْتَرَحَ وَقَوَّى عَلَى الصَّدْقِ فَلَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا بِحَقٍّ . فَصَارَ سَكُوتُهُ عِبَادَةً ، وَكَلَامُهُ عِبَادَةً لِأَنَّهُ إِنْ نَطَقَ نَطَقَ بِحَقٍّ وَإِنْ سَكَتَ سَكَتَ بِحَقٍّ . لِأَنَّهُ يَسْكُتُ (٥) مُحَافَظَةً لِلْوَيْلِ .

وَاعْتَادَتْ النَّفْسُ رِيَّ الْبَصَرِ حَيْثُمَا (٦) وَقَعَ مِنْ غَيْرِ مَبَالَاةٍ . فَإِذَا لَمْ يَلْزِمَهَا الْحَقِيقُ أَنْ يَكُونَ خَاشِعَ الطَّرَفِ ، خَافِضَ الْبَصَرِ اعْتَادَتْ رِيَّ الْبَصَرِ لِتُدْرِكَ الْأَشْيَاءَ . فَإِذَا رَأَى الْحَرَامَ لَمْ يَمْلِكْ بَصَرُهُ لَأَنَّ شَهْوَةَ النَّظَرِ قَدْ أَخَذَتْ بَعَيْنَهُ

(١) ع : « وقال » — (٢) ع : « الى » . — (٣) ع : « ومكر من » . — (٤) ب، ع : « ماتت من شهوة الكلام » — (٥) ظ، ع : « سكت » — (٦) ع : « حشا » .

فلكته . فإذا لزم عيقيه عن النظر ورماها الى الارض اذا حشى وقام وقعد .
 ماتت شهوة النظر الى الاشياء واعتادت عض البصر وخفضته (١) . فإذا نظر
 نظر عني وإذا عض عض بحق . وصار (٢) نظره عبادة وعضه عبادة .

وكذلك شهوة السمع وبدين والجلين والبطن والفرج . فالمجاهدة
 هذه . ذاعره بعد علي المجاهدة ألزم كل جارحة من هذه الجوارح السبع
 العظام عن تمامي حلالا كان أم حراما حتى يموت تلك الشهوة . لأن تلك
 الشهوة هي شهوة واحدة أحل له بعضها وحرم عليه بعضه بلوي من الله عز وجل
 عبادة وتديرا منه . فاعلم أنه يصلح لهم ويصلحون عليه أطلقه لهم (٣) .
 وما علم أنه يفسدهم ، وأنه (٤) يفسدون عليه حظره عليهم . فالطلق حلالا
 والمحظور حرام . وذلك مثل الكلام فهي شهوة واحدة بعضها حلال، وبعضها
 حرام . والاسماع الى الاصوات بعضه حلال وبعضه حرام . (٥) والنظر
 الى الاشياء بعضه حلال وبعضه حرام . والاحذوا الاعطاء بعضه حلال وبعضه
 حرام . وكذلك الشم . واللقن والفرج كذلك . فانه هي شهوة واحدة لكل
 حارسه . أحل العبد إمضاء تلك الشهوة ، وقضاء تلك الشهوة بصفة وهيئة .
 وحرم عليه بصفة أخرى وهيئة . كالمراة طاهر بنكاح فتحل ، وطاهر بغير نكاح
 فتحرم عليه . وكذلك كل شيء مخرج من هذه الجوارح من الحركات . وقد أخذ عليه
 وم الشوق لا تعمل حارجه الا بما أطلق له في التنزيل . وعلي السنة الزيل .
 وقبل العبد ذلك يومئذ . فأوثقه بما ضمن ، فاقضاه الوفاء . ولذلك سمي بالعجمية
 « بسده » لانه أوثق بما قبل من الطاعة في الام . والنهي . فإذا وفاد بملك (٦)
 « السندكية » وفاء له بالعبد وهي الجنة . فقام العبد بمجاهدة النفس عند ما يعرض

(١) ع : « خفضه النظر وخفضه » — (٢) ع : « كان » — (٣) ع : « ناقصة » . (٤) ع :
 « ناقصة » . (٥) ع : « ناقصة » . (٦) ع : « تلك » .

ذكر شهوة محرمة عليه . فعلى العبد أن يجاهد ما هنا بقلبه بما فيه من المعرفة وبقائه بالمواظبات التي وعظ الله عز وجل من الوعد والوعيد وذكر الموت والحساب والقبر والقيامة حتى يزجر النفس والعدو . فإذا كان العبد لم يرض نفسه قبل ذلك ولم يؤدبها ولم يعودها ما ذكرنا بلعاً من رفض هذه الشهوة المطلقة له حتى تنزل وتسكن ، ويلزمها خوف الله عز وجل وخشيته لم يملك نفسه عند ما يعرض لها ، ولم يقدر على تسكينها بل هي تغلب القلب بما فيها من سلطان الفرج والزينة والشهوة ، فيصير القلب أسيراً للنفس بعد أن كان أميراً على النفس . لأن إمارته القلب بالمعرفة ، وبما أعطى من هذه الانوار التي وصفنا : من نور العقل ، ونور الحفظ ، ونور الفهم ، ونور العلم ، ونور السكينة . فأجل للعبد في الأمر قليل له : « جاهد في الله عز وجل حق جهاده » . فمن لم يرض نفسه قبل ذلك جاهداً فربما تغلب وربما غاب . فلذلك يوجد العبد مرتعاً ومرتعاً صافياً في شهوة واحدة .

- ٧ -

فأما الأكياس فراضوا أنفسهم وأدبوا فامتنعوا من الحلال المطلق لهم حتى هدأت جوارحهم . وإنما هدأت وسكنت لسكون غليان شهوة النفس . فإذا استعملوها ، كان القلب أميراً قاهراً ، فاستعمل تلك الشهوة بما يريه العقل [١٠١ ب] ويزين له ويحذّر (١) له بأدب الله عز وجل الذي أدبه . فهناك يملك نفسه أن يقف على الحلال فلا يجاوزه . فهو ينطق فإذا بلغ منطقه مكاناً يصير ذلك الكلام عليه أو كذب (٢) ملك نفسه فامتنع وتورع ، لأن شهوة الكلام ماتت منه . فهو يتكلم لله عز وجل وابتغاء مرضاته . وكذلك النظر إذا كان قد راض نفسه حتى ماتت منه شهوة النظر ملك نفسه عند الحرام . وملك السمع

(١) ط : « ويؤدبه » — (٢) ع : « كذا » .

وسائر الجوارح السبع .

روي أن سهل بن عبد الله المروزي كان إذا مشى في السوق حشا أذنيه بالقطن ورمى ببصره الى الأرض ، وكان يقول لامرأة أخيه وهي في الدار معه : « استرى مني ! » . فكان (١) ذلك دأبه زمانا . ثم ترك ذلك ، ورمى بالقطن ورفع ببصره الى الناس ، وقال لامرأة أخيه : « كوني كيف شئت ! » فذلك منه حيث وجد شهوته ميتة . وروى لنا عن عامر بن عبد قيس أنه قال : « ما أبالي امرأة لقيت أم حائطا » . وروي عن بعض التابعين أنه قال : « ألزمت نفسي الصمت بحصاة جعلتها في فمي . » فكان (٢) إذا أكل أخرجها ، وإذا فرغ وضعها في فيه (٣) ، وكذلك إذا صلى . فبقى في (٤) ذلك أربعين سنة حتي ألزمت نفسه الصمت فرمى بها . وروي لنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه مر برجل يعبث في صلاته ببلحيته فقال : « لو خشع قلبك هذا خشعت » (٥) .

وإنما يخشع القلب بما يتجلى له من عظمة الله عز وجل وجلاله وبهيج من النفس الخوف والخشية والحياء منه فيوجل القلب . فإذا خافت النفس أو خشيت فوجل القلب واستحى سكنت الجوارح ومالك القلب جوارحه ووقف بها (٦) علي الحدود . وإذا ترك الرياضة أحاطت (٧) بالقلب فوران الشهوات ، وحلاوتها وزينتها كاللدخان والغييم فلم يستبين (٨) في الصدر إشراف الأنوار ، وانكملت الانوار بما فيها من السرور والبهجة والزينة والحلاوة واللذة فلم يتجلى في الصدر نور العظمة والسطان ، واقتقد صاحبه الخوف والخشية والحياء أن يعملوا علي القلب والنفس (٩) فأصابتهما النفس نهبهما (٩) بما زين لها العدو ومنأها الغرور والأمان الكاذبة . يعدها سعة المغفرة ، ووفارة الرحمة ، وفيض العفو والتجاوز ،

(١) ظ : « وكان » — (٢) ظ : « وكان » — (٣) ظ : « جعلها في فمي » — ع : « في فيه » — (٤) ظ : « علي » . — (٥) ظ : « لحشمت » . — (٦) ظ : « ووقف علي الحدود » . — (٧) ظ : « حاطت » — (٨) ع : « ستين سنة » — (٩) ع : « فأصابت النفس بهنأ » .

ويحدث نفسه بالتوبة ليتجراً على الذنب .

[الفرح]

[الفرح بالزينة والشهوات : الفرح بالله . الظاهر والباطن . الفرح
المحمود . السر إلى الله بالقلب لا بالأعمال .]

- ٨ -

والأكياس يمتنوا عن أصل هذا الأمر فوجدوه (١) علي ما ذكرنا .
فخلصوا إلى الرياضة فقالوا : « إننا لما وجدنا النفس تأثر وتبطر وتسمن (٢) علي
الفرح حتي تصير بحال من امتلائها بالفرح بالأشياء كالسكران الذي لا يفيق
من سكره ، فكبر شيء نالت من الدنيا من حال أو عرض أو مال — مطلق
لها أو غير مطلق — فرحت ، فذلك الفرح سم يجرى في المروق لحلاوة (٣)
الفرح حتي يشتمل علي الجسد ، ويمتلئ القلب منه ، ويصير أشراً بطراً لا يذكر
موتاً ولا قيامة ولا حساباً ولا شيئاً من أحوال القيامة ، فهذا فرح يميت القلب
وتستمر (٤) النفس عليه ، وتطيب وتنوي الشهوات وتحتد . فهذا فرح مذموم
ذمه الله عز وجل في تنزيهه فقال : « وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا في
الآخرة إلا متاع » . وقال : « لا تفرح أن الله لا يحب الفرحين » . ودل علي الفرح
المحمود وندب إليه فقال عز وجل : « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا
هو خير مما يجمعون » . فإذا فرح العبد بما فضله الله عز وجل علي سائر العبيد
فمن عليه بالمعرفة والعقل ، فاستنار قلبه ، وطابت نفسه ، فتعاونوا علي الشكر والحمد
فاستوجب المزيد — فقال الله عز وجل . « لئن شكرتم لأزيدنكم » — ففرحه

(١) ع : « فوجدوا » — (٢) ط : ع : « تستمر » — (٣) ط : « وحلاوة الفرح » —
ع : « حلاوة الفرح » بعد « ويمتلئ » . — (٤) ع : ناقصة .

بذلك يجلب عليه المزيد . فهذا الفرح تزيق ، وذلك الفرح سم . فمن شرب التزيق لم يضره السم . وأما صار سما لانه (١) زينة ، وفرح من جنس النار وباب النار ، وهو حظ ابليس . نجاء به الهوى مع العدو الى هذا الآدي بهذه الاشياء الدنيوية ليبتليه أفرح بهذا (٢) أو يستعمله معرضا لاهيا ، أو يقبل على ربه عز وجل وداره التي مهدت [١٠٢] له . فقد قال عز وجل في تنزيله : « زين للناس حب الشهوات » ثم ذكر النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث . ثم قال : « ذلك متاع الحياة الدنيا والله عند حسن المآب » .

فاذا فرح العبد (٣) بهذا الزين الذي قد خلس حب تلك الزينة وشهوتها الى قلبه ، وسباه (٤) الفرح فاته حسن المآب . وقد وصف عز وجل حسن المآب فقال : « قل أنبئكم بخير من ذلكم » ثم بين لمن هي فقال : « للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الانهار » فوصفها بما فيها . ثم بين للمتقين من هم فقال عز وجل : « الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستقرين بالأسحار » . وقال عز وجل : « لا تلهيكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله » . فمن شغله الفرح بهذه الزينة وملك قلبه حب هذه الشهوات فقد الهاه عن ذكر الله عز وجل وفاته التقي والصبر والصدق والقنوت وحجزه عن الاطلاق ونومه عن الاستغفار بالأسحار .

فالرائضون راضوا أنفسهم وأدبوا بها بمنعها الشهوات التي اطلقت لهم ، فلم يمكنوها من تلك الشهوات الا مالا يدمنه كهيئة المضطر حتى ذبلت النفس وطفئت حرارة الشهوات (٥) . ثم زادوها منعاً حتى ذبلت واسترخت (٦) .

(١) ب، ع : « لانها » — حظ : « لانه » — (٢) ظ : « بها » — (٣) ظ : ناقصة . — (٤) ع : « سباه » — (٥) ظ : « شهوة » — (٦) ظ : « حتى » ناقصة .

فكلما منعوها شهوة أمام الله عز وجل علي منها نوراً في القلب ، فقوي القلب ، وضعت النفس ، وحي القلب بالله جلّ ثناؤه ، وماتت النفس عن الشهوات حتي امتلأ القلب من الأنوار وخلت النفس من الشهوات ، فأشرق الصدر بتلك الأنوار ، فجلب علي النفس خوفاً وخشية وحياء ، واستولي علي النفس وقهرها والولايات علي النفوس من القلوب بالأمر التي أعطيت القلوب (١) بما فيها من المعرفة . فعلي حسب تأديب القلب للنفس ينال القلب ولاية وسلطاناً . فإذا أشرقت الانوار من القلب في الصدر ، وخلت الصدر من دخان الشهوات أبرز القلب سلطانه ، فاشادت النفس وسلست والقت يديها سلماً ، وانكمن العدو فاختسأ . فمن لم يرض نفسه علي ما وصفنا ، وأعطاها منها من الحلال ، وانكمش في أعمال البر مستظهاً به عجل له ثواب أعمال البر في العاجل نورا . ففي الصدر ذلك النور ، وليس له من القوة ما يمنع النفس من قضاء الهمة ، فيمضي في شهوات الحلال بالانية فيتعطل ويبقى بالاحسبة ولا أجر ، ومعه فساد الباطن من حب الدنيا ، والرغبة والرهبة من المخلوقين ، وخوف فوت الرزق ، وخوف المخلوقين ، والحسد والحقد ، وطلب العلو ، وطلب العز والجاه ، وحب الرئاسة وحب الثناء والمدح ، والكبر والفخر ، والصفاء والغضب ، والحمية وسوء الظن والبخل والمن والأذي ، والعجب والامتكال علي العمل ، ودواهي كثيرة . فكم من فعل سيئ يظهر علي أركان هذا مع هذه الدواهي ! ففساد القلب وخراب الصدر من التفرح بالدنيا وأحوال النفس . كلما ازدادت النفس فرحاً بهذه الاشياء قويت واحتدت واشتد سلطانها حتي تصير شرحة أثمرة بطرة مستبدة . فإذا هويت شيئاً من الشهوات لم يملك القلب من أمرها شيئاً ، ولم يتورع عن الحرام . وإن تورع من الحرام لم يتزهد عن الفضول . وإن تزهد عن الفضول

(١) ط : «بالأمن الذي أعطت القلوب» .

تناول ما احتاج اليه علي غفلة وفقد النية والحبة . وإن تناول بنية وحبة تناول علي فقد ذكر اللثة . وإن تناول علي ذكر اللثة تناول علي فقد رؤية اللثة واللفظ والبر . فهو أبدا في نقصن في أى درجة كان ، لأنه محجوب عن الله عزوجل . وإنما حجه عن الله عزوجل الفرح بغير الله عزوجل .

- ٩ -

والفرح (١) المحمود علي مريين : فرح بالله تعالى ، وفرح بفضل الله وبرحمته (٢) . فالفرح بفضل الله وبرحمته ذكر النفس معه . والفرح بالله قد غاب ذكر (٣) نفسه في ذكر مولاه . فقال عزوجل في تنزيهه : « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا » وقال فما روى : « قل للصدّيقين بي ففرحوا » (٤) وبدكري فتمموا » فاما يفرح (٥) بذكر الله عزوجل [١٠٢ ب] حين يرى (٦) منته عليه . وإنما يفرح بالله عزوجل من وصل الي الله عزوجل ، ومن كان مرعاه بين يديه في ملك من ملكه . والواصلون الى قرب الله عزوجل مرعاهم تحت العرش في محل القربة .

فلا يكياس ساروا (٧) الى الله عزوجل في هذا الطريق ، وتوفوا كل فرح . فسواء فرحوا لشيء من الدنيا او بشيء (٨) من أعمال البر (٩) قالوا : « إيمانفساد قلوبنا من فرح النفس ، لأن النفس إذا فرحت بشيء (١٠) استولت علي القلب فلم ينفذ له شيء ، فليس لنا (١١) التمييز بين الأعمال ، لأننا لا نسير الى الله عزوجل بالأعمال إنما نسير اليه بالقلوب نزاهة وطهارة . فاما يندس القلب بأفراح النفس ، وصر القلب محجوبا عن الله عزوجل .

١. ط : « والفرح » — (٢) ع : « ورحمته » — (٣) ط : « عن ذكر نفسه »
 (٤) ع : « قل لاصديقين لي قل فرحوا » . — (٥) ع : « روح » — (٦) ع :
 « تري » — (٧) ب ، ع : « ساروا » — (٨) ع : « شيء » — (٩) ع : « البرة »
 (١٠) ع : « شيء » — (١١) ع ، ط : « بنا » .

فكانوا يصونون قلوبهم عن الفرح بكل شيء دق أو جل للضرر (١) الذي يحدث عنه .

ومن جهل هذا الباب توفى الحرام والشبهات (٢) وانكشف في أعمال البر . فهو في الظاهر عامر وفي الباطن خرب . (٣) لأن النفس تشارك (٤) القلب في تدبير العمل . فإذا شاركت أخذت بنصيبها — والهوى مقرون بالنفس — فلا (٥) يخلص العمل لصاحبه أبدا .

[الوله]

[الوله بالفرح . الوله بالله . مقام القلوب ومعلمها . الابتلاء بالفرحين .]

— ١٠ —

وإنما صار هذا هكذا لأن (٦) الله عز وجل أوله قلوب العباد إلى الوحيته ، فمن صان قلبه عما تورد النفس عليه بقي قلبه مع الله عز وجل في جميع الأحوال فهو أبداً والله بالله .

والولا تعلق قلبه به . ومن لم يصن قلبه حتى أوردت عليه الهوى من باب النار فقد صار ولا قلبه إلى الهوى . فالصائت (٧) أوله قلبه الله بأفراحه وحببه . والتارك للصيانة أوله قلبه الهوى بأفراحه إلى باب النار ولحب (٨) تلك الزينة . فالكيس لما أبصر هذا التدبير من الله تعالى : أنه خلق الادمي هكذا — جعل فيه قلب ونفس ، ثم جعل للقلوب (٩) محلا في عظمته ، حتى تسيروا القلوب إلى ذلك المحل ، فيكون مقامها هناك ، حتى إذا صار القلب إلى أن يستعمل جوارحه استعمالها بذكره معظما لشأنه ، حافظا لحدوده في جميع حركات جوارحه ، مؤثرا بأمره

(١) ط « الضر » . (٢) ع ، ط « الشبهة » — (٣) ط : « خراب » — (٤) ع : « يشارك » — ط : « شاركت » . (٥) ط : « لا » — (٦) ع : « لأنه » . (٧) ط : « والصائت » (٨) ط : « وحب » — (٩) ع : « للطرب » .

متأهيا عن نبيه وإن دق ، مراسيا لتقديره ، راضيا بحكمه — وذلك كله لقوة (١) ما يلاحظ من عظمته وجلاله بين يديه فيخشاه ويقيه ويخافه ويرجوه ويستحي منه ويهابه ويعظمه . وخلق بياب النار هذه الأفراح والزينة ، من النار ، وحفت (٢) النار بها ، ثم خلق الهوى — وأصله من الشيطان — فر (٣) بهذه الأفراح الى نفس هذا الادمي ، حتي تستعمل النفس هذه الاشياء الملائمة لها اللينة في ذاتها الناعمة (٤) لجسدها بذلك الفرح (٤) — فابتلي عباده بهذين الفرحين : فرح هناك بين يدي عظمته ومحل القلوب ، وفرح هاهنا يورد (٥) الهوى فيزيله الهوى عن ذلك الوله الذي في ذلك المحل فيرده من هناك الى ما هاهنا (٦) — فمن التفت (٧) عن ذلك الوله الى هذا الوله حجب عن الله عز وجل ويبقى عن الوله ، ورجع قلبه بما (٨) رجعت النفس الى هذا الوله الذي أوله الهوى فخاب وخسر . ولذلك حذر الله عز وجل عباده فقال : « يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله . » ثم قال : « ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون . » فلم يعب المال والولد وإنما عاب الوله بالمال والولد . لأن الفرح والوله بالمال والولد يلهيه عن ذكر الله تعالى إذا لم يكن فيه فرح بفضل الله وبرحمته ، ودعاه الهوى الى أن يفرح بالمال لزينة الدنيا ويهيجها ولذتها ، وبالفرح بالولد ليلعب به ، ويلهو ويتزين به ويستظهر به ، ويعتضد . فصار المال والولد فتنة لحبه إياها . فلم يحب المال من أجل أنه عون له علي طاعة الله عز وجل ولم يحب الولد من أجل أنه غصن من شجرته (٩) خرج ليعبد مولاه فيكون له جاه (١٠) عند الله عز وجل بما يعبد مولاه ، ولكنه أجبا للتكاثر

(١) ع : « بقوة » — (٢) ط : « حفت » بدون عطف . (٣) ع : « فر » — (٤) هـ : « ناعمة » . (٥) ط : « يريد » — (٦) ط : « الى هاهنا » — (٧) ع : « التفت » — (٨) ط : « لما » — (٩) ع : « غصن من شجرته » (١٠) ط : « جاهها »

والتفاخر والتعاضد تزينا بها عند أهل الدنيا كما قال عز وجل في تنزيهه : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » . ثم قال عز وجل [١٠٣] في تنزيهه : « والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا » فمن أحبها الزينة وفرح بها كان (١) فرحه للدنيا وكان وله قلبه الي الهوى لا الى الله عز وجل . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ماتحت آدم السماء إله يعبد من دون الله عز وجل أبغض الى الله من الهوى . » وقال عز وجل : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه . » فلما اتبعوا الشهوات ولم يروضوا قلوبهم انقطعت القلوب عن محل الألوهية الي الهوى ، ففرحت بما أورد الهوى عليها (٢) من دنياه فضاعت الحدود وذهبت العبودية وخافوا الأمانة فماتت قلوبهم عن الحياة بالحق القيوم .

وروى عن مالك بن دينار رحمه الله : « قال : مكتوب في بعض الكتب إن سرّك أن تحمي وتبلغ علم اليقين فاحتل في كل حين أن تغلب شهوات (٣) الدنيا فإنه من يغلب شهوات الدنيا يفرّق الشيطان من ظله » ، فهذه شهوات الدنيا اذا كانت مع الهوى .

- ١١ -

فأما اذا تناولها وكان وله قلبه بين يدي الله تعالى في ملك العظمة كن علي سبيل نبي الله سليمان عليه السلام ، مالك الدنيا شرقها وغربها وقلبه أخشع القلوب لله عز وجل فلم يضره فقال « هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب » ثم قال : « وإني له عندنا لذني وحسن مأب » ، فأما ارتفع الحساب عنه لأنه تناولها وكان وله قلبه الي الله عز وجل ، فقد كشفنا عن هذا الأمر بأن قلنا إن قلب

(١) ع : « وكان » ب : بياض — (٢) ع : ناقصة — (٣) ظ : « شهوة » .

هذا العبد موقوف بين (١) يدي الوله الى محل العظمة ، وبين (٢) الوله الى الهوى الى محل باب النار . ففي العظمة أفراح وزينة ، وبباب النار أفراح وزينة . فتلك الأفراح بالقلب . وهذه الأفراح التي يباب النار في النفس . والذي يورد هذه الأفراح على القلب هو نور المعرفة ، ونور العقل حتي يشخصا يبصر قلبك الى نور العظمة فيرجع (٣) عليك مع الأفراح . والعباد (٤) موقوفون بين هاتين الحالتين والانسان (٥) منذ سقط من بطن أمه غدى بالشهوات (٦) ، كلما نشأ نشأ معه فرح . وذلك فرح وجود اللذة والنعمة وفرح الحياة بما فيها من الزينة والبهجة . فلما شب وعقل قامت عليه الحجة فافتضى الوفاء بالاسلام وهو لأمر والنهي . فأراد قلبه فاستعصت عليه النفس فاحتاج الي مجاهدتها حتى يقيم أمر الله عز وجل وينى بالاسلام الذي قبله ، ويسعد (٧) غداً بجنته وجواره لأنه دعاه دعوة الى الله عز وجل حين قال : « فمروا الى الله » . ودعاه الى دار اسلام حين قال : « والله يدعو الى دار السلام » .

[القلوب والجوارح]

[حفظ الجوارح السبع . الفرح بالجنة . الفرح بأعمال السير .
الفرح بالله . الصادقون والصديقون]

فصر أهل المجاهدة فرقتين : فرقة حفظت الجوارح وأدت الفرائض وسارت (٨) الى الله تعالى قلباً فلم تعرج (٩) على شيء حتى وصلت الى الله عز وجل ،

(١) ع : « من » — (٢) ع : « من » — (٣) ط : « فرجع » — (٤) ع : « فأمر » — (٥) ع : « كالانسان » — (٦) ط : « شهوة » (٧) ط : « سعد » — ع : « منعد » — (٨) ط : « سارت » (٩) ط : « تعرج » .

وفرقه حفظت الجوارح وأدت الفرائض بمجد وتمب وكذا (١) ومحافظة وحراسة ومع ذلك تخليط وتهافت في الخطايا وأدناس (٢) لا يستطيع أن يسلم منها. بمنزلة راع أعطى سبعة أغنام ليرعاه في سبعة أودية. وفي تلك الأودية سموم قائمه وجرف حاوية، وسبع ضارية فهو قائم على أكمة مراقب (٣) لتلك الأغنام. فانزعت سدا بدره بالآزهر والسمن واللبن حتى يردّها إلى العافية. وإن تردت في جرف فتكسرت عمد إلى ما تكسر منها فجبرها حتى تجبر. وإن عرضت في السبع ذاد عنها وطرد، وما وحدها فريه استلب من مخالب وانيب فدأواه حتى يبرأ.

فوكّل العدو نحو راحه السبع ليحفظه عن أن تتعدى الحدود. فانه إذا تعدى الحدود عصى ربه عز وجل وحن الأمانة وظل نفسه وسقطت منزلته وبعد عن الله عز وجل. وإذا بعد عنه تبعه من الرحمة وصور مرفوضاً محذولاً فأسرّه العدو وذهب به إلى الله. لأنه إذا أسرّه العدو ذهب منه الثياب واستولت نفس فبرت في كل شبهة حرام تلبس خلالها ولا حرام قبلت. فهذا شأن العدو في حفظ الجوارح. قال الله عز وجل: «والذين هم الأمانات وهم عهدهم راعون». ثم قال عز وجل: «اولئك في جدت مكرمون».

حدثنا (٤) صالح بن عبد الله أنه جبر عن ليث عن ابن أبي نعيم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه (٥) قال: «أول ما خلق الله عز وجل من الإنسان فوجه فقال له: هذه أمانة خيانتك عندك فلا تبسل (٦) منها شيك إلا يحقها».

[١٠٣ب]

فانخرج أمانة والبصر أمانة واللسان أمانة واليد أمانة والرجل أمانة والبطن

(١) ع. «كس». — (٢) ط. «والادناس». — (٣) ط. «مراقب». (٤) ع. «حدثنا». — (٥) ط. «عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما». — (٦) ب. ع. «تبسل».

أمانة . فأنما بدأ بالفرج لان جميع الأفراح تجتمع عند استئمانه وهو أقوى اللذات
وبه دخل النار أدله . « وقيل يارسول الله ما يدخل الناس النار » قال :
« الأجوفان : البطن والفرج » . وأنما خبا عند عبده يعني آدم عليه السلام لانه
بده^(١) الفرج^(٢) ، وهو سر الله عز وجل مقرون بسر القلوب^(٣) ولا ينكشف
الا لاهل الجنة فيها^(٤) . فأمرنا بستر العورة لذلك ، لانه خلق مستورا^(٥)
خبأه الله عز وجل عندنا وأمرنا بحفظه وسماه سواة . فحرص العدو علي أن
يهتك ذلك السر حتي يبدو^(٦) لنا . وقبل ذلك كان مستورا عن آدم
وحواء عليهما السلام . وأنما بدأ بالمعصية — قال الله عز وجل : « ينزع عنهما
لباسهما ليريهما سوء آتئهما » . فأنما صير كل جارحة من هذه السبع أمانة عندنا لأن
كل جارحة ذات شهوة . وجميع الشهوات في النفس فاذا استعمل هذه الشهوة
بإذن الله وبلغ^(٧) به الحد الذي حده له فهو مطابق له . وإذا تعدى الى
المحظور صار ملوما . قل الله عز وجل : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم
ويحفظوا فروجهم » — ثم اتى عليهم فقال : « والذين هم لقروجهم حافظون
الا علي ازواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين . » فزال اللامة عن
استئمانه في نكاح أو ملك يمين . ثم قال عز وجل : « فمن ابتغى وراء ذلك
فأولئك هم العادون » . فدم من جاوز الحد . وكذلك في كل جارحة علي هذه
الصفة .

فالراعي يحفظ هذه الأغنام حتي يصلح ما فسد منها علي ما وصفنا . فذلك
الذي وقف بمجاهدته علي نفسه بحفظ^(٨) جوارحه علي الحدود في النظر والكلام
والاستماع والأخذ والاعطاء والبطن والفرج . فاذا زل أو غلب أو نسي أو

(١) ع : « الفرج » - (٢) ط : « القدر » — ع : « مقرون سير القدر » —
(٣) ط : نافسة - (٤) ط : « مستور » — (٥) ط : « يبدو » — (٦) ط : « بها »
(٧) ط : « حفظ » .

غفل عاد الى مركز الطاعة بين يدي ربه عز وجل بالاستغفار والتوبة . فهذا عبد في جهد (١) الاستقامة وباطنه غير مستقيم لأن شهوات نفسه قائمة بين يديه فهو يمنعها بجهد ومتى ما غفل عنها زل وسقط . فطريق هذا العبد الى دار السلام ليس له وراء هذا مسلك . وأما الذي راض نفسه فتنعيا للشهوات والذات حتى طهر قلبه ، واستوجب القرية بطهارة القلب ، وآثر الفرح بالله على الفرح بما أوردته الهوى على نفسه من أفراح الدنيا ففتح الله عز وجل له طريقا اليه فصار سيرا لم يلتمعت الى دار السلام ، لأنه لما أخذ في الرياضة أخذ بصديق ، فلم يقف في الطريق على شيء مفروح به ، ولو كان بأسني عمل من أعمال البر (٢) لأنه اذا توفى الفرح بلذات الدنيا وشهواتها أمد القلب بالنور وهان عليه رفض الشهوات خفي اذا انكشف في أعمال البر فرح القاب بتلك الاعمال ، فينبغي له أن يتوقى (٣) تلك الأفراح ايضا ، وينقل من عمل الى عمل ليقطع عن النفس فرحها بذلك العمل . لأنها اذا فرحت بعمل من أعمال البر اطمأنت الى ذلك العمل . فاذا اطمأن (٤) الى شيء دون الله عز وجل فقد ترك سيره اليه ، ووقف على ذلك العمل ، فاقضى منه صدق ذلك العمل فلم يوجد عنده صدق ، لأن النفس تأخذ بمحظها من ذلك العمل ، وهو أن تجد حلاوة حب النساء والمدحة (٥) لذلك العمل . فهو وإن اخفاه وستره علمت أنه أن الناس يحسون بذلك (٦) منه ويشعرون به . فيأنس بعلم الناس وملاحظة أعينهم اليه فلا يصفو له عمل ولا يقدر أن يخلص بأكثر من هذا . فيقبل منه اذا رد الذي عرض له من ذلك - قبول الصادقين لا قبول الصديقين .

- ١٣ -

فينبغي للبستديء في هذا الأمر أن يبدأ بالصوم فيصوم شهرين متتابعين

(١) ط : « صبر » — (٢) ط : « من الاعمال لانه » — (٣) ط : « يتوقى » -
(٤) ط : « اطمأنت » — (٥) ط : « المحمدة » - (٦) ط : « ذلك » .

توبة من الله عز وجل — وعد الله في تنزيله أن شهرين متتابعين (١) توبة من الله تعالى عز وجل لعبده إذا تاب إليها — ثم ينتقل من الصوم إلى الإفطار، فيقطع البسير من الشيء يتجزأ به . فإن كان في اليوم مرارا كسرة كسرة [١٠٤] فهو أجود له من أن يملا بطنه فيصيرها أكلة — وإنما ذلك محمود عند الأطباء . فيقول أكلة واحدة كي يستمر بها . وذلك لا يدخل في هذا الباب لأن صاحب هذا لا يأكل حتى يتخف . إنما يشير عليه بأن يأكل كسرة قوتا فيدأرى نفسه (٢) على ذلك . وبين الأيام دسما قليلا لئلا يهيج (٣) عليه الرياح وتضطرب العروق . ويقطع الأدام والقواكه عن نفسه . وكذلك في الكسوة يجتري (٤) بالدون وما لا بد منه . وكذلك في سائر الأحوال التي للنفس فيها حظ من الفرح واللذة يقطع (٥) عن نفسه . ومخالصة الإخوان والنظر في الكتب . فهذه كلها أفراس النفس وحدها . وفي الحجة ينبغي له أن يتفقد كل حال وكل أمر للنفس فيه فرح واستبشار من نعمة أو وجود لذة . أو أنس بشيء . فيقطع عنها . فانه كلما حوت النفس شيئا أعطاها فرحت بذلك . فينبغي له أن يمنعها ولو شربة من ماء بارد تريد أن يشرب فيمنعها (٦) في تلك القفورة التي تشوقت (٧) لوجود بردها ولنمها حتى تسكن (٨) تلك القفورة ، وينقص عليها ثم يسقيها بعد ذلك ، حتى يلاها عما يوقرهم . لأن من شأنها إذا حبس عنها هذه الأفراس بهذه الأشياء وهذه الأحوال — فكأنه يصيرها في سجن فيتقرب إلى الله عز وجل بغيرها وهما — فيعجل الله عز وجل له ثوابه نورا على القلب ، فيزداد القلب بذلك النور قوة على منع النفس شهواتها ، وعلى أخذ سلطانها ، ويستولي عليها وهي (٩) تذلل وتذبل ، والعدو يخسأ ويتحير ، ويبطل كيده ومكره . حتى إذا

(١) ب : ع : ناقصة . (٢) ط : « بهيج » — (٤) ط : « نجحنا »

(٥) ط : « فيقطعها » (٦) ط : « فمدوها » — (٧) ع : « تشرفت » (٨) ط :

« تكسر » (٩) ط : « فنى » .

انتهى الى أعمال البر فكل عمل يراها تفرح به وتأنس به يقطع (١) عنها ذلك العمل. حتي أنه لو قرأ القرآن فرجع فيه وغني منعاً ذلك لأنها متى وجدت شيئاً مفروحاً به أنست واطمأنت اليه ، ومدت القلب الي ذلك الانس . فتي يصل القلب الي الأنس بالله عز وجل والطمأنينة اليه ، والوله الي عظمته ، وصفاء الحب له فهذا صدق المريدن ربهم عز وجل ، والسائرين بالصدق اليه ، والطلالين له في منازل التوبة . فينبغي (٢) أن يتقي كل فرح للنفس فيه تعيب حتى يصل الي ربه تعالى . فاذا وصل الي ربه عز وجل امتلاً قلبه به فرحاً وسروراً وبقينا . فكل شيء مد اليه يدا من دنيا أو آخرة لم يضره لأنه منه يقبل فاذا قبل منه حمده عليه وشكره وكانت (٣) جوارحه مستقيمة حافظة للحدود معتمدة (٤) بخوف الله عز وجل ، ولسانه ذا كرم ، وبدنه شاكراً صابراً لأنه امتلاً قلبه بالله فرحاً ، فلم تجد أفراح الدنيا فيه مكاناً . فاذا فرح بشيء من الدنيا فأنما يفرح ببر الله عز وجل له بذلك وتقديره وتديده ولطفه . ولا يخون أمانة ولا يكفر نعمة ولا ينسى ذكره ولا يحدث عيب . فاستعمال (٥) جوارحه في ذلك الشيء بمنزلة رجل شرب ترياقاً فامتألت عروقه منه فان مدبده الي حية أو عقرب لم يضره سمهاً ، لأنه لم يجد السم مسلماً الي عروقه . واذا لم يجد الترياق وجد السم مسلماً الي العروق فحمد الدم الذي في العروق من ذلك السم فمات . فكذلك أفراح الدنيا تجري في العروق مجرى الدم فتشمل الجوارح كلها وتأخذ القلب فتسييه (٦) فاذا دخلت الأنوار القلب بما (٧) راض نفسه بهذه الرياضة التي ذكرنا عجل له ثواب رياضته فانشرح (٨) الصدر واتسح ، فصارت الآخرة له كالعائنة ، ولا حظ للملكوت بتلك العين ، عين القواد ، في فسحة ذلك النور

(١) ط : « لينقطع » — (٢) ط : « ينبغي له » — (٣) ط : « فكانت » — (٤) ط : « ومعتمدة » — (٥) ب ، ع : « في استعمال » (٦) ط : « تمتيه » — (٧) ط : « الي » — (٨) ط : « وانشرح » .

المشرق في الصدر ، فرأى شأنا عجيبا من عظمة الله عز وجل وجلاله ، ورأى من لطف الله عز وجل بالعبيد وبره بهم وإحسانه إليهم ومنته عليهم فامتلا القلب به فرحاً ، وحجرت الأفراح في العروق حتى امتلأت ، ففني تجمد بعد ذلك أفراح اندني مسكاً في عروقه حتي يكون لذلك الفرح سلطان يأخذ القلب فيسيه (١) ، فعنده يمد يده الي ما أحل له من الطعام والشراب واللباس والنكاح والاحتواء ، الي ما قدر له من دنياه ، فيقبله من ربه عز وجل علي تديره الذي دبر له . فمن أخذ أخذ بحق ، وإن أمسك أمسك بحق ، وإن أعطى أعطى بحق وقلبه حر من رق النفس [١٠٤ ب] وفتنة ذلك الشيء . وذلك العمل بمنزلة رجل له مائة بيت دنير يملكها . فإن أعطاه رجل صرة فيها عشرة دنائير (٢) لم يعمل في قلبه فرح تلك العطية عملاً يؤثر أثراً ، ولا يستعين . وإن كان عنده تلك صرة فسقطت منه حتى أتوت لم يبد عليه صرر ذلك ، ولا عمل علي قلبه حزن ذلك . ولا هو فرح بما أصاب ولا حزن علي ما توى . وذهب لامتلاء قلبه بفرح تلك الدنائير التي هي مائة بيت . فكذلك من فرح قلبه بالله عز وجل استغنى بالله (٣) عز وجل ، فلا (٤) يملك قلبه (٤) بعد ذلك أفراح (٥) الدنيا لانه لا يستغنى بالدنيا إنما غناه بالله تعالى . وهذا تأويل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس غني عن كثرة العرض ، إنما الغني غني النفس » إذا استغنت فعنده يعني القلب المشرق بنوره في صدره . فإذا اطمانت النفس بما أشرق فيها من النور بالله عز وجل — أشرق النور فيه الي الله عز وجل — فقد دق عندها نوال الدنيا من أولها الي آخرها في (٦) جنب ما عين القلب وأورد من حياة علي النفس . فهذا شأن النفس إذا وصلت الي ربه عز وجل بوصول القلب . فإذا قلنا إنه لا يدع قراراً علي شيء من أعمال البر فكلمنا فرحت النفس بشيء من

١ : ط : « فيسيه » — (٢) ع : ناقصة . (٣) ط : « استغنى قلبه بالله » — (٤) ط : ناقصة . — (٥) ط : « عن الفراح » — (٦) ط : « من » .

الدنيا أو بعمل من أعمال البر قطع عنها ذلك الفرح حتى يغمرها ، حتى يطهر القلب من أفراح النفس ، فهناك يرحم ، لأنه إذا وصل الى هذه المرتبة بقي بلا أنس ولا فرح ، قد قطع نفسه عن أفراح الدين والدنيا . فهو يحفظ جوارحه عن كل ما نهى الله عنه وعن كل شيء من الفضول فيقيم القرائض والسنن لايزيد عليها . كفى بهذا شغلا ! ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أد ما افترض الله عليك تكن أعبد الناس ، واجتنب محارم الله عز وجل تكن من أروع الناس وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمنا » . فهذا المؤمن المستكمل للستحق لاسم الايمان عند إقامة هذه الخصال الثلاث . فكفى بهذا شغلا !

فهذا عبد صدق الله عز وجل في العبودية . وأما سائر الناس من غير أهل هذه الصفة فيهم متخبطون بطالون يعبدون الله عز وجل على الشايد بوز . قد طابت أنفسهم ، ولذات^(١) أهوائهم . وروى لنا أن داود عليه السلام قال « يارب أمرتني أن أطهر بدني بالصوم والصلاة فبم أطهر قلبي ؟ قال بالهموم والغموم يا داود ! »

[تطهير القلب]

[الهموم والغموم . جهاد الصديقين . المعرفة والمقتل . انواع العبادة . الفرح بالله والحزن .]

فانما يتدنس القلب بالأفراح — أفراح النفس — فلا^(٢) يطهره مثل عمر نوح صوما ولا صلاة^(٢) . إنما يطهر الصوم والصلاة أدناس الأركان بالمعصية وانما يطهر القلب ما يزيل عنه أدناس الفرح وهو الغموم والهموم . فلما منعت

(١) ظ : « بلذات » — (٢) ظ : « فلا يطهر منذ عمر نوح صوم ولا صلاة » .

النفس شهواتها ذبلت، وطفى^(١) تطفى شهواتها وفوران دخان هواها، فرالت أدناس الفرح من القلب بذهاب الفرح وطهر بالأنوار التي ولجت القلب-- بمزلة سحائب تحجيك بظلمتها وبما فيها من الغيرة عن الشمس فلما انشعبت السحائب وتبددت أشرقت الشمس - - فمندا يصلح^(٢) اقرب الله عز وجل. قال الله عز وجل : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة » . « فالوسيلة » « الوسيلة » بمعنى واحد . إلا أن « الوسيلة » أن يصل^(٣) الشيء بالشيء . فلما صار الأمر الى ذكر انزب عز وجل أخرجه مخرج القرية فقيل « وسبة » بدل^(٤) « بالسبب » « صددا » و « بالصاد » « سبنا » . فيكون له من الالفاظ أشرفها وأعلاها وأنزهها . فأمرهم بابتغاء الوسيلة اليه بالتقوى فجاء التقوى هو . وصفنا : أن ينشئ^(٥) الفرح في كل شيء تجمد النفس في ذلك الشيء فرح ، من كلام أو صيام أو قيام^(٦) أو قعود أو ذهب أو مشي أو لباس أو طعم أو شراب أو صاحب أو أهل أو ولد ، إلا فيما لا بد منه كالمضطر . فإذا فعه عي تلك الهيئة فعه عي الاهتمام والاعتماد أو مع آخر . لأنك تجمد ذلك النفس له عز وجل خالص^(٧) لا تأخذ النفس من ذلك العمل حصتها . فأنت تعمل ذلك الذي لا بد منه فتكسر عليه فرحها ونشاطها ، فذلك التخليط الذي ترى في أمرك قبلها حتى يدوم عليها الغم والهم . فهاد [١٠٥] الصديقين في هذا أن يتقوا الفرح بشيء سواه^(٨) حتى أوصلهم الى قسه بعد أن امتلات صدورهم غوما وهموما . فلما أوصلهم قريهم ومكن لهم بين يديه ، وملاهم فرحا فاشتاقوا اليه قريهم فازدادوا شوقا ، كلما زادهم قربة اشتد شوقهم وزاداد حتي عطشت قلوبهم ، فامتلات قلوبهم^(٩) أحزانا حتى قطعوا الحياة والعمر بالأحزان .

(١) ب، ع : « طفت » - (٢) ط : « يصلح » - (٣) ط : « توصل » -
 (٤) ط : « تبدل » - (٥) ط ، ع : « ينشئ » - (٦) ط : « ناقصة » - (٧) ع :
 « حال صا » - (٨) ع : « سوا » - (٩) ط : « ناقصة » .

وروى في الخبر قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم دائماً الأحزان والفكر » وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما عبد الله عز وجل بمثل طول الحزن » وحق لمثل هذا أن يحزن فإنه وصل قلبه إلى رب ماجد كريم فرأي عظمته (١) وجلاله ، وعظما وبراه ، وقال منه حيائه فلم يشف الوصول إليه وتلك القربة ، وذلك الفرح به دون رؤيته في الجنة . عن (٢) أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن من أمن الناس بوائقه ، والورع سيد العمل ، من لم يكن له ورع برده عن معصية الله عز وجل إذا خلا بها لم يعأ الله عز وجل بدثر عمله شئت » . فذلك مخافة الله عز وجل في السر والعلانية والاقتصاد في الفقر والغنى والصدق عند الرغى والسخط . إلا أن المؤمن حاكم على نفسه يرضى لنفسه ما يرضى لربه . وللمؤمن حسن الخلق . وأحب الخلق إلى الله عز وجل أحسنهم خلقاً . وينال بحسن خلقه (٣) درجة الصائم القائم وهو راقداً على وجهه لأنه قد رفع قلبه عنه فهو يشهد القيامة بقلبه ، بعد نفسه ضيقاً في بيته ، وروحه عارية في بيته (٤) . ليس بالمؤمن حقاً من لم يكن أحملناه على نفسه . الناس منه في عفاء . وهو من نفسه في عفاء ، رحيم في طاعة الله عز وجل . تخيل على دينه . حيي مطواع . وأول ما فات ابن آدم من دينه الحياء . خاشع القلب لله عز وجل . متواضع قد بريء من الكبر ، قائم على قدمه ينظر إلى الناس والهدى بعد نهها في حدم عمره . لا يركن إلى الدنيا وكون الجاهل . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا جرم أنه إذا خلف الدنيا خلف الهموم والأحزان . ولا حزن على المؤمن بعد الموت بل فرحه وسروره مقيم بعد الموت » .

حدثنا عبد الجبار بن العلاء نا (٥) يوسف بن عطية قال سمعت ثابت البناني

(١) بفتح : «عظمة» - (٢) ط : «روى عن أنس» - (٣) ط : «الخلق»

(٤) ط : «بيته» - (٥) ط : «ابن» .

يذكر عن أنس بن مالك قال : « بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي اذ استقبله رجل شاب من الأنصار فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : كيف أصبحت يا حارثة — قال : أصبحت مؤمناً بالله عز وجل حتماً ! قال : أنظر ما تقول فإن لكل قولاً ^(١) حقيقة . — قال : يا رسول الله ! عرفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي وأظلمات نهارى فكأنني ^(٢) بعرش ربي عز وجل بارزاً ، وكأنني أنظر الى أهل الجنة كيف يتزاوون فيها ، والى أهل النار كيف يتعاوون ^(٣) فيها — قال : أبصرت فالزم ! عبد نور الله تعالى الايمان في قلبه — فقال : يا رسول الله ! ادع الله عز وجل لي بالشهادة — فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنودي يوماً في الخيل فكان أول فارس استشهد وأول فارس ركب . فبلغ أمه فجاءت الى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ! أخبرني عن ابني إن يك في الجنة لم أبك عليه ولم أحزن وإن يك غير ذلك بكيت عليه ما عشت في الدنيا — فقال يا أم الحارث ! إنها ليست جنة ولكنها جنان . وإن الحارث في الفردوس الاعلى . فرجعت وهي تضحك وتقول : يخ يخ يا حارثه ! . قال أبو عبد الله رحمه الله قائماً وصل هذا العبد الى هذه المنزلة بتلك الأنوار . ألا ترى الى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هذا عبد نور الله عز وجل الايمان في قلبه » . حدثنا أبي نا محمد بن الحسن للمكي عن عبد العزيز بن أبي دواد ^(٤) — رفعه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم — بمثل حديث يوسف إلا أنه قال « لكأنني أنظر الى ربي عز وجل فوق عرشه يقضى بين خلقه . » فقد أعلم أن الايمان في القلب لا يستتير في الصدر لاحاطة غيوم الشهوات ورين ^(٥) الذنوب بالقلب في الصدر حتي اذا تاب العبد صقل قلبه بالتوبة فاذا راضها حتي ينقطع دخان شهواتها [١٠٥ ب] وفوران الهوى جاءت الانوار مدداً

(١) ط : « حق » — (٢) ط : « وكأنني » — (٣) ط : « يتعاوون » —

(٤) ط : « داود » — (٥) ع : « زين » .

للإيمان الذي في القلب ، فصار القلب ذا شعاع وإشراق في الصدر . فذلك عبد نور الله عز وجل الإيمان في قلبه ، فلما نوره استنار في صدره ، فصدرت الأمور إلى الجوارح من ذلك النور مع الخوف والخشية والحياء ، فعملت الجوارح على الحدود وللقدار الذي أمر مع البهاء والزينة .

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أن العبد إذا أذنب ذنباً نكتت (١) في قلبه نكتة سوداء . فإذا عاد نكتت (٢) أخرى فلا يزال تنكت حتى تسود القلب كله . فإذا تاب ونزع عقل (٣) قلبه » فأنما ينسقل بالأنوار حتى يتجلى كالمرآة المجلية . فإذا صار كالمرآة تراءت له الدنيا على هيئتها والآخرة على هيئتها والملكوت . فإذا لاحظ (٤) في الملكوت عظمة (٥) الله عز وجل وجلاله صارت الأنوار كلها نوراً واحداً فامتلاً الصدر شعاعاً . بمنزلة رجل نظر في المرآة فأبصر صورة نفسه فيها ، وأبصر ما بين يديه وما خلفه فيها . فإذا قابل بها عين الشمس وقع الشعاع في البيت فأشرق البيت من تقابل النورين : نور عين الشمس ، ونور المرآة . فكذلك القلب إذا جلى فأنجلي فلاحظ العظمة والجلال تجأت (٥) العظمة (٦) من الحجاب (٦) لذلك القلب المجلي لأنه طاهر من أدناس المعاصي وأدناس الشهوات وأدناس الهوى والتقى النوران فامتلاً القلب شعاعاً فهناك تموت النفس ويخضع القلب .

حدثنا سفيان بن وكيع وقتيبة بن سعيد قالنا (٧) عبد الوهاب (٨) الثقفى عن خالد الحذاء عن أبي قلابة عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ،

(١) ظ : « نكت » — (٢) ظ : « نكت » — (٣) ظ : « عقل » — (٤) ع : ات بعد وجلاله . — (٥) ظ : « فلت » — (٦) ع : ات بعد ذلك . بعد « ونور المرآة » — (٧) ظ : « حدثنا » — (٨) ب ، ع : « عبد الو » ومكان بقية الاسم بياض .

ولكنه اذا تجلى الله عز وجل لشيء من خلقه خضع له . ولذلك لما تجلى لطور سيناء صارت البقعة التي وقع التجلي عليها كالهباء المبعوث (١) . وما في جوارها ساخت في الارض فهي تذهب في تلك البحار التي من وراء الابواب الى يوم القيامة فلا تستقر . وما في جوارها أبعد منها صارت غدا في فلق فصارت هربا وفرقا حتي وقعت أربعة منها في حرم الله عز وجل وأربعة في حرم الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة وحرم موسى صلى الله عليه وسلم صعد . فصارت الارض كهم ذات بهجة وزينة حتي ظهرت الكنوز علي ظهر (٢) الارض وأبصرت العميين وصبح كل مريض وبرأ كل زمن وانفتحت (٣) الأرحام فحملت كل عجم وحلا كل أجاج . فأعلم في هذا الحدث أن الشمس أما ذهب ضوؤها خسعة له عز وجل . وخشوعها خروجها من سر بالها الذي سربت (٤) به من نور العرش فهاقت الضوء . فكذلك النفس اذا أحست بالتجلي خسعت لله عز وجل وخرجت من جميع شهواتها الى الله عز وجل وتمتقت أفراحها (٥) وطارت (٦) السرور فصارت ذبلة (٧) كهيئة . فخلص القلب من ذلك ، وتخلص من أدنسها ، فوجد السبيل الى الله عز وجل . وفيه من المعرفة والعقل تقرب ثم قرب ثم زيد نورا حتي مكن له بين يديه فهو يعبد كآله يراه . وهو قول جبريل عليه السلام «ما الاحسان ؟» قال : « أن تعبد الله عز وجل كأنك تراه » . فحسن العبادة مع الترائي . فاذا كان محبوبا فانه يعبد ولا يلتمس الحسن والزينة في العبادة . بمنزلة رجل دعاه الملك ليقطع ثوبا بين يديه ويخيطه . فلا يترك هذا الصانع من خفة اليد وحسن الابتداء ووجازة الفعل وإحكام الخياطة وزينتها الا صنعه بين يديه يريد أن يتحلى بذلك

(١) ب : غير واضحة — ع : « المنثورة » — (٢) ع : « وجهه » — (٣) ط : « حمل » — (٤) ط : « التي سربت » — (٥) ع : « افتاحها » — (٦) ب . ع : « طرأته » — (٧) ط : « ذابلة » .

منه فيكنسب به جاهها ومنزلة . والآخ رجل دعاه الملك وقال اذهب بهذا الثوب فاقطعه قيطا (١) وخطه واحمله الى حتى أنظر اليه . فلما غاب عنه ترك خفة اليد وحسن الابتداء ووجازة الفعل وإحكام الخياطة واتقنه (٢) وزينه لأنه ذاكر للعرض عليه . والآخ دعاه الملك فقال اذهب بهذا الثوب فاقطعه وخطه وأهذه الي فلان الراعي فلما غاب عنه رفعه عنه باله فكيف قطعته وخطته جوزه (٣) لأنه لم يشعر برؤية الملك ولا ذكر العرض عليه وإيمانه (٤) ارتفاع العمل فيقول قد عملت وآخذ الأجرة (٤) وإيمانه جراه في ذلك عملته عن رؤية الملك وعن العرض عليه (٤)

فعمال (٥) الله عز وجل ثلاثة أصناف : عامل يعمل على الترائى فلا يترك زينة ولا مبادرة ولا سرعة ولا خفة يد ولا طهره ولا تعظيما ولا وجاره ولا مسابقة الا جاء به يريد أن تتحلى بدات عند مولاه عز وجل ، وعامل ليس له هذا الترائى وهو محجوب القلب عنه (٦) بالشهوات صادق في ابتغى مرضاته ذاكر للعرض عليه فلا يتزين ولا يبادر ولا يعظم ولا يسرع ولا يوجر ولا يسابق ولكنه يعمل على الاحكام (٧) وحفظ الحدود وإتمام الامر بالاركان ، وعامل لا يذكر رؤية ربه عز وجل أنه ناظر اليه في هذا العمل ولا هو ذاكر لعرض الأعمال يوم القيامة فهو يعمل على العقلة ، على التجويز . فانه يعمل كل صنف منهم على نوره الذي في صدره .

جملة م. وصفنا من أمر السير الى الله عز وجل ان يتقى (٨) فرح النفس،

(١) ط:ع : «قيضا» - (٢) ع : «واتقنه» - (٣) ط : «وجوده» - (٤) ط : ناقصة - (٥) ط : «تكرار ذلك عمل» (٦) ط : «انفسه» (٧) ط : «يعمل عملا على الاحكام» (٨) ط:ع : «يتقى»

أن يتركها حتي تفرح بشيء من أحوالها ، أو ينالها (١) من الدنيا وأعمال البر .
 كلما ظهر فرحها نقص عليها بلنع لها والانتقال عنه حتي يلاها غما فيذهب (٢)
 الفرح الذي يتأدى الى القلب ويظهر النور ، ويظهر في ذلك النور الفرح بالله عز
 وجل لأن ذلك النور يؤديه الى صفات الله عز وجل والى عظمته وجلاله وجماله
 وكبريائه وبهائه وسؤدده وكرمه وجوده وبره ولطفه (٣) ومنته وإحسانه ورحمته .
 فبحال أن يعتقد العبد هذا الترح حتي يدوم له ذلك ويزول عنه أفراح النفس .
 ثم يصير في فرحه بالله عز وجل حزينا لأنه محبوس (٤) عنه يرمى الحياة في دار
 الدنيا ، مشتاق الى ربه عز وجل ، فدأ نسيبه واشتاق الى لقائه ، واستوحش من الدنيا
 وأهلها . فتعنيه ذكر (٥) الله وعبودته . وموته (٦) راحته ويوم عيده .

[تحريم المعازف والخمر]

- ١٦ -

وتحقيقا وصفنا من ضرر فرح النفس أن الله عز وجل حرم المعازف
 والخمر علي لسان نبيه صلى الله عليه وسلم وما نطق به الوحي في شأن الخمر . وذلك
 أن الله عز وجل لما خلق الفرح وجعل له بابا (٧) فلما خلق الجنة خرجت
 الأغراس (٨) من باب الزحمة وخرج (٩) غرس العنب من باب الفرح .
 فلذلك (١٠) أول ما أكل آدم صلى الله عليه وسلم حين دخلها العنب فامتلا
 فرحا . « وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سئل : أول ما يأكل أهل
 الجنة من الجنة ؟ — قال العنب . » وأول ما أكل آدم عليه السلام العنب فامتلا
 فرحا . ووضع من الترح في تلك النار ، التي فيها الزينة بباب النار ، التي سميت

(١) ط : « ينالها » — (٢) ط : « يذوب » — (٣) ط : « لطفه وبره » — (٤) ط : « محبوسا » — (٥) ع : « روي » — (٦) ع : تريد كلمة « شهوة » قبل « موته » — (٧) ط : « بابان » (٨) ع : « الأغراس » — (٩) ط : « وغرس » — (١٠) ط : « وكذلك » .

صوت . فجعل ذلك الفرح حظ ابليس حتي يأخذه فيضعه في الاشياء التي
حوي^(١) بها الآدميين .

فاما أضل ابليس للمشركين بذلك الفرح . دخل الاشجار وكل معبود من
دول الله عز وجل فصوت^(٢) منها بذلك الفرح فكل من سمع صوته سبأ ذلك
الفرح قلته حتي يجيبه الى الشرك والى عبادته . فهو يرى أنه بعد الشجرة والوثن^(٣)
والله بعد الطاعوت . وابليس طغى حتي بلغ غاية الطغين فقل « طاعوت » وذلك
قوله عز وجل : « كل حزب بما لديهم فرحون » . فذلك الفرح لكل حزب
من الذي أعطى ابليس حتي أوردته على قلوبهم بصوته . وذلك قوله عز وجل :
« استغزز من استطعت منهم بصوتك » . فصوته مع ذلك الفرح ولولا ذلك
. أحبوه فيه فرحون بأوثانهم^(٤) . وإنما يفرحون بالله عز وجل . ولكن غير
مقبول منهم . وهم يحسبون أنهم مبتدون بذلك الفرح . لأنهم تتب ولود من
ابليس لا من هداية الله تعالى ومعرفته . وإن وصل الي غواية آدم علي الله
عليه وسلم بما استغزز حواء بصوته من الفرح . وروى في الخبر أنه لما دخل الجنة
صوت في من مازله فرحاً^(٥) حتى كادت حواء تطير من الفرح . فقالت : « .
هذا الصوت ! » قال : « نسروني بمكانكما » . ثم قلب المزمار فتناح نباحة أخذ
بنايها حتي امتلات حواء خوفاً . فقالت : « ما هذا ؟ » . فقال « حزناً عليكما أن
توت أو تخرجاً^(٦) » . منها . . فهناك دلها علي شجرة الخلد [١٠٦] لكي
تأكل منها فيخلد فيها . ففي وقت الفرح دلها علي شجرة الخلد . ولتخوف
الزوايا دلها بفرور حتى ذاقا الشجرة فلما عرا صارا مجنونين نالهم . فلما ذاقا
عزة من اللباس . وانكشف الغطاء عن الذنب فوليا في الجنة هارين . فبالفرح

(١) ط : « يقوي بها » --- ع : « يطوي بها » . (٢) ح : « وصوت » (٣) ع :
« الغرس » . (٤) ع : « ادانيهم » --- (٥) ط : ناقصة --- (٦) ط : « تنزعجاً » .

خلص (١) العدو اليه حتى أكل من الشجرة فصرعه .

وحرم الله عز وجل الخمر لما فيها من ذلك (٢) الفرح لأن إبليس لما سرق العنب من سفينة نوح صلى الله عليه وسلم واقتدعه (٣) نوح صلى الله عليه وسلم جاءت الملائكة حتى يقضى جبريل عليه السلام بينه وبين بني الله صلى الله عليه وسلم علي الثلث والثلثين : فكلما وجده نيا أو مطبوخا فيه بنية من حظه (٤) لم تأكله النار خاض فيه يده فرحه الذي أعطى حتى يتحول ذلك الفرح من يده الي ذلك الشراب . وأما يزيد أو يغلي بحرارة يده للملحونة لأنه خلق من النار : فاذا شرب الشراب وقد تحول ذلك الفرح من يده في ذلك الشراب دب في هذا الشراب (٥) . وانكمن العقل لتدنس يده ورجاسته . فشربه يحتمل من مرارته وذهاب عقله وتلف ماله وألم جسمه والآفات التي تحل به فانما يحتمل ذلك كله من أجل ذلك الفرح الذي دب فيه حتى (٦) يصد عنه ذكر الله عز وجل وعن الصلاة ، ووجد سيلا الي ان يحرش بينهم ويفرى بعضهم ببعض . فحرم الله عز وجل لئلا يفرح بفرح هو حظ إبليس

فكذلك (٧) أصوات المآزف والملاهي تلك أصوات ممزوجة بالفرح الذي بيده . فلا يفتد المستمع به إلا بمازجه (٨) من الفرح الذي بيد العدو فاذا مزجه وسمع الآدمي حاج فرح منه ودب في جميع جسده فطرب حتى وثب يرقص (٩) كالترد . فحرم الله تعالى هذه المآزف والفرح للمآزج من حظ العدو فيها . وأطلق هذه الأشياء التي لا غنية بالآدمي عنها مما حوله (١٠) غذاء أو معاش ثم حذر أن يليه ذلك الفرح حتى يأثر ويبطر ويتعدي الحدود .

(١) ع : «خلق» — (٢) ط : ناقصة — (٣) ط : «واقتدعه» — (٤) ع : «خط» — (٥) ط : «الشراب» — (٦) ط : ناقصة — (٧) ط : «وكذلك» — (٨) ع : «بمازجه» (٩) ط : «ورقص» — (١٠) ط : ناقصة .

فالكيس (١) حسم باب الفرج عن نفسه من كل حلال أو حرام ومن جميع أعمال البر (٢) مما يجد فيه لنفسه (٣) استرواحاً إليه وبه فرحاً حتى ملأه غماً حتى طهر قلبه ونجست فيه أنوار العزيز المجد الكريم على ما ذكرناه بدءاً .

[معرفة الملائكة ومعرفة الآدميين . العمل والنية]

[خلق الملائكة وخلق الآدميين . سيرة والعمل . الصبر والصدق .
والصدقون والمخطئون . المعرفة بالأبصار والسموع .
الملائكة والآدميون .]

وعزيت الملائكة من الشهوات والجوارح والأحاسيس والأحواف والضرورات فلا ينجحون إلى طعام ولا شراب ولا كسود ولا (١) ين يستكنون (٢) من الحر والبرد فتجت من قن الآدميين وضرورتهم . مكابد العدو . وأظهر خلقهم من التدبير بقوله « كن » وعامهم من ملك الجبروت ومقاومهم في ملك الجلال . وأظهر خلقهم من يده وعامهم من ملك الزلف والرحمة ومقاومنا في ملك المحبة .

فالملائكة مجبورون على حال واحد (٣) لا يشكون ولا يفتنون عبيد والآدميون خدم بين يديه عز وجل يتقبنون (٤) من حال إلى حال وكل أحواف خدمة . وإنما صار هكذا لأن المعرفة من الملائكة على الأبصار والمعرفة من

(١) ظ : « والكيس » — (٢) ظ : « مما يجد فيه لنفسه » — (٣) ظ : « ما يستكنون » — (٤) ظ : « واحدة » — (د) ع : « يتقبنون » .

الآدميين على القلوب . والقلب أمير على الجوارح . فحركات الجوارح كلها من تقليب القلب لمشيئته (١) . مشيئته بمشيئاته ربه عز وجل . فأني جارحة حركها فأنما يحركها (٢) قلبه والقلب شاخص الى الله تعالى وعز بوليه في تلك الحركة فتلك خدمة منه له ، مأخوذة هذه اللفظة من « خدمة الساق » لأن الآدمي اذا قام منتصباً قام على خدمة ساقه فهو بالقلب قائم بين يدي ربه عز وجل ومنه تنادى الحركات الى الجوارح حتى تظهر على الجوارح ، فقيامه ونهوضه الى ربه عز وجل بتلك الحركة هو خدمة وهو (٣) النية التي ينو بها العبد في كل عمل .

- ١٨ -

والنية هو النهوض يقال في اللغة « ناء . ينوء » أي « نهض . ينهض » . فالقلب يرتحل الى الله عز وجل حتى يصل (٤) الى سدة المنتهى ان كان له طريق . فان حبس في الطريق فالتهمة احتبس (٥) ولسوء الأدب منع وانسد الطريق (٦) فعلى أي حال كان فقد نهض من مكانه إن وجد الطريق أو لم يجد ويقول للجارحة التي تعمل ذلك [١٠٧] تحركي بذلك العمل في حركاتك وأتقذي العمل على إثري فأني واقف بالباب ابتغي من ربي عز وجل مرضاه بما تنفذين اليه على إثري . فهذه النية .

ثم الناس في نياتهم على درجات على تفاوت عقولهم . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روى عنه قال : « يعملون (٧) الناس الخير (٨) ويعملون أجورهم على قدر عقولهم » وروى عن الله عز وجل قال : « يا موسى -

(١) ظ : « بمشيئته » - (٢) ظ : « حركها » - (٣) ظ : « وهما » (٤) ب : ع : « بصير » - (٥) ظ : « حبس » - (٦) ع : « واستدال الطريق » - (٧) ظ : ع : « يعملون » - (٨) ح : « الخير » .

أما أجزي الناس على قدر عقولهم » قال له قائل « صف لنا شيئا منه ، كيف تفاوت على قدر العقول » . قال : « مثل رجل دخل المسجد فوجد الصف الأول قد تمام فوقف في الصف الثاني فقد سقط عن درجة الصف الأول . ودرجته أنه جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ابن الله وملائكته يصلون على الصف الأول » وجاء « ان الرحمة تنزل على الامام مائة رحمة فيأخذ (١) من بحاله خلفه ، فله (٢) مثل ما للامام ثم للذي عن يمينه الى منتهى خفة وسبعين ، ثم للذي عن يساره خمسون » فمن دخل المسجد فوقف في الصف اثنائي عن خفلة لم ينل من صلاة الرب عز وجل شيئا ولا من هذه الرحمة التي وصفت . عن ابن عباس « ومن دخل فنوى (٣) أتى لو وجدت مكانا لدخلت في الصف الأول فبهذه النية استوى هو بالصف الأول وله مثل أجورهم لما نوى ، كأنه فيهم » . ثم اذا تمنى أن يدخل في الصف الاول ونوى ذلك وامتنع وتخرج مخافة أن يؤذي مسلما (٤) ويضيق عليه يضاعف (٥) أجره على من في الصف الاول بما اتى أذى المسلم . كذلك روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في شأن النية وفي شأن التقوي عن أبي كبشة الأنصاري أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « احدثكم حديثا (٦) فاحفظوه انما الدنيا أربعة نفر : عبد رزقه الله عز وجل فيها مالا وحلما فهو يتقى ربه عز وجل فيه ويصل رحمه فيه ويعطي الله عز وجل منه حقه فهذا بأفضل المنازل ، وعبد رزقه الله عز وجل حلما ولم يرزقه مالا وهو صادق النية يقول لو أن لي مالا لعملت كما يعمل فلان فأجرها سواء ، وعبد رزقه الله عز وجل مالا ولم يرزقه حلما فهو يتخبط في ماله بغير علم لا (٧) يتقى فيه ربا ولا يصل فيه رحما ولا يعلم (٨) الله فيه حقا فهذا بأخبث (٩) للمنازل ،

(١) ظ : « تأخذ » — (٢) ظ : نافضة — (٣) ع : « لهو » — (٤) ظ : « أو »
 (٥) ظ : « تضاعف » — (٦) ع : « شيئا » — (٧) ظ : « فلا » — (٨) ظ : « يعمل »
 (٩) ظ : « بأخس » .

وعلم برزقه الله عز وجل مالا ولا علمافيه يقول لو أن لي مالا (١) عملت بعمل فلان
فهو بنيتة فوزرهما سواء . حدثنا الفضل بن محمد (٢) نازريق بن الورد الرقي (٣)
نا أسلم بن سالم عن (٤) عبد الغفار بن ميمون عن عبد الملك الجزري قال : « قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم من ترك الصلاة في الصف الأول (٥) مخافة أن
يؤذي مسلما أو يزاحم (٦) أحدا فصلى في الصف الثاني أو الثالث أضعف الله
عز وجل أجره على من صلى (٧) في الصف الأول » . فهذا بعقله نال زيادة الثواب
على الصف الأول ، والآخرة بعقله (٨) وجهه سقط عن هذا الثواب . فهذا
تفسير « أما أجرى الناس على قدر عقولهم » ولذلك قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم فيما روي عنه : « لا يعجبكم اسلام رجل حتى تعلموا ما عقدة عقله »
وحدثنا بذلك أبي رحمه الله (٩) جندل بن والي (١٠) الكوفي نا عبد الله
ابن عمرو (١١) الرقي عن اسحق بن أبي فروة (١٢) عن نافع عن ابن عمر رضي
الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فالمصدقون والمخنطون فلوهم محجوبة بالشبوات فتبهم الهوض بالقلب
إذا نهضوا لم يجدوا متقدما فيقتون حيث بلغوا من الحق (١٣) . وأما الذين فتح
لهم في الغيب فإن قلوبهم نهض إلى العلا حتى يبلغ (١٤) مقامه فهناك يتنهي (١٥)
مرضاة (١٦) ربه تعالى . وحركات الجوارح عند فراغه من العمل تلحقه (١٧)

(١) ب : ع : « مال » — (٢) ع : « الفضلة محمد » (٣) ع : « وروى الرقي » (٤) ع :
« بن » (٥) ط : ناقصة — (٦) ط : « مزاحم » . (٧) ط : ناقصة — (٨) ط : « لعقله » —
(٩) ط : « حدني » — (١٠) ط : « وائى » — (١١) ط : « عمر » — (١٢) ع :
« استجور إلى قدوة » (١٣) ب : ع : « الجوى » — (١٤) ط : « تبلغ » — (١٥) ط : « بيني »
— (١٦) ع : « حرفة » — (١٧) ط : « بلحقه » .

علي أثره فذلك النهوض هونية . والله جود الدين وصدا (١) . إلى الله عز وجل
في مقامه فيرضي (٢) ربه عز وجل ثم يلحقه العمل على الأثر . فالتيات متفاوتة
فهؤلاء خدم .

— ٢٠ —

وأما الملائكة فأنهم يعملون في مصافهم ومقامهم على الأبد (٣) . وإنه اخص جبريل
عليه السلام من بين الملائكة لأنه خادم ربه من وسائطه بين ربه تعالى . فله يخدمه باختلاف
الأحوال . وأهل السماوات في مصافهم . ففلائكة على الخلق مكالمة (٤) ، وهم سخرة
للآدميين . فأنما (٥) إسرأفيل عليه السلام فتأبض الوحي . وؤديه إلى جبريل عليه السلام
وصاحب الصور يدعوه إلى الحشر وقبض الخزاء . وأما جبريل عليه السلام فصاحب
الرسالة وأمام ميكائيل عليه السلام فتأبض أرزاق الآدميين والموكل (٦) بالنظر والنبات
والرياح لمعاش الآدميين . وأما ملك الموت فتأبض أرواحهم . وأما حملة
العرش فهو كاون بالاستغفار للآدميين . وأما الكرويون (٧) وأهل عليين فهو كاون
بالاستغفار والتضرع والبيكاه على أهل الذنوب من الآدميين . روى عن رسول الله صلى
الله عليه وسلم أنه قال : « لما أَسْرَى نِي سَمِعْتُ دَوِيًّا (٨) فقلت ما هذا يا جبريل ؟ — قال :
هذا بيكاه الكرويين على أهل الذنوب من امتك » . وأما أهل السماوات فهو كاون في
صلاتهم (٩) بالاستغفار ووفرة (١٠) التقدير . وآخرون موكلون بالرياح وآخرون
موكلون بالسحاب وآخرون موكلون (١١) بالشمس وموكلون (١٢) بالثمر وموكلون
بالنبات وموكلون بالجبال وموكلون بالبحار وموكلون بالليل والنهار وموكلون بالحر
وموكلون بالبرد وموكلون برزق الخلق صباح كل يوم وموكلون بالتلج وموكلون

(١) ظ : « وصفوا » — (٢) ظ : فرخي : ع : « فترضى » — (٣) ع : « الانصار »
(٤) ظ : « في إلى الخلق وهم سخرة » . (٥) ظ : « وأما » — (٦) ع : « فلوكل » —
(٧) ظ : « الكرويين » — (٨) ع : « روياء » — (٩) ع : « طوتهم » — (١٠) ظ :
« وقارة » — (١١) ع : ناقصة — (١٢) ظ : « وآخرون » .

بأعمالهم حفظة كتبة وموكلون باخراسة - وهم العقبات - وموكلون بالهداية على القلوب وموكلون بالهداية في الاسفار وموكلون بأعام الكلام - فاذا قال الحمد لله قال للملك رب العالمين - واذا قال العبد سبحان الله قالت الملائكة وبمحمده ، وتكتب ذلك لصاحبه - وموكلون بصلاة الآدميين في صفوفهم فكلما زاد رجل زاد معه ملك معه رحمة وموكلون بحجهم وفي مشاهدتهم وموقفهم وموكلون بالزحف (١) للتصرة عند لقاء العدو وموكلون بمنازعتهم للتشيع فهم أمام المنازاة وموكلون بلبلة انقذر وزول الروح والتسليم على الآدميين وموكلون بالاعیاد وحمل الجوائز وموكلون بالثني للآدميين في أعمالهم وموكلون بنزع الأرواح منهم ورفعها الى الله تعالى مع ملك الموت وموكلون بتشيع أرواحهم الى العرض على الله عز وجل في مقام العرض هذا كله في الدنيا ثم اذا قامت القيامة فوكل بمنع الصور وموكل بالبشرى للموحدين وموكل بحمل الكسوة للآدميين وموكلون بالرحمة ليقسموها (٢) عليهم وموكلون بحجاب النار لنادون ربهم عز وجل يسألونه السلامة وموكلون بوزن الأعمال وعرض الدواوين وموكلون بحمل (٣) الأعمال من الخزانة الى الموقف وموكلون بتشيعهم الى الخزانة من (٤) الموقف وموكلون في الخزانة بالخزائن قهارمة وزوارا (٥) وحلة هدايا من رب العالمين . وجبريل صلى الله عليه وسلم موكل في الدنيا (٦) بأداء الوحي وتبليغ الرسالة ويوم القيامة بوزن الأعمال وفي الجنة بالتدءاء من بطانات العرش للزيارة الى رب العالمين . فوجدنا للملائكة كلهم مسخرون (٧) لنا في الدنيا ويوم القيامة وفي الخزانة الى الأبد .

(١) سماع: ترد قبل ذلك عبارة مكررة وهي « وموكلون بالزحف للتصرة وفي مشاهدتهم وموقفهم » وقد حذفناها - (٢) ط : « لتقسمها » - (٣) ط : « عرض » - (٤) ط : « ومن » - (٥) ط : « وزوارا » - (٦) ط : « الدنيا » - (٧) ب مع : « عليهم مسخرون »

[منزلة الملائكة من الادميين]

-٢١-

فَآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَلِيفَةَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي أَرْضِهِ وَالْمَلَائِكَةَ جُنْدَ الْخَلِيفَةِ يَعْمَلُونَ لَهُ وَلَوْلَدِهِ (١) مَا ذَكَرْنَا فِي وَلَدِهِ (١) . فَمَا خَرِبَ وَلَدَهُ عَمْرَهُ الْمَلَائِكَةُ وَمَا أَفَدَ وَلَدَهُ أَصْلَحَتِهِ الْمَلَائِكَةُ ، وَمَا دَنَسَ وَلَدَهُ غَسَلَتِهِ (٢) وَطَهَّرَتِهِ . وَرَوَى لَنَا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو (٣) أَنَّهُ (٤) قَالَ : «قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا رَبَّنَا مَنَّا لِلْقُرْبُونِ وَمَنَّا الصَّافُونَ الْمَسِيحُونَ (٥) وَمَنَّا الْكَرَامُ الْكَاتِبُونَ وَمَنَّا وَمَنَّا (٦) ، جَعَلْتَ الدُّنْيَا لِبَنِي آدَمَ يَا كَلُونَ وَيُشْرُونَ فَاجْعَلْ لَنَا الْآخِرَةَ — قَالَ : لَنْ أَفْعَلَ . فَعَاوَدُوهُ بِمِثْلِ مَقَالَتِهِمْ فَقَالَ لَنْ أَفْعَلَ ، ثُمَّ عَاوَدُوهُ فِي الثَّالِثَةِ . فَقَالَ لَنْ أَفْعَلَ ، لَنْ أَجْعَلَ صَالِحَ ذُرِّيَةٍ مِنْ خَلَقْتَ يَبْدَى كُنْ قُلْتَ لَهُ «كُنْ» فَكَانَ . هُمْ عِبَادِي لِلْقُرْبُونِ» . فَلِلْمَلَائِكَةِ عِبَادٌ مُجْبُورُونَ وَمَكْرُمُونَ بِالْعِبَادَةِ الطَّاهِرَةِ . وَالْأَدَمِيُّونَ خُدَمٌ (٧) وَتِجَارٌ مُعَامَلُونَ . فَلِلْعَرَفَةِ رَهْوسُ أَمْوَالِهِمُ وَالْحَرَكَاتُ تِجَارَاتُهُمْ (٨) وَمَرْضَاةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَرْيَاحُهُمْ . قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : «وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبَكُمْ وَمُتَوَاكِمٌ» . تَقَلَّبُوا فِي مَرْضَاتِهِ وَثَبُّوا (٩) فِي جَنَانِهِ تَحْتَ عَرْشِهِ فِي جَوَارِهِ فَأَكْرَمَ اللَّهُ تَعَالَى هَذَا الْمُؤْمِنَ بِمَعْرِفَتِهِ فَأَحْرَزَهُ فِي ذِمَّتِهِ وَحَرَّمَ عَرْضَهُ وَدَمَهُ وَمَالَهُ وَعَظْمَ حَرَمَتِهِ . فَأَعْلَمَهُمُ بِاللَّهِ أَعْظَمَهُمُ حَرَمَةً وَأَقْرَبَهُمْ وَسِيلَةً وَأَكْرَمَهُمْ عَلَيْهِ .

فَقَتَلَ الْعَالَمَ (١٠) بِهِ كَمِثْلِ رَجُلٍ نَظَرَ إِلَى شَخْصٍ رَجُلٍ حَتَّى عَرَفَهُ بِالْوَجْهِ فَهَبَّ سَاكِنَ الْقَلْبِ حَتَّى إِذَا عَرَفَهُ بِخَصْلَةٍ مِنْ خِصَالِ الشَّرَفِ وَجَدَ قَلْبَهُ قَدْ تَغَيَّرَ (١١)

(١) ظ : «فِي ذِكْرِنَا فِي وَلَدِهِ» — (٢) ع : «غَسَلَتِهِ الْمَلَائِكَةُ» (٣) ظ : «عَمْرَهُ» (٤) ع : «دَرْبِهِ» — (٥) ظ : «وَالْمَسِيحُونَ» — (٦) ع : «مَنَّا» مَرَّةً وَاحِدَةً لَفْظًا — (٧) ع : «خُدَامٌ» . — (٨) ظ : «نِجَارَتُهُمْ» — (٩) ظ : «وَانْتَوَرَا» — (١٠) ب : ع : «الْعَالَمُ» (١١) ع : «تَبَيَّنَ» .

له الى التعظيم والالجلال . فان كان قد جمعت هذه الخصال في رجل واحد مما وصف الله عز وجل بها نفسه من الجود والغني والرافقة والرحمة والسماحة والكرم والمعرفة بالامور والقوة (١) والتدبير ومحاسن (٢) الاخلاق عظم شأن الرجل عندك حتى تهيم (٣) في ذكره وتوصافه .

فمن كشف له الغطاء حتي (٤) عرف ربه تعالى بأسمائه الحسني وأمثاله (٥) العليا كان أسبى (٦) لقلبه وألمج لذكوره (٧) .

[تأديب النفس]

- ٢٢ -

وابن ابن آدم مطبوع على سبعة وهي : الغفلة والشك والشرك والرهبة والرهبة والشهوة والغضب . فهذه سبعة أخلاق . فإذا جاءه نور الهداية حتى عرف ربه عز وجل ووحد (٨) ذهبت الغفلة وذهب (٩) الشك والشرك (٩) فهو يعلم ربه يقيناً وينفى عنه الشرك [١٠٨] وزال (١٠) الشك عنه . ثم لما جاءت الشهوة فأظلم الصدر بنخانها وفور أنها ذهب ضوء عمله واستنارته وبحير في أمر ربه عز وجل كالشاك وظهر شرك الأسباب فكما ازداد العبد معرفة وعلماً بربه عز وجل واستنار قلبه وصدره انتفض (١١) من الغفلة ومن هذه الخصال السبع كلها حتي يمتلي صدره من عظمة الله عز وجل وجلاله فعندما كشف الغطاء وصار يقيناً وزايله شرك الأسباب وماتت الشهوة وذهب الغضب وذهبت الرغبة والرهبة فلا يرغب الا الى الله عز وجل ولا يرهب الا منه ولا يفضب الا في ذات الله

(١) ع : «القوة» — (٢) ع : «محاسن» — (٣) ع : «تهيم» — (٤) ظ : ناقصة
(٥) ظ : «أمثاله» — (٦) ظ : «أنا» — (٧) ظ : «يذكره» . (٨) ظ : «وحد»
(٩) ظ : «الشك والشك» — (١٠) ب، ع : «زوال» — (١١) ظ، ع : «انتفض»

عز وجل والله ولا يشتغل بشهوة (١) الا بذكر الله عز وجل .
قال له قائل : « صف لنا من رياضة النفس شيئا » . قال : ان النفس اذا
اعتادت اللذة والشهوة والعمل بالهوى أقبلت علي قطعها عن العادة في كل شيء ،
فكلما اشتد عليها فطم شيء فأقبل قبل (٢) ذلك الشيء حتي تقطعها عنه حتي
يصير قلبك حرا يألف مع الله عز وجل يره ولطفه . فقد رأيت البازي كيف
يلقى (٣) في البيت وتحاط عيناه (٤) حتي ينقطع (٥) عن الطيران ويربي بالبحر
ويرفق (٦) به حتي يأنس لصاحبه ويألفه الفا (٧) اذا دعاه فسمع صوته أجابه .
فكذلك النفس انما تحبب (٨) ربها عز وجل فيما أمرها بعد فطامها عن
عادات الأمور التي اشتت ولنت . فاذا فطمها الزمها الدعاء وثناء الرب عز
وجل ومدائحهم ونحوه حتي تأنس بذلك وتألف الذكر حتي ينكشف الغطاء
بعد ذلك فيألف به عز وجل . وكذلك تجد الصبي قد ألف ثدي أمه حتي
لا يكاد يصبر عنه ساعة فاذا فطمته اشتد على الصبي وبكى وقلق فاذا دام القطم (٩)
نسيه وأقبل على الطعام والشراب فكلما وجد حلاوة الأطعمة والأشربة هجر
الثدي وعاف ذلك اللبن . وكذلك تجد الدابة تؤخذ من الدواب السائمة (١٠)
لتؤدب وتعود الركوب (١١) في الابتداء تنفر (١٢) عن اللجام والسرجه فتشكل
حتى تسرج ، وتلجم حتى تعتاد ، وتعلم السير حتي تصير أذنها الى العنان وقلبي
الى إشارات الراكب بذلك العنان فاذا بلغ بها القطرة وثبت وثبة ، ولا يدع
تجوز فتعتاد ذلك — فليس في كل مكان يوجد قطرة — فيعودها الوثب ،
ويسير بها (١٣) في جلبه الصناعين مثل (١٤) الحدادين والنجارين (١٥) فاذا تمرت

(١) ع : « شهوة » — (٢) ط : ناقصة . — (٣) ط : « يأتي » — (٤) ط :
« عينيه » — (٥) ع : « ينقطع » — (٦) ع : « يرمى » — (٧) ط : نأصه — (٨) ط :
« تحبب » — (٩) ط : « العظم » ب ، ع : « القطم » — (١٠) ط : « السائمة » —
(١١) ط : « للركوب » — (١٢) ع : « الامتدا بمنى » — (١٣) ط : « يسيرها » —
(١٤) ع : « المصدات والبحارت » .

من تلك الاصوات أو تركت سيرها أنبها حتى لا تنفر ولا تحجب^(١١) حتى
تصير أدبية سيورة .

فكذلك الآدمي يؤدب كما تؤدب هذه الطيور والذوابع بالفطيم عن
عاداتها ، وكل ما تجد النفس لذته في وقت تفرح بذلك الشيء . فإذا فرحت به
فقد تدنس بذلك التفرح فيصير غشاءً عليه ، حجاباً له^(١٢) عن ذلك التفرح
فكان أهل الصدق في هذا الطريق يلزمون هذا الباب الذي وصفت فكل شيء
يفرح تقوسهم من وجود لذة ذلك الشيء . كأننا ما كان من طعام أو شراب أو
لباس أو أهل أو ولد أو أخ أو وئس أو أصحاب^(١٣) أو أمكنة^(١٤) أو عرض
من عروض الدنيا . فكانوا يتوقون التفرح لذلك فيأخذون من ذلك الشيء الذي
لا بدلهم منه على الضرورة ثم يهربون من لذته خوفاً على النفس أن تفرح بذلك .
فإن دام على ذلك صاحبه فذلك تقوى الباطن . وأما تقوى الظاهر فهو حفظ
الجوارح مع الخلق والملائكة . فإذا فعل ذلك فأدي^(١٥) الفرائض بمواقيتها^(١٦)
وحدودها واستعان على النفس برؤية الموتى والمقابر وأهل السجون والمواضع^(١٧)
التي فيها النيران العظيمة من الآتون ومذابج جواهر الزجاج^(١٨) . فإن في ذلك
فعال للنفس . وأورثه فعله بنفسه الغم^(١٩) . ومن الغم الهم والأحزان^(٢٠) . ولذلك قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ماعبد الله عز وجل بمثل طول الأحزان »

« ثم كتاب الرياضة »

(١) ط : « تحجب » — (٢) ط : ناقصة — (٣) ط : « صاحب » — (٤) ط :
« أمكنة » — (٥) ع : « غلاشي » — (٦) ط : « لمواقيتها » — (٧) ط : « المواضع » —
(٨) ط : « الزجاج » — (٩) ط : « ومن الغم الأحزان »

حول تأثير العربية والفارسية في تكوين اللغة التركية

يوجد في الاتصالات الفكرية والحسية نوع من السيلية، فتعدهذه الاتصالات كأنها خاضعة لقوانين السيلية، ومن الشهود أن الماء المنجس في مستوى واطيء اذا وجد منفذا يتدفق صاعدا الى جهة الفوق ليصل الى سطح يوازي الماء الذي هو في مستوى اعلى لقانون توازن المياه، وكذلك التناسب الحسى والفكرى يبدي حركة مريعة نحو التوازن كأنه خاضع لقانون التوازن، ولذا لا يكون التوازن في ساحة الحس والخيال مقيدا بشرط المساواة في قدرة الابداع. تقوم انجب فنانين يدعون تحفا فنية لا تسامي اذا قارناه بقوم لا يستطيع صناعه أن يوجدوا بدائع فنية وجدنا أرباب الصناعات من الفريق الثاني في مستوى واحد مع المبدعين الاصليين من ذلك الفريق في الشعور بمظمة تلك التحف والاحساس بها بكل تقدير واكبار، ولولا صعود شعور هؤلاء الى مستوى شعور هؤلاء لما شعروا بقدر تلك التحف ولا أعجبوا بتلك البدائع، بل غير الفنانين ايضا قد يبديون كمال التقدير ونهاية الاعجاب تجاه بدائع الصنعة، وهذا الاعجاب منهم يفيدنا تعالى نظرهم لذلك الاثر من تحت الى فوق في مستوى حس مبدعه وخيال صانعه.

والانراك الذين نرحوا من ديار آسيا البعيدة الى أناضول وأسسوا الدولة العثمانية كانوا متأثرين فكرا وحسا منذ عصور بدينيات أمم ساكنهم اجداد هؤلاء من قبل في ايران وبلاد العرب حتي ان مؤسس الدولة التركية التي خلفت الدولة السامانية في (غزنة) كان بحيث يلذه الاصغاء في قصره الى الاشعار الفارسية التي

نظما شعراء الترك ، ويقدم الفردوسى اليه الشاهنامه باللغة الفارسية ويؤلف
 العتي تاريخه المعروف باسمه وهو آية فى الادب العربى فيظهر من ذلك مستوى
 هذا المؤسس فى اللغتين مع كونه تركى الأرومة ، وكذلك مولانا جلال الدين
 ذلك المتصوف الكبير فى بلاد الترك كتب كتاب (الثنوى) باللغة الفارسية وخاطب
 به اهل بلاده فى وسط أناضول ، ولا يدل هذا على ان الشاعر ترك لأن أمته
 من غير ما سبب رغبة فى الافادة عن افكاره واحساساته بلغة أمة سوى أمته على
 خلاف ما فهم كثيرون. بل يدل هذا على امكان الرقى فى الحال بأداة قانون
 التوازن بدون انتظار الى اقضاء مدة تمكن من رقى لغتهم الى مستوى المدنية
 الفكرية والادبية التى لا مسوها مع خضوع التكامل فى اللسان بعوامل بطيئة
 ولو ملكوا فى لغتهم من مواد البيان قدر ما هو موجود فى الصنعة الأدبية
 الايرانية من وجوه الافادة لما ترددوا فى الكتابة باللغة التركية بل كان إذ ذلك
 الشاهنامه الفارسية تكتب باللغة التركية على ان تكون شاهنامه الأتراك كما
 كتب (سلطان ولد) - نجل مولانا جلال الدين - باللغة التركية اشعاره التى
 خاطب بها عوام الناس ، ولو كان مولانا جلال الدين يملك سليقة تركية تمكنه
 من اتخاذها واسطة لتبليغ افكاره المجردة العالية لكتب باللغة التركية كتب (الثنوى)
 الذى خاطب به الخاصة ، ولسان الترك الذى بدىء فى استعماله فى الدولتين
 السلجوقية والعثمانية باكمال قصه بكلمات عربية وفارسية حينا كان يسير فى طريق
 اعتلائه الى مستوى ان يكون لسان العلم والأدب - كما هو عليه اليوم -
 احتفظ بلغته ولم يستبدلها بالعربية أو الفارسية ليدخل تحت سلطان اللغتين
 وسيطرتهما ، بل لغة الترك التى هى غير كافية للتكلم بلسان العلم والتصوف الناطق
 بالافكار العالية المجردة الآخذة بقدرة اعتلائها عن شواهد العلم والتصوف ضمت
 الى نفسها كلمات من لغة الامتين الشقيقتين فى الدين حتى اصبح اللسان العثماني
 كامل الافادة فى العلم والادب بفضل هذه الزيادة وبما ضم اليه كل من نواحي

الشعراء والادباء والعلماء مدى الدهور من بدائع الصنعة وروائع الفن وبصقلهم المتواصل لهذا اللسان اللطيف علي رغم نزاعهم من يدعى : ان الكلمات المشعرة للأفكار العالية نبذت لأسباب غير قابلة للايضاح . لان هذا العمل ليس أثر أمم استولت على اللغة التركية بل ذلك وليد ثقافة الاتراك العثمانيين أنفسهم ونتيجة مدنيتهم انفسهم حتي اصبحت اللسان العثماني كلسان اصلي لهم بعد استيلائهم علي أمم شاطروهم في الفكر والحس وطاولوهم في الشعور والاحساس فالكلمات العربية والفارسية في هذا اللسان قد اندمجت في تصريف صيغ الافعال التركية وانعجنت في عجين اللسان المبتكر بدهاء الاسلوب العثماني بأيدي شعراء وأدباء مبدعين حتى فقدت تلك الكلمات اصحابها بتحويل طبائعها الاشتقاقية الى قواعد الالتصاق في اللغة التركية فصارت اصلا للسان الترك الادبي والعلمي الحديث ، وليس هذا المتطور مما انفردت به اللغة التركية في تاريخ اللسان واللغات ، فدونت في الغرب تحول لسان الغول بعد استيلاء (روما) عليهم الي لغة فرانسه الحالية التي عليها مسحة لغة اللاتين ولان فرانسه اليوم يتما تراه يشبه لسان عهد الانهزام الابدي الذي ارغم الفاتحون المغلوبين على قبوله لاجل مجد اللسان العثماني كذلك بل هو من غنائم الفتح التي اغتنمها الاتراك الفاتحون من المغلوبين حتى ان عرش المشاه اسماعيل في المتحف الهماوني — في الآستانة — يدخل في عداد مفاخر الامة ولا يعد مفخرة لاجنبي ، فكيف يعقل ان تطرده الكلمات العربية والفارسية من سلبقتنا ومن حجيرات ادمقتنا بتهوس صمجي بدعوى أن زينات الكلمات وتراكيبها (مينياتور) إيراني ونحوت عربية ؟ وهذا يكون اشبه باخراج السجاجيد العجمية الفاخرة والاقشة الحريرية الشامية من ريش الغرف ونبذها باعتبار أنها عجمية أو شامية ، والایرانيون سبقونا في الاستعانة بالعربية في ساحة التفكير وابداء ما في الضمير وقد احتذينا في ذلك ، ولا يصح أن نورد كتاب الشاهنامه المكتوبة بالكلمات الفارسية المحضة كحجة مضادة لنا من

حيث أن الكلمات العربية أدخلت في الفارسية رغم وجود مرادفاتهما في اللغة الفارسية لأن الشاهنامة أثر ملؤه الحكايات الأسطورية وليست بكتاب على يضيق نطاق اللغة عن إفادة ما احتواه من المعاني العلمية علي أن سبق من ناطقها التزام الفارسي السحت في نظمها ، وكذلك لا يصح أن يقال أن ابن سينا التركي والفارابي التركي ألفا مؤلفاتهما باللغة العربية أو الفارسية ودروس العلوم العقلية بالفتن بدون أن يريا حاجة إلى التزام تعصب قومي بالنظر إلى أن العلوم العقلية التي كانوا يدرسونها أمت الدنيا بواسطة العرب وأهل فارس .

إن (آناطول فرانس) من اكابر ادياء اللغة الفرنسية المعروفة للغة اللاتينية يستطرد عند تحدته عن اشعار (لافونتين) في كتابه المسمى (العشرية اللاتينية) إلى الحديث عن اللغة الفرنسية وادبياتها فيصفها بأنها تراث مقدس منوار من الماضي منقول إلى الاخلاف بيد اهتمام الأسلاف لغنيين وتميز : يجب يدرك هذا اللسان وشعره وأدبه بكل مخزونات البديعة في آذان اطفال فرنسا وهم في حجبور امهاتهم . وهذا الاديب المرتبط بوطنه وأمه برابط قوي من الحب البالغ وامثاله من ادياء قومه لم يسمع منهم - ولن يسمع - أن حاولوا يدعوى احياء لسان الغول القديم ابعاد اللاتينية عن الفرنسية بل ابعده الفرنسية من فرنسا نظرا إلى وجود كلمات لاتينية في اللسان الفرنسي ، واشتهر از منباء واللسان الفرنسي لغة فرنسا الذين هم اليوم أخلاف (جولوا) وكذلك اللسان العثماني لسان الأتراك الذين هم اليوم اخلاف الاويغور والاوزوزة ، وكل من (لافونتين) عنده جمعوا هذا التراث للقدس الموروث من للاضي فلا تكون من حق أحد محاولة فكربط هذا اللسان البديع وتبديد كلماته بادعاء أن فيه كلمات اجنبية وحيث جاء الاسلام إلينا بطريق إيران اتصلت الأتراك بالمدينة الاسلامية بطريق الثقافة الإيرانية وكان المبدعون من العثمانيين خاصة وقعوا في تكاملهم الأدبي تحت تأثير آثار

الابرائين اكثر من وقوعهم تحت تأثير آثار العرب، وليس معنى هذا التأثير التقايد، ونحن اذا قارنا شعراء العثمانيين بشعراء العرب مثلاً فالشاعر المشهور (نافي) التركي المعروف بشعاره الحكيمية نجده شاعراً كبيراً يشبه (المعري) وهو قد قرأ الدواوين العربية طبعاً لكنه لم يقلد شعراء العرب في اشعاره المشهورة التي خطها براعته بل كان استاذاً فذاً في مدرسة حكمة مستقلة، وأياته الآتية المشهورة له في (نعت النبي) عليه السلام تعطينا فكرة عن مجال تفكير هذا الشاعر واسلوبه وتلك الأبيات هي هذه :

ايه بازار جهان برآلور كوزله نظر كي مي هم دسترواج و كي مي هم كرد كساد
(يعني : انظر الي سوق العالم بعين الاعتبار فبعضهم بيده بضاعة رائجة وبعضهم عرضة التأخر بسبب الكساد)

نه بو ترتيب حكم جمله بني آدم ايكن برسي خانه يور، بيرسي اولمش ايرعاد
(ماهو السبب في ترتيب هذا الحكم مع ان الجميع سواسية في أنهم بنو آدم احدهم غني يستبني بيتاً والآخر فقير يشغل عاملاً في البذخ.)

بوفنا سير كهنده عجباً وارمى اوله
صيدايجون كنديسي صيداوند يغن آكلار صيد
(وهل يوجد في هذا العالم البالي السائر الى الفناء صيداً يشعر بأنه حديد في سبيل اقتناض الصيد ؟)

اي ايدن جامه اطلسله تفاخر كوزك آج سكا اطلس كوز و نوربك حقير فرصاد
(يا من يتفاخر باليس الاطلس افتح عينيك يترامى لك ورق الفرساد الحقير
أطلسا !)

عارف اول دست کشت اوله عطای جرخه
نه عطا ایلر ایه آخر ایدر استرداد
(کن عارفا ولا تمد يدك الي عطاء الزمان فان كل ما اعطاه يسترده في الآخر)

کما خلق اولدی جهان سندن آلور فیضی به
احمد آباده کلور امتعه خیر آباد
(خلق لك نعم لم والعالم يستفيض منك ايضا فها هي تأتي امتعة (خير اباد) الى
(احمد آباد) بلدان في بلاد العجم يشير الى ان خيرات العالم التي هي بسبب
فخر العالم عيه السلام ترد الى العالم الذي عمر بسبب احمد المصطفى فالخيرات
منه واليه ا

سنة اوصافكي عدا تمت ايجوندري يوقسه
وقادار اولمز ایدی نامتاهی اعداد
(لم تكن الاعداد غير متناهية الى هذا الحد لولا ان المقصود بذلك هو تعداد
اوصافك)

رهز نه راست كان رهزروه دوندم آخر
ايلدي تهن وهوا قد حیاتم برباد
(صرت كسائن طريق صدقه قاطعه وقد جعل النفس والهوى تمدحياتي يذهب
ادراج الرياح)

آفتابك ايشيدر غوره بي انكور ايتيمك
سيثام حسنت اولور ايدرسه ك امداد
(من عمل الشمس جعل ما في الكرامة ضبا فاذا امددت تصيح سيثاتي حسنت)

بندہ کی جرات مدحک او سپیندر کیم
 کلدی نطق ایندی حضور کدہ نباتات و جود
 (واجزائی علی مدیحک نسی، من أن النباتات والجمادات أمت واخذت تنطق
 فی حضورک)

وعداً أدبیات اکابر البدعین من شعرائه من أمثال : (فضولی و یقی و قلی
 و ذبی و ندیم) غیر قومیة بعدہا ادبیات السرایت و التصور الخلد فیہا طراز ادبیات
 العجم او بعدہ ادبیات الأمة بمعنی اہا، تترجم بالاحسن العدة لمعشر الاسلام
 المشتركة بین العرب و الفرس و التترک و غیرہا بلغة ملحومة من تلك اللغات یا بعدہا
 هكذا عن ان تكون أدیت ترکیة صرفة ، فالتمدی فی کتب تاریخ ادبیات
 التترک الحديثة لتقسیم الادبیات هكذا تحت عنوان مصطنعة مما یدل علی أن
 مدون تلك الکتاب غاب عنهم علم بحری الادب التترکی علی موازاة جریان
 التاريخ ، والدور الذی یسمونه (دور ادبیات الأمة) -- فی صدد التعریض
 للإسلام -- هو دور المدخر حق و لو لم تكن الاقوان مساهمین كانوا یغنون بتدک
 الفخر ایضا لکن کان اذ ذاک (قعی) الذی قل فی (کنج عثمان) - السلطان
 عثمان الثانی الشاب -- :

آفرین ایروز کارک شہسوار صفدری
 عرشہ آص شیمدن کرو تیغ ثریا جوهری
 (مرحی لك یا فارس الدهر الفذ المحترق لصفوف الاعداء علق علی العرش سیفک
 المصنوع من جوهر الثریا)
 تیغک نوله یمین ایلرسه روح مرتضی
 برغز ایندک که حوشنود ایلدک بیغبری

(ماذا على روح المرتضى لو حلف بسيفك الباتر فقد غزوت غزوة أرضيت بها الرسول وهش لها عليه السلام) لا يتأخر عن إقامة اسم مقدس — عندهم — بدل اسم النبي عليه السلام .

ويوجد بين أدباء فرنسة دينيون امثال (شاثوبريان) و (لامارتين) حتي ان (فولتر) الذي شهر باللا دينية لم يأب ان يظهر غاية الخضوع للبابا والتفاني في اجلاله كما هو شأن الدينين من النصارى حيث قال في أثر قدمه اليه : (مقبلا لقدميك) مع ان الخضوع الى هذه الدرجة مما تأباه عزة النفس والكرامة الانسانية ولم تقسم أدبيات فرنسة الى مثل ادبيات الأمة مع وجود آثار شعراء دينين في ادبيهم تترجم عن الاحساسات النصرانية التي لا تنحصر في داخل الحدود الفرنسية بل تفيض وتشمل . وتنقسم الطبيعية للأدبيات حو تقسيمها الى اقسام الحماة والفخر والنسب والمديح والهجاء والثناء واي قيمة تكون لتلك التقسيمات المصطنعة بعد تنوع الادبيات الى انواعها الطبيعية ؟ وادبياتنا التي يراد عنها غير قومية بتقسيمها الى ادبيات الديوان وادبيات السراى وادبيات الأمة ، اغلبها أدبيات دور تعدد الأمة مدار فخرها بحق ، ويوم كانت جيوشنا تجول في عواصم اوروبا ما كانت الأمة تقاسى نكبات كانت تقاسيها في عصر الكتاتين المشهورين (شناسي) و (كمال) الذي يعده حدثاء المورخين : الدور القومي للأدبيات ، فكيف يتصور ان يكتب الشعراء قبل ايام النكبات اشعارا عن النكبات والدفاع عن حقوق الأمة السياسية للهزيمة ، ودور (شناسي) و (كمال) لس بدور دخولنا في دائرة مدينة اوروبا بأدبياتنا ايضا كما يزعم بعضهم بل دور (شناسي) و (كمال) هو دور أخذ فيه المبدعون من شعرائنا يفكرون في ساحة حقوق المجتمع وواجباته بعد انقضاء زمن وهي الفتوح لثائد الفخر فأيام شناسي وكمال أيام سيادة حالة الدفاع في الدولة ، بدأ فيها الأدباء يقتبسون من أدبيات اوروبا السياسية دساتير

اجتماعية لم تكن تجري على الألسن في عهد مدينتي العرب والفرس ، وكانت الاقتباس من الغربيين مستقرا في هذه الفترة المعينة الحدود حتي بقى لساننا واديئاتنا الى الزمن الاخير في غاية البعد عن ان يسها تيار التغيير والتحرير المتسلطين من الغرب على كل شيء في الشرق حتي المقدسات ، بفضل ذلك الوقار القومي المغروس في النفوس من ترثه النفاذ المتوارثة ، بل لم يحصل أي تحول في شعرنا مما يحق ان يعد اوردية غير شك سرته ذات اربعة عشر مصراعا والمكلمات الافرنجية التي لا يسدغ السمع في الشرا لا بمعونة لم يقع استعمالها في شعر جدى ولا مرة واحدة رغم كل ما وقع من دحوه التفريح في حيثتنا الاجتماعية .

وشاعرنا العراقي المشهور (فضولى) الذي لم عن حرقه عشق بالغ كابن الفارض بمصر فيد احساساته في شعره بيبين عيني في الغالب قبل يمكن لنا ان نطرد هذا الشاعر من زمرة شعرائه القوميين وسبلة أنه يوجد في اشعاره طراز العرب والفرس في المضامين والاستعارات فضلا عن التراكيب والعبارات او بسبب انه ينظم اشعارا في العشق المحض مع انه يقول :

نسبح من اهدى النفوس الى المني وفقد اشكال الأمور وحلها
قدس من لولا اعانة فضله لم علم الاسماء آدم كلها

و :

اثني على خير الأنام محمد كشف الدجى بضياء بدر جماله
بثناؤه رفعت مدارج قدرنا خصت نحيطنا عليه وآله

و :

وصلك بكاحيات وبربر ، فرفتك ممت

سبحان خالق خلق الموت والحياة

[يعني : وصالك يعطيني الحياة وفرقتك المماتة]

حول خاك كربلاست فضولى ، مقام من
نظمم بر كج كه رسد حرمتش رواست
در نيست . سيم نيست ، كهر نيست ، لعل نيست .
خاكست شعر بنده ، ولى ' خاك كربلاست

ومعنى اليتيم فى اللغة الفارسية : حيث كان تراب (كربلاء) مقامى يفضولى
يستحق نظمي الاحترام أينما وصل ، ليس نظمي درا ولا فضا ولا جوهرأ ولا
تقيد بل شعر هذا العبد تراب ولكنه تراب كربلاء .

و شعوره التي كتب هذا الشاعر هكذا بالعربية والفارسية أو من نوع الملعع
بالعربية والتركية داخلة في عداد تراث الأدب ، و (فضولى) هذا بديوانه القيم
هو شعره الكبير الوحيد في اللهجة الآذرية التركية .

ابراهيم صبرى

بعض منتخبات من كتاب الامام بالاعلام فيما جرت به الاحكام والامور المقضية في واقعة الاسكندرية (سنة ٧٦٧ هـ)

تأليف النويري الاسكندري

الثلاثة المنتخبات الاتي ذكرها فيها بعد استخرجت من
الاوراق رقم ٢٥ ب الى ٢٦ ا و ٧٦ ب الى ٨٠ ا و ٩٤ ا الى
٩٨ ب (مخطوط مكتبة برلين) وقد نلت عليها في القسم الارمني
السابق من هذا البحث.

١

ذكر المنامات التي رايت قبل واقعة الاسكندرية ، قال المؤلف غفر الله
له ولوالديه وللافرين اليه ولجميع المسلمين ، اخبرني الشيخ الصالح أبو عبد الله
محمد بن صلاح التاجر المصري قال كنت بالاسكندرية قبل الواقعة بايام قلائل
نرايت في المنام ان رحبة الجامع الغربي (١) صارت بحرا طافا واذا بالسما قد
مطرت جرا يتوقد فشرب البحر ذلك البحر بكماله وصار البحر على حاله ينقد
ثم مطرت السماء بعد ذلك ماء فاطفي ذلك البحر فصار فخا اسودا قال فددت يدي
الى فخة لا تناولها فالتقت فلتنين الواحدة كبيرة والاخرى صغيرة فتناولت
الصغيرة فلولا القيتها سريعا احترقت اصابعي من شدة حرارتها قال فاستيقظت

(١) انظر القسم الارمني

من نومي فزعا مما رأيت فجرى بعد ذلك وقعة الاسكندرية ، واخبرني الشيخ الصالح أبو عبد الله محمد المؤدب قال رأيت في المنام قبل وقعة الاسكندرية بايام قلائل كان سباتي (١) احترقتا بالنار فغير المنام المذكور بان الاسلام يحدث فيه حدثا فحدث أمر القبرسي بالاسكندرية ، واخبرني الشيخ الصالح أبو عبد الله محمد بن احمد التاجر السفار قال كنت في الاسكندرية فرأيت في المنام قبل الوقعة بمخمسة عشر يوما كافي في قصر عظيم علي ساحل البحر الملح وجماعة كثيرة من الرجال والنساء خرج القصر وكانهم احسوا بعناء فصارت النساء يلطبن خدودهن ويقنن واه واه قال قفقت لمن قولوا يا رسول الله نحن في حبسك نحن في جبرتك ثم قال ورأيت طائفة من الفرنج مسلسلين داخلين الاسكندرية وفيهم جنس لهم اذنان كاذن القروذ قال فانتبعت من نومي مذعولا مما رأيت فجرى بعد ذلك وقعة الاسكندرية ، واخبرني علي بن راشد الحجازي التميمي بالاسكندرية والمدير يرفع التجار علي الدواوين يكتبون عليها خطوطهم قال رأيت في المنام قبل الوقعة بنصف شهر نسوة طوال القامات عليهن اليزر البيض فسألت احدهن عنهن فقالت لهن اولاد الانبياء والشهداء والصالحين ضمنهن أبائهن خارجين بهن من الاسكندرية فقالت ما سبب ذلك قالت ان الاسكندرية مسخوطة عليها قال فضربت بيدي الواحدة علي الاخرى واذا انا اسمع حس رجال ولا اراهم ثم ان النسوة اخفين عني وكن بشارع (٢) قاعة رماة القرافة ومدرسة البليسي قال فانتبعت من نومي مرعوبا فجرى بعد ذلك وقعة الاسكندرية ، واخبرني الشيخ الصالح ربحاني الحبشي وذكر ان له سبع غزوات في الفرنج قال بينما انا نائم بدمشق في شهر رمضان سنة ست وستين وسبع مائة واذا بقاتل يقول قم وامض الي الاسكندرية لتصلي على اهلها قال فانتبعت من نومي واذا متعجب

من ذلك فافوت منها الى القاهرة فاقت بها أياما وتوجهت الى الاسكندرية في اول المحرم سنة سبع وستين وسبع مائة فلما علمت ان الفرنج طغروا بالاسكندرية اختلطت بهم لمعرفة بلغتهم بعد ان تزيت بزيمهم وتوصلت الى الملك القبرسي فصرت مع جملة خدمه فاخترت احد مهاميزه الذهب فصار عندي الى ان بعته بثلمية درهما فرددته ثم قال وكانت الفرنج تستخدم رجال المسلمين في النهب يحملونه لهم وقالوا لهم نعتكم بعد ذلك فلما فرغ النهب اخذوا سبعين رجلا منهم وربطوهم بالسلاسل في صدى مركب كان ملقى بالجزيرة واطلقوا فيهم النار فاحترقوا وماتوا شهداء رحمة الله عليهم .

- ٢ -

ذكر منام ريوك والد ريير قبل مولد ريير صاحب قبرس لعنهما الله تعالى وصفة فتح نصحابة رضي الله عنهم للاسكندرية ودمياط وغير ذلك من الواردات المستطردات ، حدثني ابو محمد عبد الله بن محمد الاسكندري عن بعض اسارى المسلمين قل كنت فيما مضى من الزمان اسيرا بقبرس وطالت مدني في الاسر بها فجلست يوما الى جانب قيس فسالني عن مصر واخبارها فشرعت اذكر له كثرة جيوشه وعددها وعظم مملكته ومنعتها وكثرة خبراها وبركتها فقتل القيس حدثني الملك ريوك صاحب هذه الجزيرة انه رأى في منامه قايلا يقول له يخرج من صلبك ولد يظفر بالاسكندرية قال الاسير فتمعجت من قول القيس وقلت له هذا المنام اضغاث احلام ان صاحب قبرس لا تقدر على الاسكندرية ابدا خصانها ومنعتها وكثرة اهلها واسلحتها فقال القيس هكذا حدثني به الملك وانا ايضا متعجب من ذلك وقد يكون هذا المنام كما ذكرت اضغاث احلام ثم ضرب الدهر غرباته وصبح منام ريوك المذكور وظفر ريير بها في اواخر المحرم سنة سبع وستين وسبع مائة فان كان ريير للمعون فعل بالاسكندرية

ما فعل فقد فعلت المسلمون بنصارى الروم قديماً أكثر ما فعل القبرسي اللص بها لأن المسلمين ملكوها واقاموا بها للثين من السنين والقبرسي دخلها لصا وخرج منها هرباً .

- ٣ -

ذكر السبب الذي حمل صاحب قبرس على غزوة الاسكندرية وغير ذلك من الواردات المستطردات ، وذلك ان الله سبحانه اذا اراد أمراً وقدر تقديراً قدم على ذلك القدر المقضى اسباباً يتوصل الى ذلك المحتوم المقذور الا ترى ان الله سبحانه لما قضى ان الافرنج تظفر بالاسكندرية كيف قدم على ذلك المقدر المقضى اسباباً سبعة ، السبب الأول منعة السلطان الصالح ، ان السلطان الصالح (١) بن الملك الناصر محمد بن الملك للنصور (٢) قلاون سلطان الديار المصرية والشامية وغيرها منع دواوين النصارى في سنة خمس وخمسين وسبع مائة من الديونة وان احداً منهم لا يكتب بدوان الا ان اسم ومن بقي على نصرانية يلبس حشن الثياب وان تقصر اكمامهم واذياهم وتصفّر عمامهم ويركبون الخمر على شق واحد وكذلك سائر النصارى الذين فامثل ذلك وكان فعل السلطان ذلك بهم عزة ونصرة لدين الاسلام وان تكون سائر الدواوين في دولته مسلمين لا كافرين ثم أمر السلطان ان يفعل باليهود كما فعل بالنصارى ان بقوا على يهوديتهم من تصغير العمام وتقصير الثياب وان تبرز نسوان النصارى باليزر الزرق ونسوان اليهود باليزر الصفّر ليميزوا من نسوان المسلمين بذلك فتعشت باليهود والنصارى عوام المسلمين صاروا يرمونهم من اعلى الخمر بوكزهم لهم ويستسلمونهم بالضرب والاهانة ويتسبون في كتب

(١) اسم هذا السلطان الملك الصالح صلاح الدين صالح

(٢) في الاصل : الناصر ا

الحجج عليهم باسلامهم فعلوا ذلك بمصر والقاهرة والاسكندرية فصارت الافرنج
بالاسكندرية لما رأوا عوام المسلمين فعلوا بالنصارى الذميين ما فعلوه من
استسلامهم لهم بالضرب والاهانة خافوا لئلا يردوا عن الاسلام اذا سافروا
فصاروا يرفعون بضائعهم واثاثهم الى المراكب بسرعة وسافروا اخبروا نصارى
الرومانية بما فعلته المسلمون باهل النصرانية فكان ذلك والله اعلم سببا لهيجان
القبرسى وطوافه بارض الرومانية وجمعه للصوص اهل ماء المعبودية وحشره يبه
الى الاسكندرية ، وسيأتى فيما يرد من هذا الكتاب خبر طوافه وجمعه لزعران
النصارى ومساعدة ملوكها له حتى ظفر بالاسكندرية على حين غفلة من جيوش
الديار المصرية ان شاء الله تعالى ، السبب الثانى كما قيل والله اعلم ان بطرس
صاحب قبرس نعت الله ملكا ولى الملك بعد هلاك ابيه ريوك ارسل الى السلطان
الملك الناصر حسن يسأله ان يرسم له بالتوجه الى بلد صور بسحل الشام ليجلس
على عمود بهم كمادة كل من يملك جزيرة قبرس لانه لا يتم له ملكها بزعمهم الا
بالجلوس على ذلك العمود او مكانا يختص بالجلوس للملك فيه ليم له بذلك الملك
ويصح له تعاد حكمه فى رعيته فاحتقره السلطان ومنعه الدخول الى بلد صور
فكان ذلك والله اعلم سببا لغزوة الاسكندرية ، السبب الثالث انه اتى الى مينة
الاسكندرية فى شوال سنة خمس وخمسين غرابا فيه كراسلة اى لصوص (١)
من الافرنج تشوش مينتها وتحظف ما تقدر على خطفه فصار الغراب المذكور
يدور من مينة الاسكندرية الغربية الى مينتها الشرقية فرأى مركبا اتت من
جهة اللينة الغربية قدمت الى الاسكندرية من بر التركية فيها تجار المسلمين بمناجرهم
فهاجها الغراب المذكور وحاربها فحاربتة وقاتلته فلم يقدر عليها لعلو سمكها وخروج
رماة المسلمين فى القوارب من الساحل لحمايتها منه رموا عليه سهامهم بقسى الجرخ

التي معهم فسلمت منه ودخلت بحر السلسلة ارست بشاطيه بالقرب من الباب
الاخضر فصار الغراب المذكور يحول يمينا وشمالا فارسل اليه الامير سيف بلاط
نائب السلطان بالاسكندرية باشارة تاج الدين موسى بن الخزرت ناظرها
قناصة الفرنج المقيمين بها يستخبرونه عن امره وما سبب جولانه في المينتين فرجعوا
في القارب الذي ركبه اليهم اخبروها عنهم انهم يريدون ما يأكلون ويشربون
ويرتحلون فارسلوا لهم ما كولا وقرب ماء فاخذوا القرب بما فيها وكانت نحو الخمسين
قربة وكلت المأكول خبزا ورمانا وموزا وسحكا وغير ذلك ثم انهم نظروا
مركبا قدمت من الشام فوثبوا عليها اخذوها بما فيها من البضائع ورموا رجالها
بمينة بوقير ومضوا بها ولم يراعوا حق الاحسان بما طعموا وسقوا فكانوا كما قيل

ان العدو وان ابدي مسالمة اذا رأى فيك يوما فرصة وثبا

وسياقي فيما يرد من هذا الكتاب خبر زورق المغاربة الذي اخذته الفرنج القبارسة
من مينة الاسكندرية بسقه والمركب الذي اخذته الفرنج ايضا من خارج مينتها
في تواريخها ان شاء الله تعالى ، ولما بلغ السلطان الملك الناصر حسن خبر الغراب
المذكور عز عليه ما فعل معه من المأكول والمشروب وقال العدو ينبغي جوعه
وعطشه فكيف يطعم ويسقي ليقوى علي اذي المسلمين ثم انه ارسل الامير سيف
الدين بكتمر الشهير بالوشاقي الي الاسكندرية كاشفا فحضر ونزل بدار العدل
المجاورة لبيت للال وهو الذي كان بناها ايام ولايته بها فكشف عن الخبر وجرت
امور يطول شرحها ثم ان صاحب قبرس اتاه خبر الغراب المذكور وما فعله بمينتي
الاسكندرية مع ما اطعم وسقي ولم يخرج له احد حاربه ولا قاتله طمع فيها وكان
فعل الغراب المذكور كما قال الشاعر

امور تضحك المنهاء منها ويختشي من عواقبها اللبيب

فاستجاش القبرسي الجيوش من ارض الرومانية بعد ظفوره بمدينة انطاكية ير

التركية وتوجه بتلك الجيوش النصرانية نحو الاسكندرية والطلب على قدر عزة
 المطلوب فبذل الروح والمال في ركوب المشقة لينال وصل المحبوب كما قال الشاعر
 وكل تقيس القدر مطلبه وعز ومن طلب الحسنة لم يفتنه المهر

ثم انه هان عليه سفك دمه بعد الجروح فبذل مهجته والروح ولسان حاله
 يقول

تريدون ادراك العالي رخيصة ولا بد دون الشهد من ابر النحل
 فلما تحمل الماعون المشقة وابذل في كلاب النصارى النفقة ولم يجد بالاسكندرية
 احدا من جيش الحلقة دق فيها بحيشه دقة اكل اللحم وشرب الرقة كما سيأتى
 ذكر مفصلا ان شاء الله تعالى فافتخر الملعون بظفره بالاسكندرية بين ملوك
 النصرانية ، السبب الرابع ان غرابا هجم على الجزيرة المقابلة لرشيد
 واخذ منها من المسلمين خمسة وعشرين قترا ما بين رجال ونساء وصادف احد
 الفرنج بتلك الجزيرة بقرة يقبعا عجلها فضرب القرنجى العجل بسيفه قطعه نصفين
 فلما رأت البقرة ما فعل الملعون بانها هجمت عليه نطحت بقرتها القتته بالارض
 سريعا وصارت تتابع عليه النطح حتي قتلتها فاحذت ثأرا ولدها وكان خلفها خصا
 من القصب فيه ثنية من الرعاة ليس بايديهم غير عصيهم فقصدهم جماعة من
 الفرنج ليستأسروهم فصارت البقرة تهجم فيهم وتنكرهم عنهم الي ان اذركتهم
 المسلمون بالاسلحة القاطعة والجواشن المانعة فهربت الفرنج عند رؤيتهم لهم فكانت
 تلك البقرة سبب سلامة الذين كانوا بالخص المذكور ثم ان المسلمين لما رأوا القرنجى
 مطروحا بالارض قتيلا متضمخا بدمائه وولد البقرة مقسوما شطرين سألوهم عنها
 فاخبروهم بفعل البقرة بالفرنجى حين قتله ولدها وسلامتهم من الاسر بسببها
 فاخذ صاحب البقرة سلب الفرنجى وقال غنيمة بقرتى فقد جاء في الحديث من
 قتل قتيلا فله سلبه والبقرة ملكي وقد جاء في الخبر انت ومالك لسيدك

ثم ان الفرنجى قتل البقرة صلب ورجم وصارت الدس تأتى لتنظره ويقولون
هذا قتل البقرة هكذا أخبرني بذلك رجل من أهل رشيد والله اعلم ثم ان
القبرسي لما بلغه خبر الغراب وما فعله بجزيرة رشيد من أخذ الاسارى منهم
قطع في الاسكندرية وعمل عليها حتى ظفروا بها . والسبب الحاصل ان ثلاثة
اغربة اقوامينة بوقير وقت الفجر سابع عشرين شعبان سنة اربع وستين وسبع مائة
أخذوا من قصور البساتين ستة وستين قرا من المسلمين وبين رجل ونساء
وصين واثث ومضوا بهم الى ساحل صيدا بالسفينة فقتلهم منهم المسلمون ورجعوا
الجميع الى اوطانهم ببوقير ، وبوقير أرض بها بساتين وقصور وعلى شرفى ظاهر
الاسكندرية على ساحل البحر الملح ، فذكرت الاسارى ان عدة الفرنج اصحاب
الغربان الثلاثة مائة نفس من جملة سيوفهم سيوف حشب مطلية بالقردير الابيض
يضعونها لعدم قدرتهم على ثمن سيوف يشترونها لكن لما أخذوا قدام المسلمين
للمأسورين بصيدا صار لهم بذلك السيوف والسلاح فبأنه تعالى يخلص ويعينهم
ويخذهم فلما كان المسلمين حين اتوا الى بوقير سربوا من معمره جبال السلاح
أخذهم سرعة فلما بلغ القبرسى فعلهم ذلك ببوقير ولم يجد أحدا من أهله في
وجوههم سيف واحد طمع في الاسكندرية . اسبب السدس انه أتى الى جبهة
بوقير ست غرابان جروا في البحر ليلا جريا مأسود لعدم جاسوسهم الذي يكون
في البر يقد لهم نارا في الليل يقصدون جهتها فسمعت الصيادون الذين يصيدون
السماك في الليل داخل البحر في قواربهم حش حشف تلك الغربان فاحسبوا
حذرهم منهم فقصت الغربان بحريهم المأسود الى جبهة رشيد وكان جريهم اولا بقلاعية
وجذبهم لبوقير فلما اتفقد بهم الجارى الى رشيد من جماعة كبيرة من الفرنج
من ثلاثة اغربة اليها فحفظت بهم المسلمون فأتوا بكثرة عددهم وعددهم فهربت
الفرنج منهم طالين غرابا من الثلاثة فسفهم احمد الجداوي المعروف بالباشق الى

اسقالة (١) الغراب رماها البحر قترامت الفرنج البحر ليعوموا الى الغراب عند
تبرز الغراب بمن بقي فيه داخل البحر خوفا من سهام المسلمين فلما القوا القرمج
ارواحهم في البحر من شدة الخوف من المسلمين الذين اتوهم يبرعون غرقوا كلها
ثقل الحديد الذي عليهم منعهم العوم الى الغراب المذكور فقتلهم البحر بعد ايام
الى الساحل فكان عدتهم ثمانون رجلا فلخذوا اهل رشيد سلمهم واحرقوهم
بالنار، السبب السابع ما فعلته عوام المسلمين بالاسكندرية بقتلهم بها الفرنج النادقة
فلما هم القبرسي بالعمارة على الاسكندرية اعانته البنادقة بسبب قتل المسلمين لاصحابهم
بالاسكندرية وسأذكر فيما يرد من هذا الكتاب سبب قتل المسلمين لهم في
موضعة المستحق له ان شاء الله تعالى ، ثم ان القبرسي لما قصد غزو الاسكندرية
استنجد بملوك النصارى باشارة الباب لهم في ذلك ، والباب هو بتفخيم الباء
الاولى وهو الذي تنقاد النصارى به ويؤمنون انه من ذرية الحواريين وعنده
الصليب الاكبر الذي اذا ابرزه للغزو لم يبق ملك من ملوك النصارى الا اني
يحيشه نحوه فاذا خرج الباب بصليبه ذلك ارتجت له بلاد النصرانية فيظفر بتلك
الجيش القوية على مملكة من خالفه من ملوك الرومانية فلما اعانت ملوك النصارى
صاحب قبرس بالمال والرجال والغربان باشارة الباب لهم في ذلك تعمزت المراكب
له على ما قيل برودس لانها دار صناعة الفرنج فكانت عمارتها على ما قيل في
اربع سنين وذلك في مدة طوافة على الملوك فلما رجع الى قبرس وجدهم تهاوا له
فجمع ما جاء به على ما عمر له وتوجه الى الاسكندرية ، وكانت الاخبار تأتي الى
الاسكندرية بان العمارة عند القبرسي فاستهم نائب السلطان بها وهو الامير زين
الدين خالد فرفع سورها القصير من جهة الباب الاخضر وصار يجتهد في العمارة
وبرسل بطلب من الامير يلبغا الخلسكي (٢) مقدم الجيوش المنصورة لاعانة على

(١) انظر القسم الاخر
(٢) دايما كذا في الاصل بدل الخاسكي

عمارة السور ويعلمه بخبر عمارة القبرسي للمراكب الحرية فيقول ان القبرسي اقل
واذل من ان يأتي الى الاسكندرية وما علم يلغا ان شرارة احرق الجلود وبعوضة
اهلكت النمر ودولة قتلت فيلا وبرعوثا اسهر ملكا جليلا.....، ثم ان القبرسي
اتي بعارته الى الاسكندرية فظفريها وتمكن جيشه منها من بعد صلاة الجمعة الى آخر
يوم السبت ثانية ذهب وسب وحرق وخرّب بعد ان قتل من المسلمين كثيرا فطوي
للمتقولين من المسلمين في يوم الجمعة فانه يوم مبارك وكان الخبر يأتي الى
القبرسي ان الاسكندرية بها طوايف قاعات يبيتون بساحل مينيا لم يعرفوا
الحرب ولا باشروه ابدا بل يخرجون مزينون باللبوس قد تطيسوا من فوق
العمائم التي علي الزوس يتحظرون في مشيتهم ويقطبيون بطيهم فترغت لهم
النسوان ويصير كل واحد منهم بزينة فرحان ومعهم الاسلحة القتال لكن ليس
تحتها الموقف الحرب رجال مع كل واحد منهم سيف تقلده مجوهر التصل جيده
مزخرف بالذهب كجمرة نادر تلتهب ومع ذلك حامله جبان يفرع من نفيق
الغربان كما قال الشاعر

وما السيف الاستعار لزينة اذا لم يكن امضى من السيف حامله

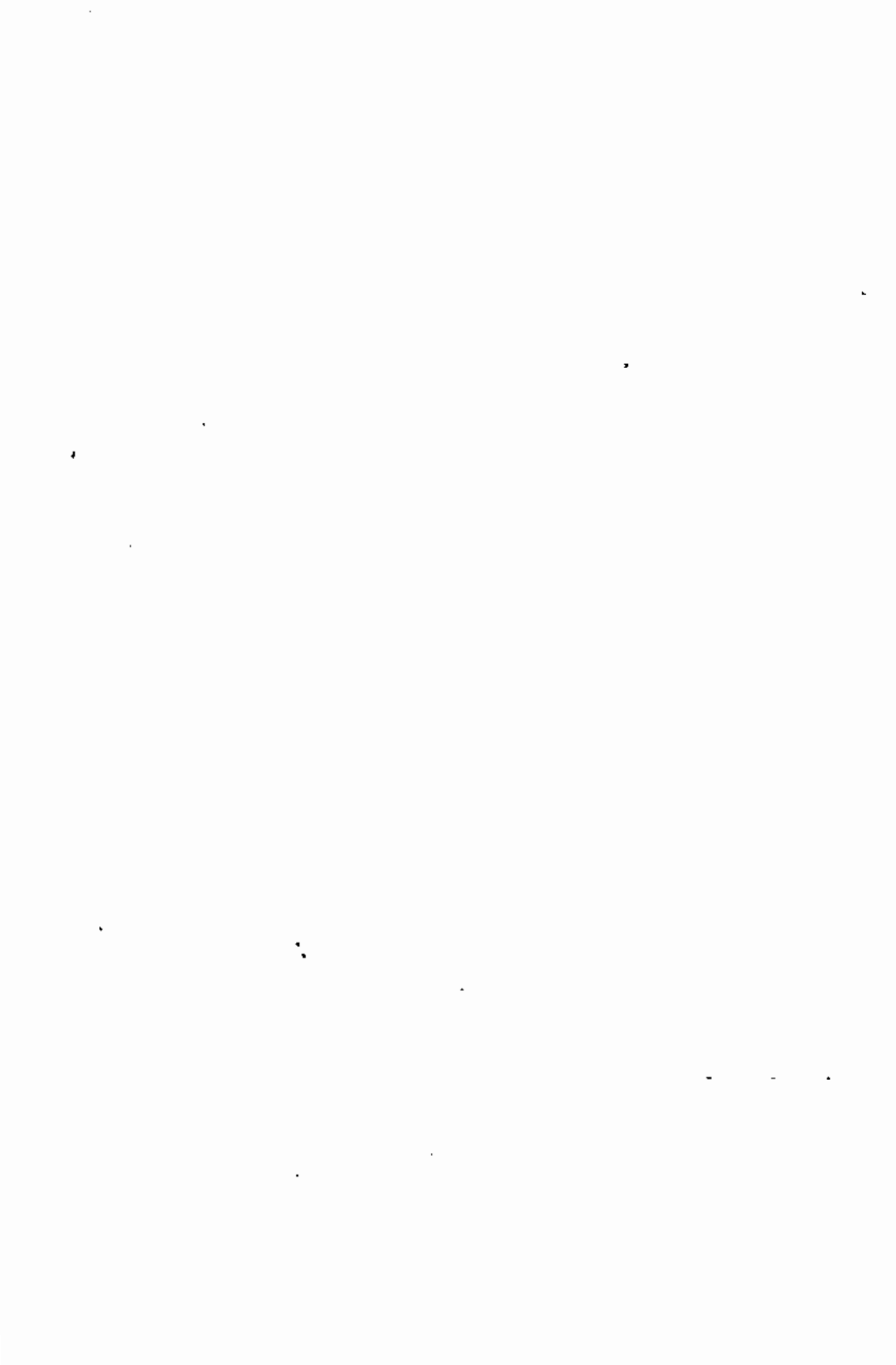
والحرب لها ارباب كالسباع كما قيل في الثل من لم يكن اسدا اقتربته
الضباع واكلته حيا ومن لم يكن كالعقرب طمع فيه كل كلب اجرب كما قال
الشاعر

ومن لم يكن عقربا يقتل مشيت بين اثوابه العقرب

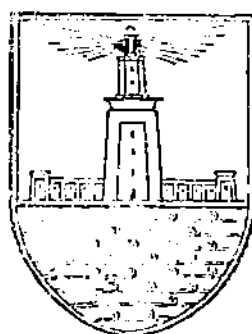
فلما علم القبرسي حالهم طمع فيهم وقال اذا لم يكن في الاسكندرية من لم
يحسن الطعن ولا الضرب فالظفر بها سهل لاصعب واذا لم يكن بها رجال حرب
مقيمة فالسلاح مع الجينا زيادة في الغنيمة والمنايا في السيوف كوامن لا يهيجها الا
الشجاع قال الشاعر

ان لننايا في السيوف كوا من حتى يسحب في هياج
ومهبج يغشى المضيق بسيفه حتى يكون بسيفه الافراج
فأتى القبرسي الملعون برجاله المجتدة المعروفين بالخيانة معهم اسلحتهم المعتدة
القاطعة المستعدة فرأوا الرجال علي الساحل ليس عابهم ملبوس حرب طابل وراوا
فرسانهم عربان قد تخللوا بالكسيان فرمتهم الفرنج بالسهم فطاروا كطيران
الحمام فظفر الملعون به ورتع في جوانبها وجرى ما سيأتى ذكره مفصلا ان شاء
الله تعالى فبجحت الملك العظيم الذي اذا اراد امرا قدم اسبه

١. كرمب



FAROUK I UNIVERSITY BULLETIN OF THE FACULTY OF ARTS.



VOL. III - 1948

For copies of the Bulletin of the Faculty
of Arts, apply to Farouk I University
Library, Moharrem Bey, Alexandria

ALEXANDRIA
Imprimerie du Commerce

The printing of volume III of this Bulletin has been finished in the month of January 1947 by the Imprimerie du Commerce, Alexandria, under the supervision of ET. COMBE. Ph. D., Director of the Library, Farouk I University.

FAROUK I UNIVERSITY
BULLETIN OF THE FACULTY OF ARTS

Volume III.

1946

TABLE OF CONTENTS OF THE EUROPEAN SECTION :

Em. de Martonne	: La France et l'Europe . . .	1-8
Alan J. B. Wace	: A Ptolemaic Inscription from Hermopolis Magna (1 fig.)	9-14
M. Ventura	: Pythagore et la conception ontologique moderne . . .	15-25
R. Liddell	: The «Hallucination» Theo- ry of «The Turn of the Screw»	26-34
J. Grenier	: Existence et Liberté . . .	35-36
Sabet El-Fandi	: Y a-t-il une crise des ma- thématiques contemporai- nes?	37-56
A. de Marignac	: L'Electre de Sophocle est- elle une pièce mal cons- truite	57-73
R. Savioz	: La Guerre d'Alexandrie. .	74-98
Et. Combe	: Le texte de Nuwairi sur l'attaque d'Alexandrie par Pierre I de Lusignan . . .	99-110



LA FRANCE ET L'EUROPE

*Conférence faite à l'Université Farouk 1^{er} à Alexandrie,
le 6 Mars 1946.*

Ma première parole doit être pour détromper les auditeurs auxquels le titre de cette conférence aurait pu faire croire qu'il y serait, en quelque mesure, parlé des graves questions politiques intéressant la France et l'Europe. Il ne s'agit que de Géographie et c'est sur la carte d'Europe que j'ai voulu vous convier à méditer.

Imaginez un géographe qui, après avoir parcouru quatre continents, passé quatre fois l'Equateur, navigué sur l'Atlantique Nord et l'Atlantique Sud, et même sur l'océan Pacifique, se trouve, à la fin de sa carrière de Professeur et de chercheur, enfermé pendant cinq ans dans son pays, dans l'impossibilité même d'y voyager... Peut-être n'est-il pas étonnant que toutes ses pensées, ses réflexions aient porté sur ce pays et que l'expérience acquise par l'étude de tant de spectacles différents lui ait permis d'y découvrir des traits géographiques dont l'importance avait pu jusque là lui échapper.

Il lui a semblé qu'il y avait là l'occasion d'une démonstration capable d'intéresser un public éclairé, particulièrement dans une ville où l'on peut dire que la science géographique est née, il y a plus de 2000 ans. N'est-ce pas à Alexandrie en effet qu'Eratosthène a démontré que la Terre était une sphère et a réussi à en mesurer la circonférence avec une précision prodigieuse étant donné les moyens dont il disposait, l'erreur n'étant que de quelques dizaines de kilomètres, par rapport aux mesures de la géodésie moderne?...

Essayons donc, non pas sans doute une mesure aussi exacte des dimensions de la France, qui est actuellement une chose aisée, mais une définition de son individualité géographique; opération singulièrement plus délicate et plus compliquée.

Le problème revient à déterminer et expliquer la situation de mon pays dans l'Europe, telle que la montre au premier

coup d'oeil une carte murale. Pour comprendre la France, il faut comprendre l'Europe...

I. *L'Europe et ses trois isthmes.*

De tous les continents l'Europe est le plus petit. On a pu la qualifier de «*péninsule asiatique*», à peine plus grande que l'Arabie, l'Inde ou l'Indochine. Au point de vue physique son ossature montagneuse semble en effet prolonger celle de l'Asie, les Alpes sont une réplique réduite de l'Himalaya. Au point de vue humain, c'est à l'Asie que l'Europe doit en grande partie son peuplement, modifié par les grandes invasions jusqu'au Moyen Age. Elle lui doit même les premiers éléments de civilisation, la plupart de ses plantes et de ses animaux domestiques.

Mais la «*péninsule asiatique*» a son originalité, sa forme et sa structure propre. Le trait essentiel en est une articulation sans exemple dans aucun autre continent. On peut hésiter dans la Russie sur la limite de l'Asie, mais, en allant vers l'Ouest, on voit bientôt les terres étranglées par des golfes qui sont de vraies mers : Baltique, Egée, Adriatique. Le continent s'émiette en presque îles ou en archipels : Scandinavie, Iles Britanniques, Espagne, Italie, Balkans. Les mers du Nord ne sont séparées des mers du Sud que par des isthmes de plus en plus étroits.

Le premier de ces isthmes rencontré en venant de l'Est a 1200 Km. de largeur, entre la Baltique et la Mer Noire. Le second n'en a plus que 1000, entre Mer du Nord et Adriatique. Le troisième est réduit à 700 Km. de la Manche au Golfe du Lion, ou même à 400 de l'embouchure de la Gironde aux étangs du Languedoc.

On conçoit l'importance de ce rapprochement des deux fronts de mer l'un, le front méditerranéen, tourné vers les routes maritimes du commerce et des civilisations les plus antiques, l'autre, le front de l'Atlantique et des mers du Nord, destiné à un développement plus tardif. Les trois isthmes européens ont fixé dans la protohistoire, ou même la préhistoire, les routes du fer et de l'ambre. Les Empires fondés sur un front ont tendu, par l'un ou l'autre de ces isthmes, à atteindre l'autre front. Rome, Byzance ont tenté vers le Nord, ce que l'Empire germanique du Moyen Age, la Pologne un peu plus tard, le «*Reich*» au début du XX^e siècle ont essayé vers le Sud. Une seule formation politique a réussi à prendre pied sur les deux fronts, sans effort presque, c'est la France qui occupe solide-

ment depuis des siècles l'isthme le plus occidental et le plus étroit.

On peut hésiter sur le nom à donner à l'isthme oriental : Polonais? Roumain? entre Baltique et Mer Noire?... ou au second isthme : Germanique? Italien? entre Mer du Nord et Adriatique? Le troisième est incontestablement l'isthme français.

Les avantages de cette situation de la France sont évidents. C'est par l'isthme français que Rome a étendu le plus tôt et le plus solidement sa civilisation vers le Nord. César atteignait le bas Rhin avant l'ère chrétienne et la Gaule romanisée était bientôt l'image de ce que devait être la France, avec deux façades : l'une sur le monde méditerranéen, l'autre sur les plus vastes horizons du commerce mondial.

Les progrès dans la rapidité de la circulation n'ont pas diminué l'avantage de l'étroitesse de l'isthme français. Il fixe toujours les routes les plus rapides. Le voyageur prenant un soir brumeux le train à Calais peut se réveiller aux bords du Rhône sous un ciel lumineux au milieu des oliviers et des vergers en fleurs. C'est par la France que passe l'axe des relations les plus rapides des îles Britanniques à l'Extrême Orient, combinaison de train accéléré et de steamer connue sous le nom de « Malle des Indes ».

L'isthme français est bien un des traits les plus caractéristiques de l'Europe. Il faut regarder d'un peu plus près les causes et les effets de ce grand phénomène géographique.

II. *L'Isthme français et la structure européenne.*

Et d'abord rendons nous compte du rapport entre l'isthme français et la structure de l'Europe dans son ensemble.

On doit distinguer trois Europées, celle de l'Orient, celle de l'Occident et celle du Centre.

L'Europe orientale, est d'après ses contours, une masse aux contours relativement peu articulés semblant vraiment le prolongement de l'Asie; c'est la Russie au relief faiblement différencié, pays de plaines immenses comme celles de la Sibérie, où s'étalent des bassins fluviaux tels que le reste de l'Europe n'en connaît pas, Don, Volga, Oural... où les mouvements de peuplades ont continué jusqu'à l'aube des temps modernes, mais où l'unification a pu progresser facilement, une fois constitué un groupement de forces assez puissant.

L'Europe occidentale c'est au contraire la pointe de la

«Péninsule asiatique» rétrécie vers l'Ouest, morcelée par les isthmes, s'émiettant en îles et presque îles s'ouvrant à toutes les influences, encore compartimentée par des montagnes en bassins exiguës.

L'Europe centrale, moins massive que l'Europe orientale paraît cependant singulièrement moins morcelée que l'Europe occidentale. Les montagnes y laissent la place à des bassins assez étendus pour être le cadre de groupements nationaux.

Or la position de la France est celle d'un intermédiaire entre l'Europe occidentale et l'Europe centrale. Étroitement unie à celle-ci, elle a accès avec trois des articulations de l'Europe occidentale : la péninsule italienne, la péninsule ibérique et l'archipel britannique.

Nous allons en voir toutes les conséquences. Essayons avant d'en apercevoir les causes.

Pour cela on peut se demander dans quelle mesure l'isthme européen le plus étroit représente une image géographique plus ou moins stable que les deux autres isthmes. Quelle serait le résultat d'une montée ou d'une légère baisse du niveau des mers ? Un coup d'oeil sur la carte hypsométrique et bathymétrique donne la réponse.

Un relèvement de 200 m. de la surface de l'océan noierait complètement l'isthme oriental ou polonais, et réduirait la largeur de l'isthme central ou germanique à celle des Alpes suisses, mais l'isthme français subsisterait avec les plateaux calcaires qui forment, avec des altitudes de 400 m., un pont entre les Vosges et le Massif Central.

Une baisse de 200 m. de la mer aurait des effets plus graves encore sur la physionomie de l'Europe, en asséchant presque toute la Baltique et la mer du Nord, plus d'isthme central ou oriental. Mais l'isthme français serait à peine élargi entre golfe de Gascogne et golfe de Lion, car le grand talus sous-marin formant le bord de la plateforme continentale qui descend brusquement de 200 m. à des profondeurs de 2000 m. se suit en direction du S E de l'Irlande jusqu'au fond du golfe de Gascogne au pied des Pyrénées.

Aussi l'isthme français n'est pas seulement le plus étroit, il est aussi le plus solide, celui qui serait le moins affecté par un grand phénomène réduisant ou étalant les océans, phénomène qui n'est d'ailleurs nullement un simple jeu de l'esprit, car le détroit du Pas de Calais n'existait pas avant l'apparition de

l'homme et la mer du Nord a été réellement à sec pendant la période glaciaire comme le prouvent les ossements dragués sur son fond.

A quoi tient cette solidité de l'isthme français? Certainement à son relief et à sa structure.

La structure de la France est comme un résumé de celle de l'Europe, dont les éléments de vus se retrouvent assemblés et comme soudés plus étroitement.

Les éléments peuvent être réduits, la plateforme russe mise à part, à deux catégories essentielles : de hautes montagnes dont les Alpes sont le type et des reliefs moins accentués, massifs et bassins assemblés surtout dans l'Europe centrale.

Les hautes montagnes de type alpin dressant à plus de 2000 et parfois jusqu'à 4000 m. des crêtes aigues couvertes de glaciers, forment de puissants bourrelets allongés suivant des lignes généralement arquées, suivant l'axe des plissements et dislocations qui ont bouleversé une zone continue de l'Espagne au Bosphore : Pyrénées, Alpes, Carpates, Balkans, et qu'on pourrait suivre encore à travers toute l'Asie jusqu'à l'Indochine. C'est la « zone alpine ».

L'assemblage de petits massifs montagneux et de bassins plus ou moins déprimés forme ce qu'on appelle la « zone hercynienne », du nom de la grande forêt « hercynienne » que les Romains y ont découverte en passant le Rhin. Les massifs, dont les sommets arrondis dépassent rarement 1000 ou 1500 m., représentent ce qui reste d'anciennes montagnes, qui ont pu être aussi puissantes que les Alpes avant d'être nivelées par l'érosion. Les bassins où alternent plaines et collines sont le témoignage de l'invasion de mers comparables à celles qui morcellent l'Europe actuelle.

Or nulle part on n'observe un développement et une association aussi étroite des deux éléments de la structure de l'Europe que dans l'isthme français, où ils sont rapprochés et comme soudés étroitement.

C'est en France qu'est le plus haut sommet des Alpes. Le massif central français est de tous les massifs hercyniens, le plus vaste, le plus élevé, le plus accidenté par des dislocations qui sont le contre coup des plissements alpins. Le Bassin de Paris, berceau de l'unité française est le plus vaste des bassins hercyniens. Mais surtout on note un rapprochement des reliefs hercyniens et des reliefs alpins qui paraît poussé jusqu'au para-

doxe. De Lyon jusqu'à la mer le Rhône cherche sa voie entre les derniers chaînons plissés des Alpes et les lourdes croupes du Massif Central, obligé de scier des gorges profondes tantôt dans les calcaires alpins, tantôt dans le granite hercynien. Nulle part un contact aussi étroit des deux structures.

C'est sans doute à cette sorte de soudure que l'isthme français doit sa solidité en même temps que son étroitesse. Que cette combinaison géographique soit réalisée au contact de l'Europe occidentale et de l'Europe centrale ajoute encore à sa valeur.

III. *Conséquences diverses.*

L'opposition des deux fronts de mer entre lesquels l'Europe s'étire vers l'Ouest en se morcelant de plus en plus n'est nulle part plus marquée dans le climat et le tapis végétal que dans l'isthme français et nulle part avec un avantage aussi frappant pour le front méridional.

Le front septentrional participe en France à la douceur océanique de l'Europe occidentale, avec ses bivers tempérés et pluvieux, alors qu'il prend sur l'isthme germanique et encore plus sur l'isthme polonais le caractère continental. La moyenne des températures de janvier est de 6° à 8° de la Normandie à la Bretagne, alors qu'elle s'abaisse à 1° aux bouches de l'Elbe, à — 2° à celles de la Vistule.

Mais surtout le front méridional est, en France, nettement méditerranéen, avec des moyennes de janvier de 7° à 8°, des étés secs et brûlants. La forêt de Pins d'Aleps ou de chênes verts remplace la chênaie à feuilles caduques; le fourré odorant du «maquis» aux feuilles luisantes et aux rameaux épineux ou la «garrigue» aux buissons nains semés sur le sol calcaire dénudé remplacent la lande ou la prairie. Il faut chercher au fond de l'Adriatique des traces de cette végétation caractéristique sur les falaises de l'Istrie ou des îles dalmates, alors que la température moyenne de janvier ne dépasse pas 4° à 6°. Les rivages de la mer Noire, des bouches du Danube à l'extrémité occidentale du Caucase, sont encore moins favorisés. Les steppes de l'Ukraine et de la Crimée ont des moyennes de janvier inférieurs à 0°, et c'est à peine si les falaises calcaires de Yalta peuvent éveiller sous son beau soleil quelque souvenir méditerranéen.

Ainsi l'isthme français n'est pas seulement le plus étroit.

il est aussi le plus exposé aux influences méditerranéennes. Il doit donc être celui où ces influences peuvent pénétrer le plus loin que l'on considère le tapis végétal ou les cultures, le monde animal et même les sociétés humaines.

En effet nous y trouvons l'olivier qui remonte le long du sillon du Rhône jusqu'à Montelimar et la vallée de la Durance jusqu'à Sisteron. La vigne prospère en Alsace, accompagnée dans les collines calcaires sous-vosgiennes par des insectes méditerranéens. Le chêne vert apparaît en bouquets sur les plateaux calcaires du Quercy. L'érable de Montpellier est chez lui jusqu'aux Charentes près de l'embouchure de la Loire.

La population de la France est, sans doute, comme celle de tous les pays européens, formée d'éléments ethniques variés. Mais son caractère propre tient au mélange d'éléments d'origine méridionale, méditerranéenne même, avec des éléments d'origine nordique ou orientale. Les derniers y ont afflué par vagues successives, Celtes puis Germains, jusqu'au début de l'ère chrétienne. Les premiers ont, sous le nom de Ligures, contribué à former le fond caractéristique du Midi français. Avec la conquête romaine le flux méditerranéen a été renforcé et les bases de la vie sociale ont été définitivement fixées. L'amalgame, si solide qu'il a résisté à toutes les secousses depuis près de 20 siècles, n'empêche pas que subsistent des contrastes heureusement harmonisés.

Si l'on ne s'étonne pas que les types nordiques tendent à prédominer d'un côté, les types méditerranéens de l'autre, on ne doit pas s'étonner davantage de pouvoir tracer à travers la France la limite de deux systèmes de culture et d'habitat dont les raisons d'être ont été si discutées : le système d'exploitation collective à champs assolés autour de villages agglomérés et celui des fermes dispersées mettant chacune en valeur ses alentours étroitement cloturés.

Conclusion.

L'analyse pourrait être poussée plus loin. Nous croyons en avoir assez dit pour montrer qu'on peut définir la France par sa situation géographique, unique en Europe et qui en fait comme un résumé de ce petit continent, si différent des grandes masses d'une Asie ou d'une Afrique.

Nous y voyons un lieu de rapprochement des contrastes,

de combinaison des éléments méditerranéen et nordique, océanique et continentaux, qu'il s'agisse du climat, de la végétation, des groupes humains eux mêmes.

Il s'agit d'un pays de contrastes harmonisés où devait se former un tempéramment national étranger aux excès. Dans la vie économique l'activité industrielle et la concentration urbaine n'y dominent pas comme en Angleterre ou en Belgique, l'activité agricole et l'habitat rural comme en Hongrie ou en Roumanie...

Dans l'art et la littérature, la France n'est pas le pays des géants, parfois déconcertants (un Michel Ange, un Wagner, un Shakespeare) mais celui des génies délicats : un Racine ou un Voltaire, un Watteau, un Bizet...

Telle est la France vue par un géographe qui a beaucoup vu et quelque peu réfléchi.

Dans cette ville d'Alexandrie, où elle compte tant de sympathies, il a paru que ce portrait était capable d'intéresser.

Em. de MARTONNE

A PTOLEMAIC INSCRIPTION FROM HERMOPOLIS MAGNA

In March 1945 during the excavations, under the direction of Mr. Makramallah, of the University at Hermopolis Magna (Ashmunein) M. Barraize of the Service des Antiquités, while engaged in re-erecting the fallen columns of the great Graeco-Roman Basilica¹, found five inscribed blocks of a Doric architrave which had been re-employed in the foundations of the Basilica. I am much indebted to M. Barraize for information about their discovery and for photographs of the inscription upon them and to Mr. Makramallah for communicating the circumstances to me.

In view of the importance of the inscription and of the architectural members associated with it, it has been thought that a provisional publication here would be of service to scholars, pending the completion of the excavations and the publication of a full scientific report.

The inscription, a facsimile of which is shown in Fig. 1, reads as follows:

Βασιλεῖ Πτολεμαίῳ τῷ Πτολεμαίου καὶ Ἀρσινόης
Θεῶν Ἀδελφῶν καὶ Βασιλίσσῃ Βερενίκῃ τῇ ἀδελφῇ αὐτοῦ
καὶ γυναικὶ | Θεοῖς Εὐεργέταις καὶ Πτολεμαίῳ καὶ Ἀρ-
σινόῃ | Θεοῖς Ἀδελφοῖς τὰ ἀγάλματα καὶ τὸν ναὸν καὶ
τὰ ἄλλα ἐντὸς τοῦ τεμένους | καὶ τὴν στο[ά]ν οἱ τασσό-
μενοι ἐν τῷ Ἑρμοπολίτῃ νομῷ κάτοικοι ἱππεῖ[ι]ς εὐεργε-
σίας ἐνεκεν τῆς εἰς αὐτούς.

This can be translated thus:

"To King Ptolemy, son of Ptolemy and Arsinoe, the Brother Gods, and to Queen Berenike, his sister and wife, the Benefactor Gods, and to Ptolemy and Arsinoe, the Brother Gods, the

(1) Barraize, *Annales du Service des Antiquités* XL, p. 741 ff.; cf. Roeder, *ibid.* XXXIX, p. 745 ff.

cavalry soldiers established in the Hermopolite Nome (dedicated) the statues and the temple and the other things within the sacred enclosure and the portico in recognition of benefits to them."

The date of the inscription is clear. It was engraved during the reign of Ptolemy III, Euergetes I, and his wife Berenike, 246-221 B.C. The inscription contains two of the usual official fictions. Ptolemy III was not the son of Ptolemy III by his sister Arsinoë, but by his first wife Arsinoë the daughter of Lysimachus, King of Thrace. Berenike was not a daughter of Ptolemy II and sister of Ptolemy III, but daughter of Magas, King of Cyrene, a stepson of Ptolemy I.

The κάτοικοι who made the dedication, were Graeco-Macedonian military allotment holders established in the Hermopolite Nome and in this case cavalry. The word κάτοικος is the regular technical term for such military colonists: Both cavalry and infantry were so established in military colonies as part of the Ptolemaic regular army, and from the end of the third century B.C. the term κάτοικος replaces the older κληροίχος in this sense. (1)

The κάτοικοι were organised on a military basis, the cavalry being commanded by Hipparchs and the infantry by Chiliarchs. These military colonies had their own national Hellenic life and had a gymnasium organisation and their own πολιτεύματα or autonomous communities (2). Such military colonies were established all over Egypt, especially in the Fayum. One inscription was erected in the reign of Ptolemy VI, Philometor, by the cavalry and infantry settled in the Ombite Nome (3). In Cyprus there were similar settlements, but many of these seem to have been foreign mercenaries, such as Lycians or Cilicians (4), though Cretans, Achaeans, and other Greeks are recorded (5).

The whole question of the Ptolemaic military colonies is not yet clear, although we possess much information on the subject which cannot be discussed here in detail. It has been

(1) Bevan, *History of Egypt under the Ptolemaic Dynasty*, p. 173 f.

(2) Pauly-Wissowa, *s. v.* κάτοικος.

(3) Dittenberger, *O.G.I.*, No. 114.

(4) Dittenberger, *op. cit.*, No's. 146, 147, 148, 157.

(5) Dittenberger, *op. cit.*, No's. 108, 151, 153.

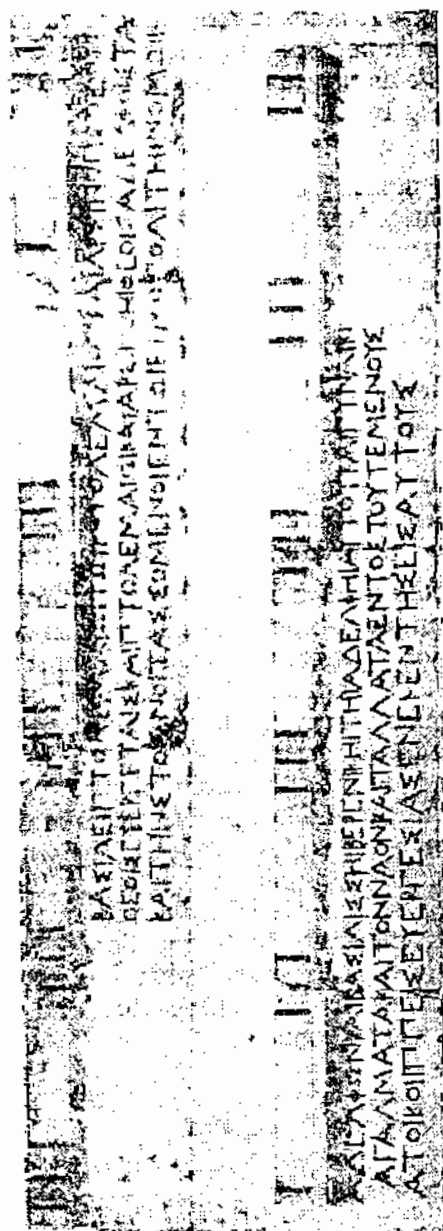


Fig. 1. --- Inscribed Architrave at Hermopolis Magna (Ashmunein).

fully treated by Oertel (1) and Bevan (2) gives a brief account of the system. Similar military colonies were established by the Seleucids and by the Attalids in Asia Minor and the information about these which is perhaps in some respects even fuller than that which we have as regards the Ptolemaic κάτοικοι has also been well discussed by Oertel (3).

There are two long inscriptions from Hermopolis Magna with long lists of names dating from the second and first centuries B.C., the latter from the reign of Ptolemy XI (4). These probably record some of the κάτοικοι of later date and it is interesting that among them in the later inscription one or two Egyptian names occur. Perhaps these were the sons of Greek fathers and Egyptian mothers.

This new inscription from Hermopolis Magna records the erection and the dedication to Ptolemy III and Berenike and to the Brother Gods (Ptolemy II and Arsinoë) of statues, a temple, and other offerings within the sacred enclosure, and also of a stoa. It is not clear whether the latter was within or without the sacred enclosure.

The temple to which this inscribed architrave belonged is presumably the temple mentioned. Since we have in all so far twenty six blocks of the architrave we can form some idea of its character. Two of the corner blocks seem to be missing. It was a peripteral temple with six Doric columns at each end and ten probably along the sides. No capitals have yet been unearthed, but there are one or two fragments of Doric columns, a corner of a pediment, and one or two pieces of the upper part of the triglyph frieze and of the cornice. The whole was gaily painted in red and blue on stucco applied to the nummulitic limestone (5) which is the material employed for this and all the other Ptolemaic architecture to be mentioned below. A few fragments of Ionic capitals suggest that the interior columns were Ionic. There are no signs of the statues and it is too much to hope that they will be found.

(1) In Pauly-Wissowa s. v.

(2) *Op. cit.*, p. 167 ff.

(3) In Pauly-Wissowa *loc. cit.* See also Rostovtzeff in *C.A.H.* VII, p. 117 ff.

(4) Breccia, *Alexandria Cat., Iscrizioni Greche e Latine*, No. 44 a; Milne, *Cair Cat., Greek Inscriptions*, No. 9296.

(5) This stone was quarried in the hills in the desert a little to the north of the necropolis of Hermopolis, Tuna el Gebel.

This temple was presumably the centre of the Ptolemaic sacred enclosure which lay beneath the Graeco-Roman Basilica. Of this enclosure the southern wall of mud brick seems to have been laid bare in its complete length. The western wall which has been traced from the southwest angle of the enclosure for a considerable distance northwards, but not yet to the northwestern angle, is broken, presumably at its middle, by the ruins of an Ionic Propylon which lie above a flight of steps, apparently later in date. Against this west wall outside is a series of small rooms of later date, probably shops, in one of which a group of bronze vessels was found.

Within the sacred enclosure along the inside of the southern wall run the foundations of a Doric stoa, with a stone (nummulitic limestone) stylobate on a base of mud brick. Whether this is the stoa of the inscription or not we cannot yet say. Within the sacred enclosure in the southwestern corner are the mud brick foundations of small buildings and a large circular brick space, perhaps a sacred pool or tank, the date of which is uncertain.

The site of the Ptolemaic Doric temple has so far not been found. It has not yet been identified in the ruins between the Ionic Propylon and the west front of the Basilica. Perhaps it lies on the axis of the Propylon beneath the nave of the Basilica itself.

Between the west front of the Basilica and the Propylon lies at a much lower level a mud brick building which had been filled in with sand. Probably it was abandoned and filled in when the Ptolemaic sacred enclosure was being laid out at a higher level. It should therefore be pre-Ptolemaic and belong to a yet earlier sanctuary.

In addition to the architectural remains already mentioned there are many pieces of a Corinthian building of the same nummulitic limestone coated with stucco and painted. These include many column drums, capitals, and bases of an Attic Ionic type, a scotia between two tori. The capitals were painted in violet for the ground, orange brown for the stalks, and blue and red for the leaves and flowers. The angle volutes were broken off when the building to which they belonged was dismantled and the capitals were packed together in the foundations of the Basilica. Of this Corinthian structure several blocks combining architrave and frieze are preserved. The architrave has three

horizontal divisions and the frieze was decorated with a design, not yet clear, in blue on a red ground. The foundations of this Corinthian building have not yet come to light and it remains for study of the architrave blocks to determine its plan and show whether it was a temple, a stoa, or some other structure. All this Corinthian architecture is well executed and of good early Hellenistic style and apparently contemporary with the Doric temple.

In these remains we thus have for the first time in Egypt from one site a considerable body of purely Greek architecture of the Ptolemaic period. Nothing similar is yet known from Alexandria, the Fayum, or elsewhere. We have here fortunately preserved for us beneath the floor of the Graeco-Roman Basilica, which is almost certainly not earlier than Hadrian, a large part of a Ptolemaic sanctuary with its temples, its porticoes, and other buildings of the second half of the third century B.C. This is of great value not merely for the history of Ptolemaic culture in Egypt, but for the development of Hellenistic architecture as a whole both in Greece and within the bounds of Alexander's empire.

Alan J.B. WACE

PYTHAGORE ET LA CONCEPTION ONTOLOGIQUE MODERNE

Dans le domaine de la vie spéculative il arrive parfois à l'homme d'être amené par les circonstances à rompre avec ses habitudes intellectuelles, à s'arracher à l'état auquel il se complaisait, pour suivre une orientation nouvelle. Il est alors comparable au navigateur qui, déçu par le mirage qu'il prenait pour un phare, se résout à chercher à l'horizon une lanterne réelle. C'est à peu près ce qui arrive à notre siècle.

Il y a environ vingt-cinq siècles, sous le ciel de l'Hellade parurent deux étoiles d'aspect différent; l'une s'offrait par son éclat tangible et concret, l'autre se cachait par son allure idéale et discrète. J'ai nommé Démocrite et Pythagore. Le premier assignait, comme origine, au monde, l'espace et les atomes; l'autre, l'harmonie et les nombres.

Si l'on tient compte de la loi du moindre effort qui a son mot à dire dans les différentes entreprises de l'activité humaine, on ne s'étonnera pas que la conception de Démocrite eût particulièrement fait fortune. Par sa matérialité et son caractère concret, elle exige un moindre effort; et se prête mieux à nos méthodes discursives. Voilà pourquoi une certaine philosophie facile finit par s'installer dans l'édifice de l'atomisme; édifice qu'on prétendit être construit en béton armé, jusqu'au jour où ses nombreuses fissures en précipitèrent la ruine.

Après une casse sérieuse il convient de dresser un inventaire pour se rendre compte des dégâts et de ce qui demeure encore intact. Dans ce même but, je me propose de passer rapidement en revue les principales thèses du matérialisme et distinguer entre ce qui appartient au passé et ce qui peut être considéré encore comme durable.

A la fin du dernier siècle, la science physique reconnaissait trois grandes lois de conservation; celles de la matière, de la masse et de l'énergie.

La première, la loi de la conservation de la matière, est la

plus antique; elle fut formulée par Démocrite et Lucrèce pour qui, l'univers est composé d'atomes incréés et indestructibles. Démocrite disait plus précisément que le doux et l'amer, le chaud et le froid aussi bien que les couleurs ne sont que des créations de l'imagination humaine; qu'effectivement rien n'existe sauf l'espace et l'atome (1).

La seconde de ces lois, celle de la conservation de la masse est relativement moderne. Newton avait fait observer que le corps est lié à une quantité, à une masse invariable qui donne la mesure de son inertie; ce qui, en dernière analyse, est son poids. Partant de ce principe, Lavoisier, vers la fin du 18^e siècle, crut avoir découvert que le poids total de la matière constitutive de l'univers est constant; que rien ne se crée, rien ne se perd dans le domaine de la matière, quelles que soient les transformations chimiques qu'elle subisse. On connaît l'exemple classique de la chandelle brûlée dont on pourrait reconstituer le poids, s'il était possible de recueillir tous les corps en lesquels elle s'est transformée.

Enfin la troisième loi, celle de la conservation de l'énergie est la plus récente de toutes. Elle présuppose que l'énergie est essentiellement unique, qu'elle se manifeste sous des formes multiples, dont la plus simple est le mouvement. Des séries d'expériences entreprises par Joule entre 1840 et 1850, ont démontré que l'énergie se transforme, mais ne se perd jamais. Si dans un train lancé en mouvement une quantité d'énergie motrice disparaît cela n'est qu'en apparence. Car, en fait, la quantité absente du mouvement est compensée par une quantité équivalente d'énergie se manifestant sous d'autres formes; notamment: le bruit du train, la chaleur née du frottement des rails par les roues etc.

Ces trois lois faisaient partie intégrante de la Science. Les physiciens du 19^e siècle les considéraient comme étant les lois qui gouvernent l'ensemble de la création.

Or, ces édifices d'ordre spirituel bien qu'ils soient à l'abri de nos engins de guerre, les plus puissants, ne sont néanmoins pas invulnérables. Au contraire ils sont parfois extrêmement sensibles à la moindre découverte philosophique. C'est ainsi que l'apriorisme de Kant, en enseignant que le temps et l'espace n'ont aucune réalité et qu'ils ne sont que des cadres imposés à

(1) *Fragm. Phys.* p. 357;

Νόμῳ γλυκὸ καὶ νόμῳ πικρὸν, νόμῳ θερμὸν, νόμῳ ψυχρὸν, νόμῳ χροὴ. Ἐτεῖ δὲ ἄτομα καὶ κενόν.

la matière par notre pensée, a porté le coup de grâce autant à l'espace de Démocrite qu'à l'étendue de Descartes et même à celle de Spinoza qui voyait dans l'étendue un des attributs essentiels de la substance. Il y a plus. Il résulterait de cette doctrine kantienne que la matière elle-même n'existe que dans l'organisation physico-psychique de l'homme. C'est là du moins la conclusion de Frédéric Lange dans son *Histoire du matérialisme*. (2) On devrait donc, reprendre la formule même de Démocrite et la compléter en y ajoutant que les atomes et l'espace aussi ne sont que la création de l'imagination humaine.

Mais laissons ces régions philosophiques trop abstraites pour rester dans le domaine du laboratoire. Il est aujourd'hui établi que l'atome de Démocrite présumé insécable et indestructible est composé d'électrons chargés d'électricité négative et de protons chargés d'électricité positive. La matière n'est donc qu'une collection de charges électriques.

Tant qu'on assignait à l'atome une existence permanente et indestructible, on était en droit de le considérer comme l'élément constitutif des êtres. L'univers était un univers d'atomes. Quant aux rayons émis par eux ils n'étaient que d'une importance secondaire. On estimait que l'atome peut passer à l'état de radiation juste comme la cloche peut, par le choc du battant, passer à l'état de vibration et faire entendre du bruit. Mais il était aussi absurde de voir dans les rayons émis par l'atome l'élément constitutif de l'atome, que de voir dans le bruit l'élément constitutif de la cloche.

Or, les choses ont changé depuis qu'on reconnut que l'atome est constitué de charges électriques. On sait aujourd'hui que lorsque l'atome émet des rayons, sa masse diminue d'une quantité égale à la masse de ces rayons. Disons, pour employer l'expression de Jeans, qu'elle diminue juste comme le porc-épic que l'on dépouillerait d'une partie de ses piquants, diminuerait de son poids. (3)

Contrairement à ce que pensait Lavoisier, on ne reconstitue la masse de la chandelle brûlée que si l'on fait entrer en ligne de compte la quantité de chaleur et de lumière émises par la chandelle. Ces rayons ont réduit la quantité de la matière; autrement dit une partie de la matière s'est changée en force.

On assiste ainsi à l'écroulement de la loi de la conservation de la matière, une des plus vénérables lois de la Science physi-

(2) Voir l'Introduction à cet ouvrage par Herman Cohen.

(3) JAMES JEAN *The Mysterious Universe*, Chapter III.

que. Il en est de même de la loi de la conservation de la masse. Les trois lois de la conservation se réduisent en une seule : l'énergie se conserve ; elle ne se perd pas. Mais si elle ne change pas de quantité, elle change de qualité, dans ce sens que l'énergie se change en matière et vice versa.

En dernière analyse, dans l'univers perçu, il n'y a que des vibrations, du mouvement ; juste comme dans le langage télégraphique il n'y a que des traits et des points. C'est la pensée humaine qui donne à ces vibrations un sens et en fait la matière, l'espace, la chaleur, la lumière, le son etc. juste comme le télégraphiste interprète le message reçu par des chocs, plus ou moins lents, qu'il traduit en mots, phrases, discours ; et nous met ainsi en présence d'une scène vécue. Mais, effectivement, il n'y a que du mouvement.

Nous voici à un pas de la cause ultime. Car, après tout, il faut bien que le mouvement soit suspendu à une réalité. Nous sommes tout près de ce centre invisible dont l'univers n'est que l'écoulement extérieur, comme disait Emerson. Mais ne nous y précipitons pas. Nous ne pouvons pas impunément quitter nos procédés discursifs en saisissant intuitivement l'objet de notre recherche, à la manière des anges et des prophètes. Les grands mystiques le font bien ; mais, en général, nos contemporains héritiers de trois siècles de scientisme ne peuvent pas se passer d'un certain appareil philosophique. Restons donc dans ce domaine. Démocrite nous a déçu ; allons voir Pythagore.

D'abord, quelques mots sur sa personnalité. La vie de Pythagore est enveloppée de mystères. Il naquit à Samos au VI^e siècle avant l'ère vulgaire. On le fait voyager et s'instruire sur les sciences et les religions chez les Phéniciens, les Chaldéens, les Mages de la Perse, les Hindous, les Arabes et les Juifs et surtout chez les Egyptiens. Mais il n'y a aucune preuve valable de ces prétendus voyages. Il est néanmoins établi qu'il quitta sa ville natale pour aller s'installer à Crotone, ville de l'Italie ancienne où il y avait un terrain plus propice à la réalisation de ses projets. Il y fonda une école. Sa personne était entourée de tout l'éclat du merveilleux. Il fut, dit-on, adoré par les siens comme un être supérieur, par suite de ses prophéties et des miracles de toutes sortes qu'il aurait produits. Aristote aurait rapporté notamment qu'on a vu Pythagore simultanément à Crotone et à Metaponte, ancienne colonie grecque. On raconte aussi que Pythagore, après la mort d'un ami fut en relations constantes avec l'âme de cet ami, qu'il avait la faculté de domp-

ter les animaux sauvages par la parole, qu'il prévoyait l'avenir, qu'il avait notamment prédit trois jours à l'avance un tremblement de terre, en regardant l'eau d'une fontaine etc. etc.

On sait que Pythagore professait la doctrine de la transmigration des âmes, d'après laquelle, l'âme d'une personne morte reviendrait sur cette terre dans un autre corps. Pythagore lui-même passait pour avoir été le fils d'Hermès dans une vie antérieure. Hermès, dit-on, lui avait accordé la faculté de conserver à travers les phases de son existence, le souvenir de son passé tout entier. Aussi, seul parmi les mortels, Pythagore avait-il le privilège de percevoir l'harmonie des sphères.

Grâce à l'extraordinaire prestige de son fondateur, l'école de Pythagore ne tarda pas à devenir un centre attrayant vers lequel afflua une foule de disciples des deux sexes. L'école de Pythagore n'était pas seulement une association scientifique mais encore et principalement une corporation religieuse et politique. L'admission dans la société était, dit-on, subordonnée à des épreuves rigoureuses et à l'observation d'un silence de plusieurs années. On se représente généralement Pythagore ayant l'index verticalement appliqué à ses lèvres en signe du silence. Ses disciples se reconnaissaient à des signes secrets. On en distinguait trois classes. Les uns étaient des novices, des auditeurs libres, des exotériques. C'étaient les *akoustikî*. Les deux autres classes les *mathématikî* et les *phycikî* étaient les titulaires; les disciples proprement dits, les ésotériques.

Parmi les sciences, les Pythagoriciens cultivaient tout particulièrement, outre la Philosophie proprement dite, les Mathématiques qui doivent aux Pythagoriciens leurs premières découvertes. En appliquant les Mathématiques à la Musique, ils furent les créateurs de la théorie scientifique des sons, partie si importante du système pythagoricien. Mais ils ne se sont pas arrêtés là. Ils se servirent de la Musique tantôt comme un moyen de guérison et tantôt comme un procédé d'éducation.

Après les sons, les figures géométriques sont le premier objet auquel la théorie des nombres a dû être appliquée; puisque la forme et les relations des figures sont déterminées par les nombres. Enfin, les Pythagoriciens se sont livrés à l'étude des sphères célestes, à l'astronomie qui constitue un des principaux objets de leurs investigations.

Avant d'aller plus loin, je voudrais — ne fût-ce que pour donner à cet entretien une couleur locale — appeler votre attention sur le fait que la Confrérie musulmane connue sous le nom

de اخوان الصفاء *les Frères de Pureté* a subi une influence considérable de l'école pythagoricienne et nous en a transmis maints détails intéressants. La première épître de la magistrale Encyclopédie de cette confrérie, intitulée رسائل اخوان الصفاء — épître consacrée à l'étude du nombre — commence par ces termes :

"O Frère pieux et clément sache qu'étant donné que la doctrine de nos nobles Frères — que Dieu leur accorde son assistance — mène à l'étude de toutes les sciences des êtres que l'univers comporte, notamment : l'examen de la création des êtres, leur dérivation d'une cause, d'une origine unique et leur formation par un Créateur unique grand et puissant; vu qu'ils (ces Frères) allèguent des arguments empruntés aux nombres et aux figures géométriques en suivant l'exemple des sages Pythagoriciens, nous avons été amenés à placer en tête de nos épîtres, celle où nous exposerons certaines données de la science qui a pour objet les propriétés des nombres et que l'on désigne sous le nom d'arithmétique et ce, en guise de préambule afin de faciliter à ceux qui veulent s'instruire, la recherche de la Sagesse, dite la Philosophie etc." (4)

Passant ensuite à la classification des sciences, les Frères de Pureté, suivant l'exemple des Pythagoriciens, reconnaissent aux sciences Mathématiques les quatre branches que voici : l'Arithmétique, la Géométrie, l'Astronomie et la Musique (5)

Et pour justifier ce privilège reconnu à l'art musical à l'exclusion des autres, les Frères de Pureté recourent à la mise au point que voici :

"O mon Frère — que Dieu nous accorde son assistance par son esprit ! — sache que tout art exercé par nos mains, a com-

(4) Rassail Ikhwan assafa Ed. Egypte 1928 p. 23.

اعلم ايها الأخ البار الرحيم بأنه لما كان من مذهب اخواننا الكرام أيدهم الله النظر في جميع علوم الموجودات التي في العالم . . . وعن كيفية حدوثها ونشوتها عن علة واحدة ومبدأ واحد من مبدع واحد جل جلاله ويستشهدون على بيانها بمثلالات عديدة وبراهين هندسية مثل ما كان يفعله الحكماء الفيثاغوريون احتجنا ان نقدم هذه الرسالة قبل رسائلنا كلها ونذكر فيها طرفاً من علم العدد وخواصه التي تسمى «الأرتماطيقي» شبه للمخل والمقدمات لكيما يسهل الطريق على المتعلمين الى طلب الحكمة التي تسمى الفلسفة الخ.

(5) Ibid.

فلارياضيات اربعة أنواع اولها الأرتماطيقي والثاني الجومطريوالثالث الأسطرونوميا والرابع الموسيقى .

me matière, des corps naturels et aboutit à des formes corporelles. Tel n'est pas le cas de l'art de la Musique. Il a comme matière, des substances spirituelles qui sont les âmes mêmes des auditeurs. La musique produit sur elles des effets d'ordre spirituel. En effet les modulations composées de bruits et de sons musicaux produisent sur les âmes les mêmes effets que les artisans produisent respectivement sur les matières qu'ils manoeuvrent dans l'exercice de leurs métiers" (6).

Voilà pour la classification des sciences de l'école pythagoricienne, vue par les Frères de Pureté.

La formule caractéristique la plus générale de la Philosophie pythagoricienne affirme que le nombre constitue l'essence des choses; que tout est essentiellement nombre (7).

Le philosophe stagirite précise que contrairement aux idées qui, pour Platon, constituent les prototypes, les modèles des choses, pour Pythagore, les nombres constituent, eux-mêmes, les choses. Ils en sont à la fois la matière et la forme.

Or, les nombres sont pairs ou impairs, cette divergence est, d'après les Pythagoriciens, à la base de tous les contraires, de toute la diversité que comporte la création, notamment le parfait et l'imparfait le bon et le mauvais, le chaud et le froid, la lumière et l'obscurité etc.

Si les éléments des choses sont de nature opposée, un lien est nécessaire pour les unir et leur faire produire des êtres. Ce lien qui crée l'unité au sein du multiple, l'accord au sein du discordant consiste dans des rapports numériques que nous appellerions volontiers la formule algébrique ou la formule tout court; et que les Pythagoriciens appelaient l'*Harmonie*.

Ils l'appelaient aussi l'*octave* parce que, pour eux, les rapports perçus étaient les mêmes dans tous les phénomènes, aussi bien dans les mouvements des corps célestes que dans les sons

(6) Ibid p. 132

اعلم يا أخوتي أيديكم الله وإيانا بروح منه بأن كل صناعة تعمل بالدين فإن الهولي الموضوع فيها إنما هي أجسام طبيعية ومصنوعاتها كلها أشكال جسامية إلا الصناعة الموسيقية فإن الهولي الموضوع فيها كلها جواهر روحانية وهي نفوس المستمعين وتأثيراتها فيها تظهر كلها روحانية أيضاً. وذلك إن ألحان الموسيقى أصوات ونغمات ولها في النفوس تأثيرات كتأثيرات صناعات الصناع في الهوليات الموضوع في صناعتهم . . .

(7) Aristote Metaph. I. 5.

ΟΙ δ' ἀριθμοὶ πάσις τῆς φύσεως πρῶτοι, τὰ τῶν ἀριθμῶν στοιχεῖα τῶν ὄντων στοιχεῖα πάντων εἶναι ὑπέλαβον.

produits par la Musique. Il y a plus, d'après les Pythagoriciens, les astres par leur révolution produisent une série de sons qui, réunis, constituent une octave. Si nous n'entendons pas cette harmonie, c'est parce que, en règle générale, on ne perçoit une sensation que par son contraire. Par exemple, nous ne percevons la lumière qu'à travers l'obscurité. Par contre, faute de silence absolu nous ne nous apercevons pas de l'harmonie des sphères. Nous sommes dans le cas des habitants d'une forge qui, étant exposés à en entendre sans cesse le bruit, finissent par ne plus s'en apercevoir parce qu'ils n'ont jamais connu le silence. Ainsi que nous l'avons déjà dit, Pythagore, seul, parmi les mortels percevait l'harmonie des sphères; cela s'expliquerait par l'origine de nature céleste qu'on attribuait à ce personnage mystérieux.

Au chapitre correspondant dans les Epîtres des Frères de Pureté, ceux-ci semblent être convaincus que les ondes sonores émises par les sphères célestes sont captées par les âmes humaines et que le but de cette musique consiste à inciter ces âmes à s'élever vers ces sphères lorsqu'elles auront quitté leurs corps respectifs, c'est-à-dire après la mort ⁽⁸⁾.

Voilà un tableau rapide de la vie et la doctrine de Pythagore. Vous conviendrez qu'autant l'espace et les atomes de Démocrite se recommandaient par leur caractère concret, autant l'harmonie et les nombres de Pythagore échappent à l'esprit par suite de leur caractère abstrait. Il a fallu, en effet, vingt cinq siècles d'activité scientifique pour que nous soyons aujourd'hui à même de reconnaître que l'harmonie et les nombres de Pythagore ne sont pas de vains mots; puisque tous les phénomènes matériels de la Nature sont conditionnés par des vibrations qui prennent un sens chaque fois qu'elles se réalisent dans des proportions numériques constantes, selon des formules algébriques déterminées.

C'est dans ce sens que Camille Flammarion disait, à juste titre, que tout est harmonie; que la corde frissonne sous l'archet, la cloche vibre sous le choc du battant, les molécules s'agitent en cadence, comme les sphères dans l'espace.

En effet nous savons que les lois de Kepler qui régissent les

(8) Ibid p. 152 - 161.

والفرض منها التشويق للنفس الناطقة الانسانية الملكية للعود الى هناك بعد مفارقتها الأجساد التي تسمى الموت . . . —

planètes ne sont que des cas particuliers du grand principe de Newton exprimé par les nombres, et d'après lequel : deux molécules s'attirent en raison directe du produit de leur masse et en raison inverse du carré de leur distance.

C'est précisément parce que tous les corps célestes obéissent à cette harmonie, à des règles exprimables par des formules numériques, que leur révolution peut être tracée d'avance. On dirait que le Prophète Isaïe en a eue l'intuition lorsqu'il attribue au Créateur le mérite de faire défiler les armées des corps célestes par le nombre, en s'écriant : *hamotsi bémisbar tsevaâm*.

Mais, pour bien comprendre Pythagore, il faut que nous saisissons la notion de l'harmonie en prenant ce mot dans son acception la plus large. "L'Harmonie, dit encore Flammarion, n'est pas seulement la phonologie musicale écrite sur des portées et jouée par les instruments humains; elle ne consiste pas seulement dans ces chefs-d'œuvre vénérés à juste titre qui vinrent éclore au jour d'inspiration dans les cerveaux des Mozart et des Beethoven, l'Harmonie remplit l'univers de ses accords" (9).

En effet, c'est suivant un accord, une harmonie que les corps simples forment des corps composés. Cent parties d'oxygène, en poids, se combinent par exemple avec 12,50 d'hydrogène pour former de l'eau et avec 350 de fer pour former du protoxyde de fer. Il n'existe aucun moyen au monde pour que ces rapports constants puissent être modifiés d'une façon quelconque.

La Musique proprement dite est, elle-même formée tout entière par le nombre; chaque son est une série de vibrations en quantité définie et les rapports harmoniques des sons ne sont autre chose que des rapports numériques. La gamme est une échelle de chiffres, et les accords ne sont qu'une combinaison algébrique.

Ces remarques fondamentales suggérées par l'étude du son, s'appliquent aussi bien à l'étude de la lumière. De même que le ton dérive du nombre des vibrations sonores, de même les couleurs dérivent du nombre des vibrations lumineuses. La coloration d'un paysage est une sorte de musique. La verdure des prairies comme le fond d'une mélodie est formée par le nombre.

(9) CAMILLE FLAMMARION, Dieu dans la Nature, Livre I.

Si, en quittant ce domaine, nous examinons celui du monde organique, nous y trouverions la même harmonie, les mêmes rapports numériques. Les végétaux se modèlent selon leur type idéal; leurs feuilles se succèdent autour de la tige en nombres caractéristiques; leurs fleurs obéissent également à un ordre numérique qui constitue un des éléments de leur classification. Même remarque pour les animaux. L'homme lui-même est une unité formée de deux moitiés symétriques: une moitié gauche et une moitié droite soudées ensemble.

Galilée avait dit avec raison que le grand livre de la Nature est écrit en langage mathématique. La Nature semble être au courant des règles des Mathématiques pures que nos mathématiciens puisent à leur esprit, indépendamment de toute application d'ordre pratique. La chute d'une pomme, les vibrations d'une cloche, les oscillations d'une pendule, le flux et le reflux de la mer, les mouvements des électrons d'un atome s'effectuent par des agents qui semblent être tout à fait au courant des lois et principes des mathématiques pures.

D'après le témoignage de Plutarque, Platon disait que Dieu fait constamment de la géométrie Πλάτων ἔλεγε τὸν Θεὸν αἰεὶ γεωμετρεῖν

Nous savons, en effet, que dans la cosmogonie de Timée, le Demiurgus procède à la création des éléments en véritable géomètre en créant le feu d'un tétraèdre, l'air d'un octaèdre, l'eau d'un ecosaèdre et la terre d'un cube.

Mais, ce que Pythagore et Platon n'ont entrevu qu'à travers un voile, grâce au progrès de la science, nous le percevons de plus en plus nettement. Dans le domaine de la Physique, il y a aujourd'hui quasi unanimité sur le fait que le cours de la science aboutit à une réalité non mécanique. L'univers commence à ressembler moins à une machine qu'à une pensée. Le grand Architecte de l'univers apparaît comme un mathématicien.

On parlait jusqu'ici d'énergie cosmique, on est aujourd'hui en droit de parler d'une pensée cosmique, d'un foyer initial de lumière spirituelle dont les reflets sont nettement déchiffrés sur des phénomènes matériels qui en sont la fidèle expression.

Vous devinez sûrement la conclusion de cet entretien. Il y a environ cinquante ans, des habitants de notre globe, poussés par le double plaisir d'expansion et de curiosité, agitèrent longuement le problème tendant à établir un contact entre les ha-

bitants de la Terre et ceux de la planète Mars. Evidemment il fallait commencer par notifier à ces voisins célestes qu'il existe des êtres pensants sur la Terre. Or, à défaut d'un langage commun, toute tentative de communication s'étant avérée stérile, les savants eurent l'ingénieuse idée que voici : Dans les vastes plaines du Sahara on allumerait d'énormes chaînes de feu d'artifice, pour former un diagramme illustrant le fameux théorème de Pythagore. A ces spectacles, les mathématiciens de la planète Mars ne pourraient rester indifférents; ils y répondraient par d'autres démonstrations mathématiques; et par des efforts conjugués, le contact serait ainsi établi.

J'ignore si l'expérience fut tentée. Pour ce qui concerne notre étude, je dirais que les rôles sont renversés. Ici ce n'est point nous qui émettons un message à une planète quelconque, c'est notre planète qui en reçoit un de l'univers tout entier, un message rédigé en un impeccable langage mathématique, venant d'une source où tout est calculé, tout est mesuré.

A la lecture de ce message nous sommes portés à nous demander comme le Phophète Isaa : *Qui donc a mesuré les eaux dans le creux de sa main? Qui a pris les dimensions du ciel à l'empan? Qui a jaugé par le tiers d'une mesure la poussière de la terre? Qui a pesé au crochet les montagnes et les coteaux avec une balance?* (10).

Poser la question, c'est la résoudre. Ce qui est pensé provient d'une réalité pensante. Nous voici face à face avec le Dieu invisible Créateur et Gouverneur du monde. Le Prophète susmentionné qui a vécu environ trois siècles avant Pythagore l'intitule *Ossé chalom bimromaw*. Celui qui fait régner le *Chalom*, la paix, l'harmonie dans les sphères célestes. Il est évident que le concept d'un Dieu unique a de quoi faire régner la paix aussi dans nos modestes sphères terrestres. La Notion du Père céleste scientifiquement conçue peut et doit servir de signe de ralliement à tous les hommes sans distinction de race et de religion. Elle peut et doit servir aussi de réconfort à une Société gémissante sous le poids de la doctrine décevante que fut le matérialisme.

Dr. M. VENTURA

Grand-Rabbin d'Alexandrie.

THE "HALLUCINATION"

THEORY OF "THE TURN OF THE SCREW"

The "hallucination" theory of the "The Turn of the Screw" is best known in the discussion of it by Mr. Edmund Wilson in "The Triple Thinkers", though he disclaims having originated it. He states it as follows: "according to this theory, the young governess who tells the story is a neurotic case of sex repression; and the ghosts are not real ghosts at all but merely the hallucinations of the governess." This theory has been argued with such persuasiveness that it is time to refute it, and it can be refuted both by internal and by external evidence.

Mr. Wilson analyses the story at length, in the interests of his theory, so it will be well to provide an analysis of the story on its face-value.

In the prologue one Douglas introduces the governess's manuscript. He makes it clear that he completely believes in her story, and regards her as a person of the greatest distinction of mind and character. She is the daughter of a clergyman; in answer to an advertisement she comes up to London, and is offered a post by a rich, young bachelor who wants a governess for his orphaned niece and nephew. The conditions attached to the post are that she is to take complete responsibility, and never to bother the guardian about his wards. She accepts; it is admitted that she has fallen in love with her employer. She goes to Bly, his house in Essex, where Flora, the little girl has been left with the house-keeper, Mrs Grose, and some servants.

She learns that the boy, Miles, has been expelled from his school: no reason is given. She also learns from Mrs Grose that the former governess, Miss Jessel, went away, and died; Mrs Grose is obviously unwilling to pursue the subject.

In his analysis of this part of the story it is hard not to feel that Mr Wilson has been slightly disingenuous, in his attempts to shew the morbid mind of the governess. "The boy, she finds, has been sent home from school for reasons into which she does not inquire but which she colors, on no evidence at all,

with a significance somehow sinister... She learns that the former governess left, and that she has since died, under circumstances which are not explained but which are made in the same way to seem ominous."

After a period of halcyon days, when the children are at their most charming, and when the governess thinks all that is needed to complete her felicity is the presence of their guardian, approving her endeavours for them, there comes a change actually like the spring of a beast."

The figure of a man appears on one of the two towers of Bly, first taken by her for the master, and then seen obviously not to be he. Later he appears at the outside of a ground-floor window. She observes that he is wearing smart clothes, not his own. Mrs Grose at once identifies the description: he is a valet of the master's, Peter Quint, who had once been left in charge at Bly, and used to wear his master's clothes - Quint was dead. Mrs Grose also reveals that he was a bad character, and that he was "too free" with Miles, and "too free" with everyone. The governess believes that he has come back to haunt the children, and that it is her duty to protect them.

Soon afterwards the governess is sitting by the side of the lake, and Flora is playing near her. She becomes aware of a third person on the other side of the lake. Flora has her back to the water: "she had picked up a small, flat piece of wood which happened to have in it a little hole that had evidently suggested to her the idea of sticking in another fragment that might figure as a mast and make the thing a boat. This second morsel, as I watched her, she was very markedly and intently attempting to tighten in its place." The governess looks up and sees a handsome but evil woman in black, whom she concludes to be her predecessor. Mrs Grose confirms that Miss Jessel was "infamous", reveals that she had an affair with Quint, and implies that she went home to have a child by him, and died in consequence. The governess believes, encouraged in this belief by Mrs Grose, that the children know of and connived at the affair between Quint and Miss Jessel, and had been in some way corrupted by them; she further believes that they know that their dead friends haunt Bly.

At this point Mr Wilson states, correctly, that there is as yet no proof of anyone but the governess having seen the apparitions. He also calls attention to the Freudian imagery: the little girl's symbolic game with the pieces of wood, which so

held the governess's gaze, and the first apparition of the male spectre on a tower, of the female by a lake. These points will be considered later.

The only circumstance he admits as contradictory to his hypothesis that the ghosts are hallucinations, is the fact that the governess's description of the first ghost is identified by Mrs Grose as Quint, of whom she has not yet heard. With great ingenuity he tries to shew that she has built him up out of a chance hint from Mrs Grose that there had been someone else in the place, other than the master, who "liked everyone young and pretty." However the description of Quint is so circumstantial that it cannot be so easily explained away. Furthermore, Miss Jessel is also seen distinctly before the new governess has any details about her, and she is convinced of her "infamy", although the worst Mrs Grose had ever hinted was that she was not sufficiently "careful" in some matters. Before her appearance behind the lake, nothing was known to her successor of Miss Jessel's affair with Quint; we are expressly told that there had been no servants' gossip. But the chief objection to the "hallucination" theory is the character of the governess herself, so carefully established in the prologue, and maintained throughout the story, as that of a girl keeping her balance and courage in the most frightful circumstances.

After a second, brief, halcyon period "there suddenly came an hour", the narrator tells us, "after which, as I look back, the affair seems to me to have been all pure suffering." There is a third appearance of Quint, and the mysterious conduct of the children convinces the governess that they are in touch with the ghosts. "They're his and hers... Quint's and that woman's" she tells Mrs Grose. "They want to get to them." Quint and Miss Jessel are coming back to keep the children safe for Evil. Mrs Grose wants the governess to write to their uncle, but she decides that she must keep to her pledge, and not bother him.

The children keep up the fiction that their uncle is coming to see them. Miles asks his governess when he is going to school again, and says that he will get his uncle to come down to Bly. This plunges her in an agony of indecision, and she is tempted to run away from the situation, but decides that she must not desert her post. Mr Wilson states at this point: "she is now apparently in love with the boy" — but this is not apparent on a natural reading of the text.

There follows the second appearance of Miss Jessel, and a

curious manifestation in Miles's room, where Mr Wilson admits that the supernatural element can only be explained away by throwing doubt not only on the governess's explanation of her sensations, but also on her record of the sensations themselves. "She has felt a 'gust of frozen air', and yet sees that the window is 'tight'. Are we to suppose she merely fancied that she felt it?" We shall see later the value of this admission.

Flora, having been lost, is found by the side of the lake. The governess for the first time names the ghosts: "where, my pet, is Miss Jessel?" she asks. The dead governess appears, dreadfully, across the lake. "She was there, so I was justified, she was there, so I was neither cruel nor mad:" (The first person to examine, and to reject the hallucination theory is the governess herself). Mrs Grose does not see the apparition, and Flora denies that she sees it, turning in a violent reaction of hatred against the living governess. She continues in this state, and is sent up to London with Mrs Grose.

Miles and the governess are left alone together. She presses him to tell her why he was expelled from school, and he confesses. He "said things", to "a few", to those he liked, and they must have repeated them "to those they liked." "It all sounds very harmless", is Mr Wilson's extraordinary comment. It is hard to imagine anything much more harmful: the little boy of innocent even angelic appearance, with a mind filled with the abominations of Quint and Miss Jessel, spreading his dirty secrets round the school. In a moment the governess has seen an even more dreadful possibility: "there had come to me out of my very pity the appalling alarm of his being perhaps innocent." He might have been the innocent carrier of the germs of corruption, ignorant of what he carried, and unjustly punished for carrying them.

This is the moment of the governess's victory, when Miles's soul is purged by confession, and there is complete confidence between them. Quint makes a last attempt against him; the boy does not see the apparition at the window, but the governess cries: "no more, no more, no more!"

"Is she here?" asks the boy, and names Miss Jessel. Mr Wilson comments, in direct contradiction to the text: "He has, in spite of the governess's efforts, succeeded in seeing his sister and has heard from her of the incident at the lake." We have Mrs Grose's word as well as the governess's that the children

have not met — but Mr Wilson is bound to go to this length if he is to keep his theory.

The governess says that it is not Miss Jessel. "It's he?" asks Miles. Whom does he mean by "he"? she enquires. "Peter Quint - yon devil."

She holds him in her arms, shews him that the figure has vanished. He gives a cry, and dies in her arms. On the "hallucination" theory she has frightened him to death. On a natural reading he dies, worn out by the struggle between good and evil, in the moment of triumph, like Morgan Morcen in *The Pupil*.

The "hallucination" theory can then only be held

(1) If we disbelieve Douglas's estimate of the governess's character.

(2) If we give a very strained explanation of her description of Quint.

(3) If we believe that she is deluded about the very sense-data experienced in Miles's room, not only in her interpretation of them.

(4) If we believe, on no evidence, that Miles had got into touch with Flora after the scene by the lake.

But the chief objection is one of general impression: this is not what the story means, and only perverted ingenuity, of a kind which has little to do with literature, could have detected the "clue." This is the ultimate answer to all such theories, from the Shakespeare — Bacon controversy to Verrall's brilliant perversities about Greek tragedy. In this case, there is a desire for a "scientific" explanation, an unwillingness to make the necessary "suspension of disbelief" in ghosts, which is utterly opposed to the spirit in which the book should be read. It is only because the theory has received the support of a critic of Mr Wilson's importance that it is worth proceeding further to its final refutation.

Mr Wilson cites the preface to "The Turn of the Screw" as external proof of his theory.

(1) Peter Quint and Miss Jessel are not "ghosts at all, as we now know the ghosts, but goblins, elves, imps, demons as loosely constructed as those of the old trials for witchcraft."

(2) Henry James speaks of "our young woman's keeping crystalline her record of so many intense anomalies and absurd-

dities — *by which I don't of course mean her explanation of them, a different matter...*" (Mr Wilson's italics). Mr Wilson says of the words in italics: "these words seem impossible to explain except on the hypothesis of hallucination."

But if we believe "our young woman's" record of the actual happenings to be crystalline clear, it is on that alone extremely difficult to accept the hypothesis of hallucination, as I have already shewn. Moreover the preface itself shews us how we can doubt her explanation of the happenings, without supposing her to be the victim of hallucination. She clearly believes that she sees the spirits that once animated the earthly bodies of Quint and Miss Jessel; we can believe that she did indeed see *ab extra* apparitions, that another person with the right vision could have seen, without accepting her view of their eschatological status. They are not spirits of the dead, matter for psychological research, but "goblins damned" — devils that have assumed the form of Quint and Miss Jessel to tempt the children. And this is surely the clear meaning of what Henry James says in the preface.

If Henry James were trying to hint in his preface that the ghosts were hallucinations, then he was going about this in a very tortuous way; it seems rather that there alone he has provided enough evidence to discredit this theory. Yet Mr Wilson can write: "When we look back in the light of these hints, we become convinced that the whole story has been primarily intended as a characterization of the governess." If this were what he really intended, then we could only explain Henry James's references in his letters to "The Turn of the Screw" on the hypothesis that he was a pathological liar.

As he nearly always did, Henry James began to construct this story not from a character, but from a scrap of anecdote. This scrap of anecdote had been told him by Archbishop Benson at Addington: "the vaguest essence only was there — some dead servants and some children. This essence *struck* me and I made a note of it (of a most scrappy kind) on going home."

On the character of the governess, his letter to H.G. Wells is quite final: "Of course I had, about my young woman to take a very sharp line. The grotesque business I had to make her picture and the childish psychology I had to make her trace and present, were, for me at least, a very difficult job, in which absolute lucidity and logic, and a singleness of effect were imperative. Therefore I had to rule out subjective complications

of her own — play of tone &c., and keep her impersonal save for the most obvious and indispensable little note of courage — without which she wouldn't have had her data."

In short, the governess is the Jamesian observer or narrator, deliberately left *flou*, and only characterized up to the point which will make her observation plausible. The point of the story lies in the original anecdote told by the Archbishop.

Mr Wilson argues that it lacks "serious point" unless sex-frustration is the point; and he links it with Henry James's studies of spinsters in "The Bostonians" or "The Marriages." But the affinity is surely rather with "The Pupil" or "What Maisie Knew"; with the latter book, published in 1896, a year previous to "The Turn of the Screw", the affinity is particularly close — that book ends with the rescue of a small child by a faithful governess from possible corruption at the hands of two immoral step-parents.

Of "The Turn of the Screw" Henry James wrote to F.W. H. Myers: "the thing I most wanted not to fail of doing, under penalty of extreme platitude, was to give the impression of the communication to the children of the most infernal imaginable evil and danger — the condition, on their part, of being as *exposed* as we can humanly conceive children to be." This is surely a sufficiently serious point, and the fact that the details of the Evil are left to our imagination, links "The Turn of the Screw" with other stories of Henry James's where a secret is never revealed to the reader, e.g. "The Figure in the Carpet" and "Owen Wingrave."

The data given to Henry James by the Archbishop were an old house, and two children haunted by dead servants, with the design of "getting hold" of them. He has added a governess, a rich and handsome guardian, and an old house-keeper. Whence do these three figures derive? I think from "Jane Eyre". Jane Eyre went as governess to the orphaned ward of a rich bachelor (as she thought him), and had a housekeeper for company; she also was in love with her employer. When the first apparition of Quint is seen, the governess of "The Turn of the Screw" asks herself: "was there a 'secret' at Bly — a mystery of Udolpho or an insane, an unmentionable relative kept in unsuspected confinement?" It is much to say that she had been reading "Jane Eyre", as well as "The Mysteries of Udolpho"; the events of "The Turn of the Screw"

are dated about the time of the publication of Charlotte Brontë's novel. But Henry James knew "Jane Eyre", even if the governess did not, and it is hard to resist the conviction that he was here thinking of the mad Mrs Rochester.

It is from Literature, not from the abnormal psychology of Henry James or of his governess, that the relations between her and the ghosts arise.

All that is left of the "hallucination" theory after close examination, is the fact, on which it was based, of the sexual imagery in "The Turn of the Screw": the man appears for the first time on a tower, wearing the clothes of the master, with whom the governess is in love: Miss Jessel appears for the first time behind a lake: Flora plays a symbolic game with pieces of wood. This is an interesting discovery, but of limited importance, and it is dangerous to draw too many conclusions from it.

Mr Stephen Spender makes the following comment in "The Destructive Element": "The only difficulty is that if the imagery were worked out consciously, it is hardly likely that James would have anticipated Freud with such precision. The horrible solution suggests itself that the story is an unconscious sexual fantasy, or that James has entered into the repressed governess's situation with an intuition that imposed on it a deeper meaning than he had intended."

This is not, as we have seen, "the only difficulty". And fortunately a solution can be suggested less distasteful than to call (however indirectly) a great writer a "repressed governess."

The sexual imagery is of a surface nature, the decoration of the story and not the story itself — it is giving it a quite disproportionate importance to call the story a "sexual fantasy" on the strength of it. On might as well, on the strength of Miss Spurgeon's studies, say that "Romeo and Juliet" is a sun myth, because she has shown that the dominating image in that play is Light.

The imagery in "The Turn of the Screw", one need hardly doubt, comes from the subconscious of an author, who was not aware of its sexual significance. Nor need that conclusion alarm us, if we consider what his conscious intelligence was at the moment triumphantly doing — it was making a great work of art out of a diabolically dirty story, treating the theme both with candour, and with crystalline purity. If some unresolved

elements lingering in the unconscious, (one can hardly touch dirt without some of it sticking), have found their resolution in the imagery, and have added to the total atmosphere of evil, it is only another illustration of the way that everything at times miraculously works together for good, when a novelist is producing a great novel. If we are aware of the symbolism, and do not let it delude us, it adds to our appreciation of "The Turn of the Screw."

Robert LIDDÉLL

EXISTENCE ET LIBERTÉ

L'auteur suppose qu'il est libre. En possession de sa liberté que va-t-il faire? suivant quel principe agira-t-il?

I.- *Le choix réfléchi.* Chaque parti présente un pour et un contre. La difficulté subsiste même lorsque le choix est très limité; elle se déplace seulement. Cette impossibilité de décider de l'usage à faire de la liberté vient de ce que l'homme ne veut se déterminer que pour le meilleur. Or le meilleur, serait-il déterminable, peut se révéler comme le pire. Le moins bon est nécessaire, à côté même du meilleur. Le mauvais peut conduire au bon. Supposons que l'homme considère qu'il n'y a pas de choses meilleures mais des choses qui s'équivalent, alors il prendra une de ces trois attitudes : ambiguïté, alternance, acte divergent pour essayer d'obtenir les choses sans sacrifice de l'une au détriment de l'autre. Mais ce ne sont que des compromis, non des solutions.

II.- *L'abandon.* Si l'intelligence est incapable de me guider, je ferais mieux de me laisser aller complètement à ma nature. Quiétude de celui qui s'abandonnant, n'a pas besoin de choisir. Les divers procédés destinés à orienter l'action sans qu'il soit besoin de réflexion; le coup de dés, le tirage au sort, la divination. Mais la fixation sociale et religieuse de ses procédés : l'hérédité, l'ordre du monde, indique que l'homme veut ramener le hasard à une loi acceptable par l'intelligence. Il serait pourtant beau que chaque être obéît à sa nature et remplit sans essayer de la comprendre la tâche qui a lui a été assignée par le destin. Objections : notre fonction ne nous définit pas entièrement; si elle le faisait, la société serait condamnée à l'immobilité; la caractéristique de l'homme, et l'essence de sa liberté est peut-être dans le refus, par suite de la surabondance de son être.

III.- *L'engagement arbitraire.* D'après la conception précédente la Nature était fixe. L'est-elle vraiment? Les temps modernes l'ont nié. Au siècle dernier surtout les conceptions traditionnelles de Dieu, de la société, de la science, de l'art ont été remises en question. On ne croit plus qu'il y ait une

nature humaine. Conséquence : l'homme peut beaucoup, puisqu'il a l'industrie; il peut tout puisqu'il n'est limité par rien, il n'a même plus de nature, il n'a qu'une condition. Une stabilité apparente cache une instabilité totale. Discussion de la valeur théorique de la décision arbitraire : elle n'est pas plus justifiable que le laisser-aller.

IV.- *Le dégagement.* Il est impossible de s'engager sans savoir à quoi l'on s'engage et en vertu d'une décision arbitraire. Aussi le désespoir peut-il succéder à la frénésie. Il se peut qu'aucune valeur humaine ne compte parce que trop éloignée de la Valeur suprême. Il se peut aussi qu'aucune valeur ne compte et ne puisse être remplacée par aucune autre. Or il est impossible d'échapper à la reconnaissance ou à la création d'une valeur. Je ne suis libre que lorsque j'ai fini de me dégager et n'ai pas encore commencé de m'engager. Cette attitude ambiguë ne peut être tenue longtemps, et il faut en revenir à la réflexion pour choisir, réflexion que nous avons déclaré au début être insuffisante, quoique nécessaire.

Jean GRENIER

Y-A-T-IL UNE CRISE DES MATHÉMATIQUES CONTEMPORAINES?

§ 1. — Une crise de *rigueur* en matière de mathématique a provoqué dès le 19^e siècle, parmi les mathématiciens soucieux d'assurer leur discipline, des critiques fiévreuses des notions et principes fondamentaux de la *Géométrie* et de l'*Analyse*. Elle a posé ainsi un problème d'un genre nouveau, essentiellement philosophique: celui du *fondement* de ces disciplines. C'est autour de ce problème que sont nées, on le verra plus loin, les écoles les plus opposées en mathématiques contemporaines.

En effet, certaines exigences du *progrès intensif* ⁽¹⁾ des mathématiques au XIX^e siècle concourent avec celles qui se sont manifestées en Géométrie ⁽²⁾ à la critique de l'*évidence intuitive* des principes de l'*Analyse*. D'abord, il y a eu le besoin de donner une base solide à celle-ci en élucidant les difficultés déjà mûres pour le Calcul Infinitésimal en ce qui concerne les séries divergentes, le minima, le maxima, les dérivées, etc. En 1826, Abel pouvait se plaindre encore qu'on raisonnât sur des séries divergentes: "Elles sont quelque chose de fatal, dit-il, et c'est une bonte qu'on ose y fonder aucune démonstration. Ce sont elles qui ont fait tant de malheurs et causé tant de paradoxes" ⁽³⁾. Des malheurs et des paradoxes parce que les notions de l'*Analyse* étaient assurées jusque là par l'*évidence* de leur corrélat géométrique (spatial). D'Abel et de Cauchy, jusqu'à Weierstrass, les Analystes se sont voués à la critique et à la révision de leurs idées fondamentales — infini, continuité, fonction, limite, dérivée, nombre complexe, irrationnel, etc. — en les affranchissant des bornes où l'intuition géométrique les avait longtemps retenu enfermées, et en les développant hors de ses limites arbitraires. Cette critique réussit enfin depuis

(1) Au *progrès extensif* qui est l'adjonction de telle ou telle théorie nouvelle, nous opposons le *progrès intensif* qui est le fruit d'une réflexion en profondeur sur les faits déjà acquis à la suite de laquelle ceux-ci apparaissent dans de nouvelles combinaisons ou structures (Cf. notre *Extension de la Logique et fondement des Math.*, ch. III, § 22).

(2) Nous ne nous occupons pas ici de la Géométrie, dont la critique a révélé, on le sait, la coexistence idéale de plusieurs géométries autres que celles d'Euclide.

(3) Abel, dans le *Journal de Crelle*, t. i, 1820, p. 311.

Weierstrass et Meray à apporter son fruit : Elle a affiné les sciences mathématiques jusque dans leurs parties les plus délicates en les édifiant entièrement sur l'idée du *nombre entier*. C'est en ces deux auteurs que s'épanouit en effet ce qu'on a appelé avec Kroneker et Klein l'*arithmétisation des mathématiques*. Mais tandis que la critique approfondie de l'Analyse Infinitésimale semblait chasser l'idée de l'infini et de l'infinitésimal, en réduisant ses théorèmes aux cas des variables indéfiniment croissantes et décroissantes, un travail se faisait sur l'*Arithmétique* elle-même : Une exploration plus soignée des principes de cette science, par Georg Cantor, arrivait à résoudre l'enigme de l'Infini, en dénuisant les paradoxes qui, depuis Zenon d'Elée, avaient arrêté la pensée dans cette direction. Cette exploration dite *théorie des ensembles* ne confirme pas seulement la tendance arithmétisante en mathématiques, mais, comme l'analyse de Zenon, touche de près la Logique, surtout sous sa forme algébrisée; et cela en faisant appel à certaines notions et propriétés opératoires qui caractérisent particulièrement la logique de l'Ecole de Boole. Telles par exemple la notion même d'"ensemble" qui n'est autre que celle de "classe", et les opérations additive et multiplicative dans le domaine du transfini qui donnent des résultats analogues à ceux du principe de tautologie ou de dualité logique. On a par exemple en logique :

$$\begin{aligned} a + a &= a \\ a \times a &= a, \end{aligned}$$

ce qui est l'analogie, p.ex., des théorèmes suivants de G. Cantor concernant le nombre ordinal transfini :

$$\begin{aligned} \eta &= \eta + \eta \\ \eta &= \eta \times \eta \\ \eta &= (1 + \eta) \eta \\ \eta &= \eta^\eta \end{aligned}$$

autrement dit, dans un cas comme dans un autre, les opérations additive et multiplicative ne changent en rien l'égalité. Par conséquent, l'*axiome de l'inégalité* (le tout est plus grand que la partie) d'Euclide est une proposition qui est en défaut par rapport aux classes logiques ainsi qu'aux nombres transfinis. "Mais si nous ne considérons que la mathématique et laissons de côté les autres sphères intellectuelles (la logique p.ex.), la théorie des ensembles embrasse les domaines de l'Arithmétique, de la théorie des fonctions et de la Géométrie; elle les réunit sur la base de l'idée de *puissance* en une unité supérieure. Dis-

continu et *continu* se trouvent de la sorte considérés du même point de vue et mesurés avec une mesure commune" (1). Tel est le fait suprême qu'a établi Cantor.

§ 2. — A peine la construction de sa théorie mathématique du transfini est-elle terminée, après un départ difficile dans une méfiance justifiée par l'échec des spéculations antérieures sur l'infini actuel (Zenon, Gallilée, Leibniz, Cauchy, Bolzano, Du Bois - Raymond, etc), que des *paradoxes* sérieux viennent en secouer les fondements d'un ébranlement menaçant de s'étendre à l'Analyse et soulevant parmi les mathématiciens des discussions interminables quand à la justification entière de la théorie cantorienne ou à sa délimitation possible.

Dès 1897, Burali-Forti avait signalé une antinomie concernant la considération de la totalité des ordinaux transfinis : Cantor démontre que les nombres ordinaux transfinis peuvent être rangés en une série linéaire telle que de deux nombres inégaux, l'un soit plus petit que l'autre, et que le plus grand ordinal soit le terme de la série. Or, Burali-Forti remarque, en substance, que la série peut avoir un nombre ordinal plus grand encore que son dernier terme, et que par conséquent le plus grand ordinal transfini n'est pas le plus grand ordinal transfini : ce qui est une contradiction (2). Peu de temps après fût découverte l'antinomie de Zermelo (3) - Russell, que ce dernier publia le premier en 1903. Elle concerne le nombre cardinal transfini, et peut s'énoncer comme suit : L'ensemble de tous les ensembles qui n'ont aucun élément en commun peut être regardé lui-même comme l'un de ses sous-ensembles, c'est-à-dire comme un ensemble qui se contient et ne se contient pas à la fois, ce qui est une contradiction (4). En 1905, J. Richard publia encore l'antinomie suivante : avec un nombre fini de mots, il est possible de définir un nombre au sujet duquel on peut démontrer en même temps qu'il est indéfinissable par un nombre

(1) G. Cantor, dans *Math. Ann.*, t. XX, p. 182.

(2) Burali-Forti : *Una questione sui numeri transfiniti*, dans *Rendiconti del Circolo matematico di Palermo*, XI, 1897, p. 164. Voir aussi sa *Logica Mathematica*, 1919, p. 330.

(3) « J'avais trouvé moi-même, déclare Zermelo, cette antinomie indépendamment de Russell et l'avais communiquée... au professeur Hilbert avant 1903 ». (*Neuer Beweis die Wohlordnung*, *Math. Ann.* t. 65, 1908, p. 119 n.)

(4) Russell : *Principles of Mathematics*, 1903, p. 101. — *Les Paradoxes de la logique*, *Rev. de Mét. et de Mor.*, 1906, p. 287; même loc., 1910 et 1911. — *On Some difficulties in log.*, dans *Proc. of London Math. Soc.* 1906.

fini quelconque de mots ⁽¹⁾. Suivent ensuite maintes autres antinomies ⁽²⁾, qui ont toutes déterminé les mathématiciens à en chercher une solution ou à les éviter; et dans ce but ceux-ci se sont vus amenés à justifier la théorie des ensembles dans son intégrité ou à la délimiter à certaines de ses parties, manifestant ainsi pour la première fois dans l'histoire des mathématiques des divergences telles qu'ils se séparent en *Ecoles* non seulement à l'égard des ensembles, mais encore à l'égard de toutes leurs disciplines constituées. C'est donc à propos de ces antinomies que s'est allumée la controverse, caractéristique de notre époque, qui divise les mathématiciens en deux camps opposés: *idéalistes* et *empiristes* comme le dit Du Bois-Raymond ⁽³⁾, ou encore *formalistes* et *intuitionnistes* comme on le dit communément aujourd'hui en suivant la désignation de Brouwer ⁽⁴⁾. Il ressort même de l'état actuel des discussions que les deux attitudes mentales opposées ne paraissent pas seulement comme historiquement liées aux origines des quelques doctrines mathématiques, mais encore comme deux interprétations possibles des doctrines toutes formées, ainsi qu'on le voit déjà dans le dialogue de Paul du Bois-Raymond entre un idéaliste et un empiriste, ou tout récemment dans le dialogue du mathématicien suisse, F. Gonseth ⁽⁵⁾. Par conséquent, il y a entre *formalistes* et *intuitionnistes* d'abord une opposition localisée dans la théorie des ensembles dont dépend le sort même de cette mathématique du transfini; ensuite une opposition généralisée à toute les mathématiques constituées, au sujet des principes méthodologiques capables de les fonder et dont l'enjeu est certaines théories mathématiques classiquement admises. Nous nous occupons pour l'instant de la première opposition (la seconde sera discutée aux §§ 6 et 7).

§ 3. — D'abord, du point de vue de l'empirisme, Poincaré fait ressortir, le premier, que toute proposition concernant le transfini doit être regardée comme une proposition concernant

(1) J. Richard, dans *Rev. Gen. des Sc.*, 1905; et *Acta Mathematica*, 1906, p. 295; 1909, pp. 377 et 193.

(2) Telles que celle du catalogue des catalogues, des mots prédicables et imprédicables, etc. etc. Voir un exemple typique de ces paradoxes dans Colerus: *De Pythagore à Hilbert*, tr. fr., p. 251.

(3) Du Bois-Raymond: *Die allgemeine Functiontheorie*, 1882.

(4) Brouwer: *Intuitionism and formalism*, dans *Bull. of Amer. Math. Soc.*, t. XX, 1914, p. 31-95.

(5) F. Gonseth: *Math. et Réalité*, 1936.

le fini, autrement elle ne sera pas "vérifiable": "Comme les vérifications ne peuvent porter que sur les nombres finis, il s'ensuit que tout théorème sur les nombres infinis, ou sur ce qu'on appelle ensembles infinis ou cardinaux transfinis, ou ordinaux transfinis, etc... etc..., ne peut être qu'une façon abrégée d'énoncer des propositions sur les nombres finis. S'il en est autrement, ce théorème ne sera pas vérifiable, il n'aura pas de sens" (1). Inutile donc d'isoler le transfini, de lui attribuer des propriétés qui ne se vérifient pas pour le fini.

De là l'attitude empirique, plus explicite de Borel, de "regarder comme réels les êtres avec lesquels il (= le mathématicien) vit quotidiennement et dont il parle couramment sans avoir été jamais exposé à un malentendu" (2). Partant de ce critère, il distingue entre "des parties de la théorie des ensembles qui ont effectivement contribué au progrès de la théorie des fonctions", et "des constructions logiques purement verbales dans lesquelles on jongle avec les symboles auxquels ne correspond aucune intuition" (3). Les paradoxes des ensembles ont précisément leur source, selon lui, dans ces constructions logiques ou vides d'intuition: "Je ne comprends pas, s'écrie-t-il, le point de vue des analystes qui croient pouvoir raisonner sur un individu déterminé, mais non-défini; il y a là une contradiction dans les termes..." (4). Or, qu'est ce que l'individu défini caractéristique du système de Borel sinon l'intuition — par opposition aux constructions logiques — d'une part du nombre entier, et d'autre part du continu géométrique? C'est à partir d'eux que s'établissent les objets mathématiques: Si la suite indéfinie des entiers est parfaitement saisissable, c'est qu'elle est soumise au contrôle de l'intuition montrant qu'"après chaque entier, il y en a un autre". Par contre, la suite des ordinaux, que Cantor appelle "classe II", ne fait pas partie des mathématiques réelles, "car la proposition analogue — au delà de chaque suite indéfinie de fonctions croissantes, il y a une autre — ne suffit pas à nous donner une idée nette du transfini"; et il ajoute au sujet de ces ordinaux de la Classe II: "Lorsqu'on raisonne sur ces nombres ou sur un ensemble de même puissance, on ne peut donc faire que des raisonnements très généraux ou symboliques, dans lesquels l'ensemble considé-

(1) Poincaré: *Science et Méthode*, p. 136.

(2) E. Borel: *Leçons sur la théorie des fonctions*, 1914, p. 169.

(3) Ibid., p. 181.

(4) Ibid., p. 92.

ré est représenté par un symbole unique. De tels raisonnements en tant que raisonnements généraux sont légitimes du moment qu'ils sont exempts de contradictions, mais ils sont vides de tout contenu précis. Pour pouvoir leur donner un contenu, il faudrait préciser la désignation des éléments de l'ensemble, et c'est précisément ce qui est impossible. La théorie des ensembles non-dénombrables se réduit forcément à une sorte d'algèbre de logique dont les symboles ne recouvrent aucune réalité accessible, les divers mathématiciens ne pouvant être assurés qu'ils sont d'accord sur cette réalité puisqu'ils n'en ont pas une représentation commune" (1). Borel évite ainsi d'envisager une solution des antinomies en *amputant* tout simplement les nombres transfinis: "ces constructions logiques" qui ne possèdent nullement cette réalité mathématique caractéristique "des êtres avec lesquels le mathématicien vit quotidiennement". — Cette position de Borel est plus ou moins partagée par d'autres éminents mathématiciens tels que Baire et Lebesgue. A-t-on le droit de disposer ainsi de la théorie des ensembles au nom de la seule intuition? Et l'intuition peut-elle fournir une "représentation commune" qui assurera l'accord entre mathématiciens? On verra des intuitionnistes, plus radicaux encore que Borel, tels que Brouwer et Weyl, qui montreront que l'Analyse regardée par Borel comme l'expression même de ces êtres mathématiques dont il était question tout à l'heure, souffre elle-même et au nom de la même intuition de certaines imperfections dont le remède sera encore une amputation plus radicale que celle du transfini, puisque plus menaçante aux parties les plus établies de la science mathématique: l'Arithmétique et la Géométrie. Par conséquent, la distinction entre êtres mathématiques et constructions logiques, sur laquelle s'est basé Borel ne semble pas assurer la validité d'une doctrine mathématique étant donné que l'intuition est un événement tout personnel, ainsi qu'on le voit de la division des empiristes entre eux.

§ 4. — Si les empiristes se fondent sur l'intuition dans le rejet du transfini cantorien, et par ce rejet ne s'embarrassent point des paradoxes signalés; par contre les *formalistes* soutiennent que la *consistance logique* à elle seule suffit à valider une doctrine mathématique telle que la théorie des ensembles. Partant de là, ils cherchent, pour sauver intact l'édifice cantorien, à triompher de ces paradoxes: soit en *axiomatisant* cet édifice (Zermelo, Skolem, Fraenkel, Neumann), soit en générali-

(1) Ibid., p. 160-1.

sant ces paradoxes aux objets purement logiques et en introduisant une théorie de *types logiques* qui a pour but de remédier au mal antinomique à sa source lointaine (Russell, Whitehead, Ramsey, Quine). Nous sommes donc en présence de deux solutions formalistes différentes mais aussi voisines en tant que formelles.

Pour Zermelo, à qui revient l'initiative d'axiomatiser la théorie des ensembles en 1908, les paradoxes sont dûs à la définition cantorienne de la notion d'ensemble comme "Zusammenfassung, von bestimmten Vohlunderschiedenen Objekten unserer Auschauung oder unseres Denkens zu einem Ganzen"; et il établit un système d'axiomes où cette notion est prise comme indéfinissable. "Partant de la théorie des ensembles historiquement existante, dit-il, il faut chercher les principes qui sont nécessaires pour la fondation de cette discipline mathématique. J'ai l'intention de montrer comment cette théorie créée par Cantor et Dedekind se laisse ramener à quelques définitions et à sept axiomes qui semblent indépendants les uns des autres". Il s'agit de "restreindre assez les principes pour exclure les contradictions et... garder pourtant ce qui a une valeur" (1). La méthode, remarque justement J. Cavaillès (2) est celle dont D. Hilbert avait donné le modèle pour la géométrie dès 1899. Entre les objets indéterminés qui constituent le champ de la théorie, l'axiomatique définit par ses propriétés une relation fondamentale E : élément-ensemble. Les seconds termes de cette relation seront les ensembles: ou plutôt la théorie ne s'occupe que de déduire logiquement de nouvelles propriétés à partir des propriétés initiales de la relation c , sans s'inquiéter de la réalité ou de la structure des termes. L'axiome I — de la *détermination* — définit une relation: la relation d'égalité = suite des relations E et c ($M=N$ si $M \subset N$ et $N \subset M$, ou si pour tout $x \in M$, $x \in N$ et réciproquement). L'axiome II — des *ensembles élémentaires* — pose comme ensembles: l'ensemble vide, les ensembles constitués de un et de deux éléments. L'axiome III — de *séparation* —: si une proposition $E(x)$ est définie pour tous les éléments d'un ensemble M , M possède toujours une partie ME constituée par tous les éléments x de M pour

(1) Zermelo: *Untersuchungen über die Grundlagen der Mengenlehre*, I, *Math. Ann.*, 1908, p. 261, cité par J. Cavaillès: *Remarques sur la formation de la théorie abstraite des ensembles*, II, 1938, p. 120.

(2) Voir au sujet des axiomes suivants l'ouvr. cité de Cavaillès, p. 121-2.

lesquels $E(x)$ est vrai. Les axiomes IV et V posent respectivement l'existence de l'ensemble des parties BM d'un ensemble donné et de l'ensemble réunion CM formé par les éléments des éléments de M . L'axiome VI — *de choix* — si T est un ensemble dont tous les éléments sont des ensembles disjoints non vides, leur réunion CT contient au moins une partie S , qui a, avec chaque élément de T , un et un seul élément commun. Enfin l'axiome VII — *de l'infini* — : il existe un ensemble Z qui contient comme éléments l'ensemble vide et avec tout élément a l'élément de forme $\{a\}$. Ainsi disparaît par exemple l'antinomie - Russell : de l'axiome III résulte que tout ensemble M contient au moins une partie qui n'est pas élément de M . Mais Zermelo ne montre pas comment la théorie de l'ordre et des nombres ordinaux peut se déduire de ces axiomes, comme il reste d'ailleurs à démontrer que ces axiomes sont consistants, c'est-à-dire ne peuvent pas amener à un ensemble paradoxal. Reprenant cette question depuis 1922, Fraenkel et von Neumann essaient de compléter l'axiomatique de Zermelo en modifiant les axiomes et en précisant leurs rapports entre eux et avec l'édifice cantorien. Mais en ce qui concerne la consistance des axiomes, Gödel a démontré en 1928 que la non-contradiction ne peut pas se démontrer à l'intérieur du système dont on veut démontrer la consistance, ce qui semble limiter la portée de l'axiomatique.

§ 5. - L'autre tentative formaliste de résoudre les antinomies sans mutiler l'édifice cantorien est celle des logisticiens. Il est évident que, quelle que soit la portée de l'axiomatique de la théorie des ensembles (et en dépit de son incapacité de démontrer elle-même sa non-contradiction) cette méthode ne peut pas satisfaire aux logiciens tant qu'elle n'écarte que des antinomies localisées, laissant ainsi à l'ombre la solution de l'antinomie en général. Il est donc d'une importance particulière pour les logiciens de fonder une théorie pouvant remédier aux paradoxes en général et permettant de régler le sort des antinomies des ensembles sans sacrifier les principes fondamentaux de Cantor autour desquels elles ont pris naissance. C'est là le but de la théorie des *types logiques* de Russell - Whitehead.

Poincaré qui s'est intéressé plus que tout autre mathématicien à l'aspect logique de ces antinomies, a bien remarqué qu'elle proviennent d'un cercle impliqué dans les termes mêmes qui définissent les paradoxes signalés. Par exemple, dans le paradoxe de Richard : un nombre indéfinissable par un nom

bre fini quelconque de termes, est *effectivement* défini au moyen des termes : un nombre indéfinissable par un nombre fini quelconque de termes. Cette définition posée antérieurement aux objets définis est, dit-il, "non-prédicative", et une définition est non-prédicative quand elle contient un *cercle vicieux* (1). "Si la définition d'une notion N dépend de *tous* les objets A, elle peut être entachée de cercle vicieux si parmi les objets A il y en a qu'on ne peut définir sans faire intervenir la notion N elle-même" (2).

De la même manière, Russell regarde les antinomies comme des cercles vicieux dus à la supposition qu'une collection d'objets (un ensemble) puisse contenir des membres qui peuvent seulement être définis au moyen de la collection prise comme totalité. Des collections de cette sorte sont absurdes et n'ont aucun sens : et c'est pour les éviter que s'introduit la théorie des types : Celle-ci distingue une *hiérarchie* de types logiques dans les collections en question qui sont toutes déterminables par des *fonctions propositionnelles* ayant des variables apparentes. Ce qui importe alors c'est de délimiter le champ de la variabilité de ces variables de sorte qu'une fonction propositionnelle donnée ne puisse avoir comme argument la fonction propositionnelle elle-même. Et c'est ainsi qu'on triomphe, dit-on, des antinomies. Cette théorie, exposée tout le long des *Principia Mathematica* de Whitehead et Russell, n'a pas eu l'assentiment des mathématiciens, vu qu'elle présente un caractère chaotique et contient un axiome dit de *réductibilité* qu'il faut postuler sans démonstration. D'ailleurs, Russell lui-même déclare que "la théorie des types n'appartient pas d'une façon absolue à la partie achevée et certaine de notre sujet [c-à-d, du formalisme logistique]. Cette théorie est encore passablement chaotique, confuse et obscure". Et il ajoute : "Le besoin d'une doctrine des types n'est point douteux, mais cette doctrine attend une forme précise" (3). Cette forme s'obtient-elle par l'exclusion de l'axiome en question ? C'est du moins ce que prétendent des auteurs tels que P. Ramsey (4) et le polonais Chwistek (5) qui ont récemment remanié, séparément, la théorie des

(1) Poincaré : *Science et Méthode*, p. 207.

(2) Ibid. dans *Rev. de Mét. et de Morale*, 1903, p. 318; *Sci. et Meth.* p. 212.

(3) Russell : *Introduction à la philos. math.*, tr. fr., p. 115.

(4) F.P. Ramsey : *Foundations of Mathematics*, 1931.

(5) Chwistek : *Über die Antinomien der Principien der Mathematik*, dans *Math. Zeitschrift*, 1922, p. 241 et suiv., *Annales de la Société Polonaise des Math.*, II, Krakow 1924, p. 9-15; II, 1925, p. 32-41.

types. Mais Russell qui est au courant des oeuvres de ces deux auteurs ne s'est pas déclaré en faveur de ce ramiement. D'autres tentatives pour la production d'une théorie des types plus précise (par ex. celle de l'américain Quine (1)) ou pour s'en débarrasser totalement, attirent actuellement l'attention d'un certain nombre d'auteurs.

Ainsi donc, en ne s'en tenant qu'à la doctrine classique de Russell - Whitehead, on peut affirmer que, pas plus que les tentatives précédentes des empiristes et des axiomaticiens, celle des logisticiens n'a pas élucidé les difficultés de la théorie des ensembles ni n'a rencontré un assentement général, bien que la solution — s'il y en a une — de ces difficultés semble dépendre d'une doctrine logique telle que celle des types. Quoiqu'il en soit de toutes ces tendances opposées au sujet de la validité intégrale ou partielle de l'édifice cantorien, on se ferait aujourd'hui une idée unilatérale de cet édifice, si on se confinait dans l'une ou l'autre d'entre elles; et en fait cet édifice n'est à l'heure actuelle qu'une juxtaposition des théories plus ou moins différentes de l'oeuvre cantorienne primitive. Et comme le remarque justement Poincaré: "C'est sans doute parce qu'il y a des âmes différentes et qu'à ces âmes nous ne pouvons rien changer: il n'y a donc aucun espoir de voir l'accord s'établir entre les pragmatistes et les cantorens" (2).

§ 6. — Historiquement parlant, le formalisme logistique en élaboration entre 1903 et 1910 a soulevé la critique de Poincaré, comme le formalisme axiomatique de Zermelo a soulevé la réaction de Borel. Ce conflit opposant formalistes et empiristes, primitivement sur le terrain limité de la théorie des ensembles, s'étend par la suite à toute la mathématique et engage les discussions dans des voies plus difficiles. Cette extension du conflit est due d'une part au complet affermissement de la méthode logistique en mathématiques entre 1910 et 1913 et d'autre part à la réaction empiriste de Brouwer et de son école (Weyl, Heyting, etc...) contre la construction exclusive des mathématiques par des voies algébriques et sur des bases entièrement logiques (3); c-à-d, contre des constructions basées sur le langage mathématique et les raisonnements logiques. Cette réaction dirigée à la fois contre D. Hilbert (père de l'axiomati-

(1) W. Quine: *System of Logistic*, 1934. Cf. aussi *Proc. Nat. Acads. Sci.* 22, 1936.

(2) Poincaré: *Dernières Pensées*, p. 161.

(3) R. Weyl: *Y-t-il une crise des Math.*? dans *Rev. de Mét. et Mon.* 1924, p. 435.

que moderne) et les logisticiens, a pris toutefois de l'ampleur en touchant, dans l'empire des mathématiques, des régions plus vitales que celle de la théorie des ensembles; et c'est ce qui a soulevé la réaction de D. Hilbert, au nom de la technique, pour sauver cet empire de la menace intuitionniste. Dès lors, le monde des mathématiciens s'est divisé à partir de la seconde décade de notre siècle en intuitionnistes — plutôt *néo-intuitionnistes* — et *formalistes*, ou en *brouweriens* et *hilbertiens*, sans exclure cependant toute une gamme d'intermédiaires.

Nul n'a songé en effet avant les brouweriens à mettre en doute certaines doctrines mathématiques classiquement certaines. Par une réaction audacieuse, ceux-ci montrent à présent que les paradoxes des ensembles sont des symptômes d'une maladie plus profonde: "On considère les antinomies de la théorie des ensembles, dit Weyl, comme des escarmouches qui n'intéressent que les confins les plus extrêmes de l'empire des mathématiques et qui ne menacent en aucune façon la sécurité et la solidité de l'empire lui-même... Un examen sérieux et sincère de la question ne peut que conduire à la conviction qu'il faut interpréter ces irrégularités dans les régions frontières... comme des symptômes; c'est par là que vient au jour le mal secret, que cache le jeu en apparence parfait des rouages dans les domaines centraux, et qui est l'inconsistance et le manque de solidité des fondements sur lesquels tout l'empire est assis" (1). Il y a donc quelque part, dans l'Analyse, un défaut grave, pensent les brouweriens, source lointaine des maux: la notion du *nombre irrationnel*. Cette notion leur semble être basée sur un cercle vicieux: Le nombre irrationnel est défini par la *coupure*; l'existence de celle-ci se démontre par l'idée d'une borne supérieure d'un ensemble infini des nombres rationnels; et finalement l'existence de cette borne par la *construction* d'une coupure. Ces auteurs en concluent que tous les domaines où cette notion d'irrationnel intervient sont compromis dans leur solidité et doivent être abandonnés à l'outil du *démolisseur* (2). C'est contre pareilles amputations que Hilbert s'élève: A-t-on le droit de rejeter ainsi l'irrationnel et tout ce qui est bâti sur lui? Cette vue, réellement "révolutionnaire", telle que la qua-

(1) Weyl, dans *Mathematische Zeitschrift* (1921), cité par P. Goursat: *Fondement des Math.*, 1926, p. 189.

(2) Cette définition, due à Dedekind et Cantor, doit être distinguée de celle autre basée sur l'idée de *limite* et due à Weierstrass et Méray.

(3) Weyl, même loc.

lifie Weyl en parlant de Brouwer (1), ne semble pas satisfaire au technicien impartial. "Si l'existence du cercle vicieux, dit F. Gonseth, ne peut être niée, on peut tout de même y regarder deux fois avant d'adopter les conclusions de Mr. Weyl : elles ne sont pas logiquement nécessaires. Admettons même que toute façon de définir le nombre irrationnel comporte un cercle vicieux, nous n'en pouvons jamais logiquement tirer que ceci : il n'est pas possible de ramener sans pétition de principes la notion du nombre réel quelconque à celle du nombre rationnel et du nombre entier. Mais de cette constatation à l'affirmation que la notion du nombre irrationnel et celle de point, de ligne continue, etc... sont condamnées, il y a un abîme" (2).

Si on cherche maintenant à décrire une doctrine d'ensemble du point de vue néo-intuitionniste et à en préciser les contours, on est tout de suite frappé par l'aspect d'une entreprise qui *desinit in piscem* puisqu'on se trouve en présence de quelques vues fragmentaires, difficilement constituables en une doctrine qui puisse se présenter comme étant La mathématique du point de vue néo-intuitionniste et sur laquelle il y ait accord entre ces auteurs. Car aussi loin que je puisse en juger d'après les travaux de ces auteurs, chacun à son système propre et même parfois des vues qui vont à l'encontre de la méthode intuitionniste et paradoxalement en conformité avec la méthode formaliste contre laquelle s'insurgent ces auteurs. Ainsi par exemple, les nombres réels sont construits chez Weyl de la façon "umfangsdefinit", c-à-d, à l'aide d'un petit nombre de principes logiques, auxquels est adjointe l'induction complète ou mathématique en tant que principe transfini unique. D'autre part, le même auteur esquisse une espèce de théorie des types logiques semblable à celle de Russell (3).

Mais en dépit de ces différences individuelles déconcertantes, il semble que les neo-intuitionnistes sont unanimes sur quelques points dont le premier en importance est celui-ci : méthode et fondement des mathématiques sont l'unique intuition. En cela ils se réclament de Poincaré et de Borel (4), mais

(1) Weyl dit que «Brouwer est la révolution» en matière des mathématiques contemporaines, vu ses amputations audacieuses, voir même loc., p. 58.

(2) F. Gonseth: *Fond. des Math.*, 1926, p. 191.

(3) Weyl: *Das Continuum*, 1918.

(4) Voir sur ce point une déclaration de Heyting reproduite dans Gonseth: *Philosophie Mathématique*, 1939, p. 74.

illégitimement, puisqu'au moins la thèse de Poincaré "*exister en mathématique c'est être non-contradictoire*", diminue par elle-même son exigence de tout fonder sur la seule intuition, et que d'autre part l'intuition chez Poincaré est le "vérifiable", alors que pour Brouwer la démonstration de la non-contradiction des mathématiques même classiques serait sans importance pour juger de leur validité, "de même que l'impossibilité de démontrer la culpabilité de l'accusé ne constitue pas une preuve pour son innocence" (1). Et en ce qui concerne l'intuition, les brouweriens se refusent tous à l'intuition géométrique : quant à ce qu'ils admettent, on trouve des explications *obscurum per obscurius* qui concernent, ce me semble, l'intuition temporelle comme génératrice des entités arithmétiques (nombres naturels) grâce à l'activité de l'esprit qui isole par abstraction ces entités du contenu psychologique de cette intuition et surtout des symboles linguistiques qui les extériorisent (2, et c'est de ces entités que se construisent dans la conscience individuelle tous les objets mathématiques, de sorte qu'*existence en mathématique* signifie *constructibilité* (et par *non-contradiction* comme chez Poincaré). Ainsi donc, alors que les formalistes hilbertiens regardent les objets mathématiques comme des possibilités logiques dont l'existence se révèle universellement, objectivement et indépendamment de la conscience individuelle par le fait qu'ils sont *non-contradictaires*, les néo-intuitionnistes se replient sur des actes de conscience individuelle qui révèlent comment ces objets peuvent être *construits mentalement*. C'est pourquoi une explication de l'intersubjectivité s'est montrée depuis longtemps nécessaire, et c'est ce qu'a récemment tenté de faire, pour combler la lacune néo-intuitionniste, G. Mannoury (3).

Un deuxième point sur lequel il y a accord entre néo-intuitionnistes est l'indépendance des mathématiques à l'égard des signes du langage mathématique que les hilbertiens ont voulu soumettre (dans leur *théorie de la démonstration* ou de la *métamathématique*) à un traitement lui-même mathématique

(1) Brouwer: *Zur Begründung der intuitionistischen Mathematik*, dans *Math. Ann.*, t. 95, 1926.

(2) Il est très difficile de dégager une acception commune et nette de ce que les néo-intuitionnistes entendent du mot *intuition*. En cela, comparer Heyting (dans Gonsseth: *Philos. Math.*, p. 73-44) et Brouwer: *Intuitionism and Formalism* dans *Bull. of Am. Math. Soc.*, 1914, p. 85-6.

(3) Mannoury: *Die signifikanten Grundlagen der Mathematik*, 1934

pour lui procurer "la précision et la stabilité d'un instrument matériel" (1), et dont les signes sont par conséquent regardés comme étant en eux-mêmes des réalités mathématiques dès que le traitement auquel ils sont soumis démontre leur consistance logique (non-contradiction). Cette tendance marque aussi les travaux de l'Ecole de Vienne. Ce qui nous sépare des adeptes de cette école dit un brouwérien, c'est l'estimation du rôle du langage. Nous maintenons que la tâche ne consiste pas dans l'étude des langues, ni dans celles des idées que la langue tâche d'exprimer, mais dans la création de ces idées elles-mêmes" (2).

Un troisième point est le rejet du *tertium non datur* comme fondement valide des raisonnements mathématiques, surtout tels qu'ils se rencontrent dans la théorie abstraite des ensembles. En effet, les canonicus formalistes regardent toute question en mathématique comme pouvant être tranchée par l'alternative, et G. Cantor regardait un ensemble comme suffisamment déterminé dès qu'on pouvait dire d'un élément quelconque qu'il lui appartenait ou non. Faisant preuve de grande timidité en présence de l'infini, les néo-intuitionnistes acceptent indistinctement comme dogme que l'esprit n'est capable que d'un nombre fini d'actes de pensée. Conséquence nécessaire du point de vue psychologue qui veut que l'existence en mathématique soit le constructible (3), et par suite si l'on pose par exemple la question de savoir si au cours du développement décimal de π surgira à un moment donné la suite 0, 1, 2, 3...9, cette question est absurde et ne peut pas se trancher par oui ou non, vu qu'elle implique des actes de pensée d'un nombre infini (4). Remarquons, précise Heyting, que nous ne rejetons pas le principe du tiers exclu comme étant faux, nous nous bornons à le considérer comme trop mal fondé pour servir de base aux mathématiques (5). Pour trancher une question mathématique, il ne faut donc pas recourir au raisonnement abstrait au moyen du *tertium non datur*; il faut montrer seulement la possibilité de construire mentalement, c-à-d, de calculer sur des objets existant préalablement dans l'intuition (6). On est donc loin des ensembles abstraits qui posent des existences, car

(1) Brouwer: *Mathematik Wissenschaft und Sprache*, dans *Monatshefte f. Math. u. Phys.*, t. 35, 1929, p. 158.

(2) Heyting, loc. cit., p. 75.

(3) Gössert: *Fund. d. Math.*, 1930.

(4) Heyting, loc. cit., p. 75.

(5) Ibid.

(6) Ibid.

tout ensemble doit être construit des éléments indiscutablement préexistants. D'où une transformation radicale des mathématiques classiques. Surtout le *continuum* traditionnel depuis Dedekind ne peut subsister comme un ensemble infini *parfait* (1). Nous avons déjà vu le rejet, par Weyl, du nombre irrationnel, gardien du continu géométrique. Brouwer montre aussi que le "point" dans un continu n'est jamais actuel, mais peut être seulement regardé comme limite des divisions infinies; autrement dit, le nombre irrationnel n'est pas actuel, mais peut être seulement déterminé approximativement par des fractions décimales infinies dont la continuation devient selon son expression un *médium de libre devenir* qui ne se compose pas de l'élément (points) mais des parties elles-mêmes continues. Préciser est assez difficile: on peut dire que le continuum ne peut pas être regardé comme un ensemble infini *donné*, mais comme l'expression d'un processus continuable indéfiniment, comme "ein medium freies Werdens" (2).

Tels sont quelques principes fondamentaux de la reconstitution des mathématiques du point de vue des brouweriens. Ces principes du néo-intuitionnisme, comme le remarque le mathématicien bien avisé, Fraenkel, font perdre sa validité à la plus grande partie de l'Analyse classique et de la théorie des ensembles. Mais il est encore plus impressionnant que même les domaines conservés ne se laissent fonder qu'avec de grandes difficultés, et de petites parties seulement ont vraiment réussi à être prouvées jusqu'à maintenant (3). Il est vrai que la reconstruction néo-intuitionniste des mathématiques n'est pas encore achevée; mais puisque les vues des intuitionnistes dans ce qu'ils amputent aussi bien que dans ce qu'ils édifient ou conservent, rencontre la plus vive résistance non seulement dans le camp de leurs adversaires les formalistes, mais aussi parmi les purs techniciens peu soucieux du problème du fondement, nous nous abstenons d'insister davantage sur cette doctrine et nous passons aux formalistes.

§ 7. — Ceux-ci se sont réunis longtemps autour de D.

(1) Un ensemble est *parfait* quand il est en même temps *dense* et *fermé*. Et il est *dense* quand ses éléments sont tous *principaux* (Hauptelemente); et il est *fermé* (abgeschlossen) quand toute série fondamentale a un élément-limite dans l'ensemble.

(2) Brouwer: *Die Struktur des Kontinuums*, 1930.

(3) Fraenkel: *Discontinu et continu*, IX^e Cong. Intern. de Philos., Paris 1937, t. VI, p. 198.

Hilbert, dont la *méthode axiomatique* appliquée dès 1899 à la Géométrie est restée célèbre et a provoqué l'admiration indivisible des mathématiciens modernes au nombre de qui figure en première place le nom de Poincaré. Entre 1899 et 1918, année où Hilbert a commencé sa campagne contre les brouweriens, un événement important s'est produit : l'apparition des *Principia Mathematica* (1910-1913) de Whitehead - Russell, ouvrage qui donne le point de vue des logisticiens au sujet des fondements simplement logiques des mathématiques. Aussi, Hilbert en tient-il compte dans sa campagne, de sorte qu'entre ses mains, axiomatique et logistique collaborent ensemble dans l'édification de sa *théorie de la démonstration* ou *métamathématique*, destinée à fonder les mathématiques sur un formalisme intégral.

En 1899, par conséquent avant la méthode logistique et la méthode néo-intuitionniste, Hilbert ne pouvait distinguer en matière de méthode que la méthode *génétique* en théorie des nombres, à laquelle il opposait sa méthode *axiomatique* en Géométrie. La première est celle de la doctrine arithmétisante qui reconstituait toute l'Analyse à partir de l'idée du nombre entier et des opérations dont il est susceptible. Ainsi procédaient Weierstrass et Kronecker en Allemagne, Meray et J. Tannery en France. — C'est seulement à la suite des géométries non-euclidiennes et de la conception la plus large qu'on s'est faite du *principe de la dualité projective* qu'on est parvenu à l'idée d'une méthode axiomatique en géométrie; c'est à dire à l'idée d'êtres géométriques abstraits, susceptibles d'une multitude d'interprétations dans le domaine de l'intuition (pure ou empirique), dont les seules propriétés sont énoncées au moyen d'un système d'axiomes, librement choisis, conçus comme simples relations logiques (appartenance, inclusion, égalité, etc...) et qui ne prétendent pas être vrais en eux-mêmes. Ce sont, selon l'expression de Mr. Lalande (1), des *lexis* dont la vérité, s'il en est question, est la possibilité d'en déduire d'autres propositions; ou encore selon l'expression des logisticiens des *fonctions proportionnelles* qui ne disent rien de particulier sur les choses comme les propositions proprement dites, mais qui sont des cadres disponibles à recevoir une multitude de pareilles propositions, par conséquent des expressions variables ou indéterminées que G.

(1) Lalande: *Fuc. Phil.*, suppl. — «lexis»

Frege a légitimement qualifié de *pseudoaxiomes* (1) par opposition aux axiomes déterminés d'Euclide. — C'est précisément cette nature variable ou indéterminée d'un système moderne d'axiomes qui a posé le problème épineux (longuement discuté par Hilbert) et presque insoluble de la *non-contradiction* des axiomes, étoffe commune de la *saturation* (un système est saturé ou fermé si l'adjonction d'un nouvel axiome le rend contradictoire) et de l'*indépendance* (un axiome est indépendant des autres si le système formé de ceux-ci et de sa négation est non contradictoire). En 1899, dans l'aménagement d'une axiomatique en Géométrie, Hilbert a résolu ce problème épineux indirectement et par délégation : la non-contradiction de l'arithmétique est déléguée à la géométrie. C'est là la conséquence nécessaire de l'arithmétisation des mathématiques.

Ce sont là les deux méthodes qu'opposent Hilbert l'une à l'autre en 1899. La question qu'il se pose alors est de savoir "si la méthode génétique est la seule appropriée aux nombres, la méthode axiomatique pour le fondement de la géométrie. Voici mon opinion, dit-il : malgré la haute valeur pédagogique et heuristique de la méthode génétique, la méthode axiomatique est préférable pour une représentation définitive et un complet affermissement logique de la théorie des nombres réels" (3). Et dans un mémoire : *Sur le Concept du Nombre*, il donne un système d'axiomes destinés à fonder les nombres réels, et calqués à peu près sur ceux de la géométrie (4). La difficulté est ici d'établir *directement* la non-contradiction de cette axiomatique *initiale* sur laquelle repose la non-contradiction de toute la mathématique y comprise la géométrie.

Hilbert reconnût de bonne heure l'obstacle : dès 1900, lors du II^e Congrès des mathématiciens (Paris), il regarde comme un grand problème à résoudre la *démonstration* de la non-contradiction de l'arithmétique, pour laquelle, à la différence de ce qui a lieu en géométrie, "il faut cette fois prendre la route directe" (5). En 1904, ayant eu connaissance des travaux les

(1) G. Frege, dans *Jahresbericht der deutschen Mathematiker-Vereinigung*, 1903.

(2) S. Elfendi: *Extension de la logique et Fond. des Math.*, § 23. p. 178-203.

(3) Hilbert: *Grundlagen der Geometrie* (Anhang VI) p. 246.

(4) Voir l'exposé de ces axiomes dans Poirrier: *Le nombre*.

(5) Hilbert, dans II^e Congrès Inter. des Mathématiciens, Paris 1900, t. IV, p. 300.

plus récents de Frege — père de la logistique — il remarque que "fonder l'arithmétique sur la logique" n'est pas possible parce que "pour exposer les lois logiques, certains concepts arithmétiques comme celui d'ensemble et celui du nombre cardinal sont indispensables". Reste donc la seule ressource d'une "réédification *simultane* de la mathématique et de la logique" (1). Mais cette démonstration reste à l'état d'un projet jusqu'en 1930, lors de la constitution véritable de sa *théorie de la démonstration* ou métamathématique, destinée à sauver ses méthodes et ses résultats des amputations, réclamées par les intuitionnistes, auxquelles il ne veut pas se résoudre.

Ni le rejet de la théorie abstraite des ensembles, en particulier l'arithmétique du transfini "la plus admirable, efflorescence de l'esprit mathématique", ni surtout le renoncement aux "élégantes démonstrations" où intervient le tiers exclu, ne le trouvent résigné. Si le cercle signalé par Weyl (cf. § 6) est incontestable, du moins il est inoffensif. "Brouwer n'est pas la révolution comme croit Weyl (cf. § 6), mais le renouvellement d'une tentative de patch avec d'anciennes méthodes qui, à leur époque, quoique plus énergiquement utilisées, ont complètement échoué, et maintenant que le pouvoir central est armé et renforcé grâce à Frege, Dedekind et Cantor, sont à l'avance éliminés à l'instinct" (2). La solution véritable de toutes ces difficultés signalées par les brouweriens est donc une *formalisation* totale des mathématiques grâce à la logique symbolique — qui prend l'effet (3) par Whitehead - Russell.

La formalisation de l'ensemble des mathématiques procède à un système général des signes ou des formules concernant tout ce qui peut être dit mathématique et logique; et la métamathématique devient la science dont l'objet est l'assemblage des signes ou formules, leur organisation en unités de dépendance ou théories: elle a pour tâche primordiale la démonstration de la non-contradiction formelle. Dans son article: *Die logischen Grundlagen der Mathematik* (4), Hilbert fonde ce système de signes sur quatre groupes d'axiomes: ceux de l'implication (5), de la négation (désignée par un trait horizontal), de l'égalité et du nombre entier. Il prétend avoir dé-

(1) Hilbert, dans *Verhandlungen d. III Intern. Math. Kongress* cité par Cavailles: *Axiom. et Syst. Form.*, p. 90.

(2) Hilbert, dans Cavailles, p. 95-1.

(3) Hilbert, dans *Math. Ann.*, 1925, p. 1718.

(4) Dans *Mon. math. Studien*, 1925.

montré la non-contradiction des axiomes métamathématiques suivants :

I.	$A \rightarrow (B \rightarrow A)$	dans PM	2.02
	$\{ A \rightarrow (A \rightarrow B) \} - \{ B \rightarrow (A \rightarrow C) \}$. .		.45
	$\{ A \rightarrow (B \rightarrow C) \} - \{ B \rightarrow (A \rightarrow C) \}$. .		.04
	$(B \rightarrow C) \rightarrow \{ (A \rightarrow B) \rightarrow (A \rightarrow C) \}$. .		.05
II.	$\bar{A} \rightarrow (A \rightarrow B)$		.25
	$(A \rightarrow B) \rightarrow \{ (\bar{A} \rightarrow B) \rightarrow B \}$		.61
III.	$a = a$		13.51
	$a = b \rightarrow A(a) \rightarrow A(b)$		.21
IV.	$a+1 = 0$		
	$d(a+1) = a$		

Ce sont là selon lui les axiomes métamathématiques sur lesquels se fondent toute la mathématique positive. Nous avons noté par des nombres leurs analogues dans *Principia Mathematica* auquel nous avons donné le sigle *PM*. Le procédé de démonstration des formules dérivées à partir de ces formules-axiomes est celui qui vaut dans tout système formel : la règle de la *substitution* qu'on rencontre chez les logisticiens : Peano et Russell, et dont le schéma chez Hilbert se présente comme suit :

$$\frac{S \quad T}{S \rightarrow T}$$

La démonstration est exemple de la manière à la fois dont la théorie des ensembles peut être intégrée au formalisme et dont la métamathématique situe et résout les problèmes. Nous ne pouvons pas toutefois suivre ici ces problèmes délicats et de caractère technique dont le mathématicien avisé est le seul juge pour savoir si oui ou non les amputations brouweriennes sont par là refutées. Ce qui est certain pour nous, c'est que le problème fondamental de la non-contradiction des mathématiques n'est pas encore résolu une fois que logique et arithmétique sont simultanément édifiées. Cela est dû essentiellement au fait que les axiomes de base sont des fonctions propositionnelles et non des propositions proprement dites. A supposer même que tous les axiomes soient, actuellement et dans les limites des épreuves faites, consistantes, rien ne peut nous assurer que dans de lointains développements ils ne révéleront

pas de contradiction. D'autre part nous croyons qu'une fois appelée métamathématique, les difficultés n'ont pas cessé d'exister, elles ont seulement changé de nom. D'ailleurs, le mathématicien Gödel a démontré en 1928 l'impossibilité de la démonstration de la non-contradiction au sein d'un même système d'axiomes. Notons cependant que Hilbert n'était pas satisfait de ses premiers résultats et qu'il n'a cessé de revenir à la question de la non-contradiction d'une axiomatique métamathématique. Une fois de plus, il a déclaré en 1928 que ses recherches ont abouti à des résultats définitifs. Mais nous ignorons s'il les a publiés avant sa mort survenue en 1937. Ce que nous savons c'est que la théorie hilbertienne, n'étant pas complètement élaborée, a animé, dans cette direction, des travaux importants tels que ceux de W. Ackermann, de Bernays, de J. Herbrand, de v. Neumann, de Fraenkel, de Destouches etc. Nous savons aussi que quel que soit le résultat de ces travaux, il ne peut pas satisfaire aux néo-intuitionnistes qui refusent d'admettre la non-contradiction comme preuve de l'existence des objets mathématiques... La crise continue, mais la technique mathématique n'en souffre réellement pas.

S. ELFENDI

L'ELECTRE DE SOPHOCLE EST-ELLE UNE PIÈCE MAL CONSTRUITE?

Dans son ouvrage sur la technique dramatique de Sophocle, M. Tycho de Wilamowitz a soutenu que Sophocle, dans ses tragédies, ne se soucie pas d'unité générale, mais ne vise qu'à faire succéder des scènes dramatiques ou pathétiques, — belles en soi —, sans lien interne l'une avec l'autre (1). L'intrigue, assez lâche et maladroitement construite, ne servirait que de prétexte à ces scènes; et il n'y aurait pas de progression interne qui en justifierait la succession. Une tragédie de Sophocle ne serait qu'une suite de morceaux dramatiques faiblement reliés les uns aux autres, et les scènes, magnifiques prises isolément, n'en auraient pas été écrites de façon à convenir entre elles et à la tragédie entière. Les tragédies sophocléennes ne formeraient donc pas un ensemble solide, fortement charpenté, conforme à la définition donnée par Platon de l'oeuvre d'art parfaite qui "doit être constituée à la façon d'un être animé: avoir un corps qui soit le sien, de façon à n'être ni sans tête, ni sans pieds, mais avoir un milieu en même temps que deux bouts, qui aient été écrits de façon à convenir entre eux et au tout." (2) Ce qui reviendrait à dire que Sophocle n'aurait pas écrit de tragédies véritables.

En effet, que serait une tragédie qui n'aurait pas son unité propre, son corps organiquement constitué, sa progression interne reliant et justifiant toutes les scènes de telle sorte que chacune d'entre elles prenne sa signification morale et acquière toute sa beauté du fait qu'elle est partie intimement constituante d'un tout harmonieusement et solidement construit? Que serait une figure de la frise des Panathénées qui n'aurait pas sa raison d'être comme élément de l'ensemble du cortège triom-

(1) Tycho von Wilamowitz-Moellendorf, *Die dramatische Technik des Sophokles*.

(2) Platon, *Phèdre*, 264 c (trad. Léon Robin). Cf. *ibid.*, 269 c: τὸ ὅλον συνίστασθαι.

phal inscrit autour du *naos* du Parthénon? Ou, mieux encore, — car une tragédie a des limites plus étroites que celles d'une frise courant à l'extérieur des quatre faces d'un monument; elle doit être plus solidement composée —, que vaudraient des groupes de statues rassemblés dans le cadre unique d'un fronton s'ils n'avaient tous, outre leur beauté propre, une beauté supérieure qu'ils tirent de ce qu'ils forment tous un ensemble concourant à l'expression d'une idée générale qui est celle ayant inspiré le sujet complet représenté dans ce triangle parfaitement délimité qu'est un fronton, si bien que l'oeuvre d'art, c'est le fronton et non pas les groupes de statues qui en constituent les éléments?

Au cas où la thèse de M. de Wilamowitz serait conforme à la réalité, il faudrait réviser tous les jugements portés sur Sophocle dont a fait le représentant le plus parfait de l'art classique, le frère de Phidias et d'Ictinos (1). Sophocle ne dépasserait nullement l'Euripide qui a écrit ces pièces mal faites, mais contenant des scènes touchantes ou pathétiques, que sont, par exemple, *Hécube*, *Andromaque* ou *Les Troyennes*. Cela serait grave.

Nous nous bornerons ici à examiner *Electre* pour voir si cette tragédie confirme ou, au contraire, infirme la thèse que nous avons brièvement résumée (2).

Si l'on croit que le sujet d'*Electre* est, comme celui des *Choéphores*, la punition de Clytemnestre et d'Égisthe, c'est-à-

(1) Cf. Platon, *ibid.*, 265 c - 269 a. Sophocle (et Euripide; mais il est évident que Platon songe à l'auteur d'*Hippolyte*, des *Bacchantes* et des deux *Iphigénies*; d'ailleurs, 230 a, c'est dans la bouche de Sophocle seul qu'est mise l'affirmation sur l'art de la composition d'une tragédie) Sophocle y est présenté comme un poète sachant fort bien que la tragédie n'est rien d'autre qu'*organisation de ses éléments constitutants et organisation qui convienne à leur rapport mutuel aussi bien qu'à l'ensemble*: *Τραγωδία... εἶναι... τὴν τοῦτων* (les différentes scènes) *οὐσιαστικῶς, πρέπουσαν ἀλλήλοις τε καὶ τῷ ὅλῳ συνισταμένην*.

(2) Je tiens à rappeler que les circonstances nées de la guerre rendent, pour qui habite Alexandrie, toute information bibliographique impossible. C'est ainsi qu'à notre regret nous n'avons pu consulter: Allègre, *Sophocle. Etude sur les reverses dramatiques de son théâtre et la composition de ses tragédies*; Jebb, *Sophocle*, éd. critique et commentaire; les commentaires de l'éd. Schneidewin et Nauck; l'éd. de Brühl; l'édition partielle d'*Electre*, avec commentaires, de Kaibel; l'article de Navarre sur *Sophocle imitateur d'Eschyle*, Rev. d. Et. anc., 1909. On voudra bien tenir compte de ces circonstances et nous excuser si nous nous rencontrons avec qui aurait déjà, sans que nous soyons à même de le savoir, traité la question que nous abordons ici.

dire le parricide d'Oreste, alors le véritable intérêt de la tragédie est, — non pas, comme chez Eschyle, l'accomplissement d'une volonté divine —, mais bien la solution des questions suivantes (1) : Comment Oreste va-t-il réussir l'entreprise difficile pour laquelle il revient à Mycènes après vingt ans d'absence ? Quelle aide peut-il attendre de sa soeur Electre et, en général, de ceux qui sont à l'intérieur du palais ? Quels moyens employer pour s'introduire dans ce palais ? C'est, du moins, ce qui est annoncé de façon très claire dans le *prologue* : *Nous sommes arrivés à un moment où l'hésitation n'est plus à sa place, c'est l'instant d'agir.* (v. 21 sq.) (2), dit le vieux précepteur. Oreste, alors, expose quel est son plan : il se tiendra caché hors du palais où le précepteur viendra annoncer qu'Oreste est mort aux jeux pythiques de façon à endormir la méfiance de Clytemnestre et d'Egisthe et à pouvoir s'introduire dans le palais, y apprendre tout ce qu'on y fait et le rapporter ensuite à Oreste pour que celui-ci, dûment informé, puisse en connaissance de cause accomplir son meurtre. Par conséquent, il s'agit-là d'un intérêt d'intrigue, de curiosité, intérêt de roman d'aventure ou de pièce policière.

Tel étant donc l'intérêt de cette tragédie, il convient de se demander si chacune des scènes et leur succession concourent bien au développement de cette action ainsi conçue, si leur progression est bien en rapport avec le déroulement de cette intrigue (3).

Après avoir entendu le *prologue*, le spectateur s'attend à voir se dérouler, traversée de difficultés habilement ménagées par le poète, l'action annoncée. Il sera donc étonné que la *parodos*, précédée d'un court passage de *mélodrame* dit par Electre seule, contienne un long et émouvant dialogue lyrique entre le chœur et Electre dans lequel est dépeinte la condition misérable de la jeune fille. Son étonnement ne sera pas moindre lorsqu'il verra que le premier *épisode* présente de nouveau, mais sur un mode plus "raisonné", l'exposé des souffrances

(1) *El.*, v. 32 sq. Apollon n'a pas donné à Oreste l'ordre de venger son père; sur sa demande, il lui a dit quels moyens employer à cette fin.

(2) Traduction Masqueray, éd. «Les Belles Lettres», Coll. des Universités de France, publiée sous le patronage de l'Association Guillaume Budé. Presque tous les textes d'*Electre* que nous donnons en français sont empruntés à cette traduction.

(3) Cf. *Phèdre*, loc. cit. : διάθεσις τε καὶ οὐσιασις.

d'Electre et de sa haine pour sa mère et pour Egisthe, lorsqu'il verra que ce beau morceau est suivi d'une scène non moins belle entre Electre et sa soeur Chrysothémis au cours de laquelle il apprend dans quelles dispositions cruelles Clytemnestre se trouve à l'égard de sa fille aînée. Cette scène lui apparaîtra comme manifestement destinée à illustrer les malheurs et la haine d'Electre, ainsi que sa farouche volonté de persister dans son attitude de blâme hautement exprimé et manifesté à l'égard de sa mère et de l'amant de cette dernière. Seul le récit que fait Chrysothémis du songe effrayant qu'a eu Clytemnestre lui rappellera, bien que de loin, que la tragédie doit aboutir au meurtre de l'épouse meurtrière par son fils. Encore, quand il verra Electre prendre contre sa mère des dispositions raisonnées et volontairement affirmées, donner des ordres précis à sa soeur pour s'assurer de l'aide divine dans son dessein d'assouvir sa haine et de venger son père, le spectateur sera-t-il en droit de se demander pourquoi la jeune fille semble être appelée à entreprendre à elle seule l'action dont le *prologue* lui avait pourtant clairement montré qu'elle serait le fait d'Oreste. Qu'Electre affirme, en plusieurs passages, qu'elle attend avec impatience Oreste en qui elle a mis tout son espoir, ne suffit pas pour rattacher ces scènes, en elles-mêmes dramatiques au plus haut point, au sujet véritable de la tragédie. Et il a l'impression que l'intérêt de curiosité, éveillé en lui dès le début pour le déroulement de l'intrigue, n'est guère satisfait. Il ne comprend pas ce qui relie entre elles et à l'ensemble de la tragédie ces scènes belles et fortes auxquelles Sophocle le fait assister.

La première scène du deuxième *épisode* ne fera que renforcer cette impression. En effet, en quoi la terrible altercation entre la mère et la fille fait-elle avancer l'action vers le dénouement attendu, et même comment s'y rattache-t-elle? Le poète n'a-t-il pas voulu simplement faire cette scène pour elle-même, à cause de sa force dramatique propre? Et le récit de la mort prétendue d'Oreste, quoiqu'évidemment relié à l'action, n'est-il pas trop étendu, trop développé, traité pour lui-même comme un magnifique morceau d'épopée en raccourci dans lequel le poète aurait voulu donner la mesure de son talent? Quant à la scène unique du troisième *épisode*, ne donne-t-elle pas aussi l'impression de n'avoir aucun lien avec l'action puisqu'elle montre, au cours d'un dialogue violent entre les deux soeurs, la décision que prend Electre de tuer elle-même sa mère? Où est Oreste? Quels sont les fruits qu'il prétendait retirer de son

stratagème? Quand donc le précepteur viendra-t-il lui donner les renseignements attendus? Pourquoi ne nous montrer que les réactions d'Electre en face d'événements qui semblent la concerner elle seule, alors que le sujet de la pièce est la mise à mort de Clytemnestre par Oreste? Et, d'ailleurs, le spectateur sait qu'Oreste n'est pas mort: peu lui chaut donc qu'Electre, par le déploiement de son éloquence, obtienne que Chrysothémis l'aide à tuer Clytemnestre et que, devant le refus de celle-ci, elle se décide à le faire seule! Le spectateur ne peut s'intéresser à ces projets, à ces décisions d'Electre, puisqu'il sait qu'en définitive ce ne sera pas elle qui conduira à son terme l'action meurtrière qui forme le sujet de la pièce. A moins que, commence-t-il à se demander avec un réel malaise, à moins que le *prologue* n'ait été qu'un faux départ et qu'Oreste n'ait rien à voir avec le dénouement de l'intrigue, à moins que les actes qu'il semblait lui avoir été dévolu d'accomplir ce soit en réalité Electre qui les commettra et qu'il y ait, à l'action annoncée dans le *prologue*, substitution d'une nouvelle action? Cependant, même dans ce cas, bien des scènes seraient inutiles au progrès de cette nouvelle action, comme celle de l'altercation entre la mère et la fille.

Or, Oreste arrive accompagnant l'urne censée contenir ses cendres. Va-t-on enfin assister à la reprise de l'action suspendue depuis le début de la *parodos*? Si le spectateur se rappelle que le stratagème consistant à annoncer la mort supposée d'Oreste avait pour celui-ci un double but: savoir, par le rapport que doit lui faire le précepteur, ce qui se passe dans le palais, et connaître les dispositions actuelles d'Electre (1) —, il ne pourra s'empêcher de constater qu'Oreste arrive trop tôt, puisque le précepteur ne lui a pas encore rendu compte de sa mission, et qu'il agit donc avec une souveraine maladresse dont Sophocle doit être rendu responsable. Ce dramaturge ne sait pas même conduire l'action avec vraisemblance, en conformité avec ce qu'il faisait prévoir dans le *prologue*! Et la constatation de cette faute sera aggravée par le fait que la scène de l'urne, qui remplit le quatrième *épisode* et au cours de laquelle a lieu la reconnaissance d'Electre et d'Oreste, — reconnaissance qui est, évidemment, en rapport avec l'intrigue —, est construite de telle sorte que tout l'intérêt porte sur le désespoir d'Electre,

(1) Cf. v. 80 sq.: Oreste voudrait écouter ce que dira celle qu'il suppose être Electre. C'est donc qu'il ignore quelle est son attitude actuelle à l'égard de sa mère et d'Egisthe.

désespoir auquel le spectateur, intéressé au succès de l'entreprise d'Oreste, ne saurait prendre la moindre part puisqu'il sait qu'il est sans raison, et sur la joie d'Electre lorsqu'elle retrouve son frère vivant (1). Cette scène magnifique, d'un pathétique extraordinaire, un des plus beaux morceaux dramatiques qui aient jamais été écrits pour le théâtre, est donc inutile à l'économie de la tragédie : elle n'en fait nullement avancer l'action avec laquelle elle n'a aucun lien réel. Voilà qui est grave, puisque cette scène, qui contient plus de 300 vers, est le morceau capital de la tragédie. On ne saurait même en justifier la présence en prétendant qu'elle a pour but de faire connaître à Oreste quels sont les sentiments d'Electre. Le spectateur les connaît, lui, depuis le vers 76 ! Or, une pièce de théâtre doit être composée pour le spectateur et non pour un des personnages.

Si le cinquième *épisode* rattache davantage au sujet de la tragédie cependant il semble que Sophocle n'y revienne qu'à regret et se plaise bien plus à renouveler la scène de la reconnaissance et à faire exprimer une fois encore à Electre sa joie et sa haine intimement mêlées qu'à faire avancer vers son dénouement l'action suspendue presque entièrement depuis la *parodos* par une série de scènes dont nous avons dit qu'elles paraissaient n'avoir aucun lien interne entre elles, ni avec la pièce entière. Quant au sixième *épisode*, beaucoup plus court que les autres, il est bien celui que le *prologue* faisait attendre, encore que, dans la première scène, le poète ne nous fasse assister au meurtre de Clytemnestre que d'une manière détournée.

Que penser d'une tragédie ainsi construite ?

Pour qu'une tragédie soit une œuvre d'art ayant une unité réelle, il faut qu'il y ait en elle une progression organique qui en relie toutes les parties selon un ordre qui lui soit nécessaire. Cette progression doit être en rapport intime avec l'intérêt véritable de la tragédie, si bien que l'on peut dire que la composition d'une bonne pièce de théâtre est fonction de son intérêt véritable.

Mais en quoi peut consister cet intérêt conférant à la tra-

(1) Toute à sa douleur, puis à sa joie, Electre semble oublier qu'elle avait décidé de prendre sur elle l'obligation de tuer Clytemnestre. Par conséquent on ne peut même pas justifier la présence de cette scène en la rattachant à ce qui, un moment, avait paru devenir le véritable sujet de la tragédie.

gédie une progression interne, condition de son unité réelle? Si cette progression réside dans le développement d'une action dans ses rapports avec l'intrigue, si les scènes doivent être reliées les unes aux autres par la succession des péripéties dont le déroulement conduit au noeud, puis au dénouement de cette action, alors *Electre* est une pièce fort mal construite.

Cependant, est-on bien sûr que ce soit uniquement dans ce développement de l'action par rapport à l'intrigue, c'est-à-dire par rapport au sujet extérieur de la pièce, que puisse et doive résider le véritable de la tragédie? A en croire Voltaire (1), qui s'y connaissait et dont les pièces sont, pour la plupart, bien faites, ce serait en cela, et en cela seul, que résiderait l'intérêt d'une oeuvre dramatique. Dans son théâtre, en effet, le véritable intérêt consiste dans la succession des péripéties qui sont commandées par le seul déroulement de l'intrigue. Dans le théâtre d'Euripide et de Racine, ce déroulement des péripéties est lié au jeu des passions; dans celui de Corneille, il est commandé par les heurts de volontés qui s'affirment dans des directions opposées, il a pour but de faire valoir les obstacles que les passions suscitent à chacune de ces volontés; dans la tragédie métaphysique et cosmogonique d'Eschyle, il provient des conflits entre les forces divines qui s'y affrontent. Mais que l'action soit inue par l'un ou l'autre de ces ressorts, chez tous ces dramaturges la progression qui confère à la tragédie son unité générale naît toujours de la manière dont l'intrigue se noue, puis se dénoue, c'est-à-dire de l'action elle-même (2).

Sophocle concevait-il ainsi l'intérêt véritable qui est la raison d'être d'une tragédie et qui lui donne, non seulement sa charpente, son armature, mais sa vie intérieure, sa progression interne, son mode même d'existence? L'analyse rapide que nous avons faite d'*Electre* montre à l'évidence, — et, faite du

(1) Voir les *Lettres à M. de Genouville*, en tête de son *Oedipe*; La *Dissertation sur la tragédie ancienne et moderne*, en tête de *Sémiramis*; le *Commentaire sur Corneille*, à propos d'*Oedipe*. Dans les *Lettres*, Voltaire affirme que Sophocle ne sait absolument pas conduire une action dramatique, qu'il n'est qu'un vil rhéteur dont les vers... sont d'un déclamateur. Ce reproche ne pourrait-il pas s'appliquer à plusieurs scènes d'*Electre* (v. g. v. 516-633, 871-1037)?

(2) En ce qui concerne Eschyle, cela n'apparaît clairement que dans l'*Orestie*; car les tragédies de cet auteur étaient des trilogies liées dont l'unité profonde ne se révèle que si l'on embrasse d'un seul regard les trois pièces à la fois.

même point de vue, celle de toutes les pièces de Sophocle amènerait à la même constatation —, ou bien que tel ne doit pas être le cas, ou bien que cette tragédie est, comme nous l'avons dit, une pièce mal faite.

Or, voici comment Maurice Croiset pense que Sophocle conduit l'action de ses tragédies. Dans ce théâtre, l'intérêt véritable, "c'est, dit-il, la volonté de l'être humain... Une résolution ferme et haute, appuyée sur des motifs parfaitement clairs, tel est... le fond même du drame, ou plutôt son âme... Sophocle a dégagé, d'une légende indifférente (1), un élément de conscience et de volonté, et il a toujours constitué l'action dramatique de façon à le mettre en lumière... De cette conception... résulte un genre de progression qui lui est propre... [et qui] répond au dessein général... de mettre en lumière une volonté réfléchie tendant à un but qu'elle atteint ou qui lui échappe... En discutant avec les uns, en se défendant contre les autres, le protagoniste éclaire son âme, et de scène en scène l'intérêt profond qui tient tout en suspens apparaît davantage... Et par suite, la tragédie se concentre, tout en se développant, elle subordonne ses effets divers à un effet d'ensemble toujours croissant, elle prend une sorte d'unité intime qui est saisissante, parce qu'elle a pour centre une seule âme et dans cette âme une volonté" (2). L'intrigue donc n'aurait pas d'intérêt aux yeux de Sophocle, du moins en elle-même : elle ne serait qu'un moyen, commandé par le genre dramatique, devant servir une fin supérieure à elle. C'est cette fin qui serait l'intérêt véritable de ses pièces. Juger la composition d'une tragédie sophocléenne d'après la conduite de l'action en rapport avec l'intrigue serait se servir d'un critère qui ne lui convient nullement. Comme on le voit, c'est là une thèse radicalement opposée à celle de M. de Wilamowitz.

L'unité profonde d'une tragédie de Sophocle résiderait dans l'éclairage toujours plus vif de l'âme du protagoniste, dans la mise en lumière toujours plus évidente de la conscience qu'il prend de lui-même et de ses motifs d'action qui se transforment en volonté de plus en plus nettement affirmée. Ce serait l'affirmation progressive de cette volonté qui commanderait l'économie profonde de la tragédie. Là serait le véritable

(1) De cette remarque de Croiset, il ressort que, pour Sophocle, le sujet extérieur de l'intrigue n'est pas le véritable sujet.

(2) *Hist. de la Litt. grecque*, 3^{ème} éd., p. 262 sqq.

ressort de l'action dramatique, et les péripéties ne seraient imaginées que pour permettre au protagoniste de prendre conscience de lui-même et à sa volonté de s'affirmer. C'est en fonction de la formation de cette volonté que la tragédie serait construite. C'est de la psychologie du protagoniste qu'elle tirerait son unité.

Or, l'étude de la psychologie des personnages sophocléens montre que cette volonté n'est pas gratuitement formée dès le début de la tragédie. Elle a son fondement dans les sentiments premiers du personnage. Ces sentiments, mis en branle par un événement extérieur, donnent naissance à une volonté qui, passant d'un état premier, purement affectif, à une conscience de plus en plus claire, cherche à s'explicitier, à se formuler en idées fondées toujours davantage sur des raisons. Ces raisons de vouloir ont un lien intime avec les sentiments : elles sont les sentiments devenus conscients ; si bien que cette volonté devenue idées claires n'efface ni ne remplace les sentiments qui subsistent comme substrat de la volonté (1). Comme le personnage est animé de sentiments différents, bien qu'apparentés, ces sentiments varieront selon les situations, pourront même à certains moments paraître reprendre le pas sur la volonté à laquelle ils ont donné naissance. Mais la volonté, elle, ne varie jamais, malgré certaines détentes momentanées qui se traduisent par un retour à l'état affectif premier, — état qui n'est jamais en contradiction avec la volonté.

Il nous faut maintenant considérer de près *Electre* afin de vérifier si le déroulement des scènes obéit bien à cette progression interne dont parle le savant français. Le résultat de cet examen permettra de répondre à la question qui fait l'objet de cette étude et, en ce qui concerne du moins cette pièce, de justifier Sophocle du très grave reproche que lui adresse M. de Wilamowitz.

Tout d'abord reconnaissons que le *prologue* pourrait aiguiller le spectateur sur une fausse voie en lui faisant croire que les actes d'Oreste formeront le sujet de la tragédie. Si cette scène d'exposition, qui ne manque ni de beauté, ni de

(1) C'est en cela que les personnages sophocléens diffèrent totalement de ceux de Corneille. Rien, en *Antigone*, ne s'oppose à ce qu'elle traduise en actes sa volonté, puisque celle-ci est conforme à ses sentiments ; d'où l'absence complète chez Sophocle de ce qu'on pourrait appeler des « stances de Rodrigue ». (Cf. *Le Cid*, I, 6, et *El.*, v. 938 sqq.)

grandeur permet à l'auteur de planter magnifiquement le décor et met le spectateur au courant du sujet extérieur qui fournit au dramaturge l'intrigue de sa pièce, elle ne fait pas prévoir quel en sera le sujet véritable. C'est là, semble-t-il, une faute (1), qui pourtant est compensée par l'effet théâtral très puissant par lequel elle se termine (2) et qui fait porter dès lors l'intérêt sur Electre, protagoniste du drame.

A partir de là, la succession des scènes se fait-elle en obéissant à un principe d'unité qui consisterait en une progression qui serait celle-là même de la mise en lumière toujours plus évidente de la conscience et de la volonté d'Electre, cette conscience et cette volonté étant intimement reliées à des sentiments premiers qui persistent tout au long de la tragédie? Ou, au contraire, ces scènes sont-elles de magnifiques morceaux dont la succession ne serait commandée par aucun principe d'unité?

Puisque c'est de la psychologie du protagoniste que la tragédie tirerait son unité, voyons quels sont les sentiments dont Electre est animée. Ils sont au nombre de quatre : la haine à l'égard de sa mère et d'Egisthe ; le désir que sa haine soit assouvie et que, par là, lui soit assuré le bonheur et les honneurs dont elle est privée par sa mère et par l'amant de sa mère ; l'amour fraternel ; enfin, le désir intermittent de mourir, désir qui est lié à la fois à son amour pour Oreste et au découragement provoqué par ce qui est cause de sa haine.

Si elle hait, c'est qu'elle est profondément malheureuse. Les premiers mots qu'elle dits, derrière la coulisse, — ce qui leur confère une grande force tragique —, sont : *ὦ μοι μοι δούσηνος* (*Hélas ! infortunée que je suis !*, v. 77). Et, trois vers plus loin, la première fois que son nom est prononcé, il est accompagné du même adjectif *δούσηνος* ; puis vient le mot *gémissements* qui semble devoir s'accoupler au nom d'Electre (v. 80 - 81). Elle est exclue de la table paternelle, *couverte d'un indigne vêtement* (v. 185 - 192). La scène de l'altercation avec Clytemnestre (v. 516 - 633) illustre son malheur, en faisant voir au spectateur la cruauté de sa mère à son égard. Sa haine a une cause lointaine, mais toujours vivante, elle a vu

(1) Ce qui semble donner raison à Voltaire qui, dans la *Dissertation...*, entre mille traits des auteurs modernes que *Sophocle eût fait gloire d'imiter*, cite les scènes d'exposition. Voir, plus bas, p. 71, notre essai de justification du *prologue*.

(2) *El.*, v. 77 - 81.

le crime : *Ma mère, et son compagnon de lit, Egisthe, ont fendu la tête de mon père, comme des bûcherons un chêne, avec une hache meurtrière* (v. 97 sq.). Or, elle aimait son père et voit maintenant dans le lit d'Agamemnon *celui qui l'a tué de sa main* (v. 266 - 274; cf. *passim*, les nombreux passages où elle invoque avec tendresse et émotion le souvenir de son père).

Le désir de voir sa mère tuée, sa haine assouvie, le désir de rentrer en possession du bonheur dû à la fille d'Agamemnon sont exprimés en maints passages (v.g. v. 110 - 120). Mais, à l'état affectif, ce désir ne se traduit pas en une volonté génératrice d'actions : tout au plus, ces sentiments se traduisent-ils par une attitude d'opposition, de blâme continu, par des accusations courageusement formulées à toute occasion. C'est pourquoi elle attend *toujours Oreste pour mettre un terme à ces douleurs* (v. 303 sq.). Ce désir de voir arriver son frère n'est pas dû uniquement au fait qu'il tuera Clytemnestre son complice (1); il a aussi pour cause un profond amour fraternel. Electre n'est pas toute haine (cf. v. 1311) : vivant des circonstances heureuses, elle eût été aimante, capable de joie et de tendresse. Cet amour fraternel, que l'auteur d'*Antigone* sait si bien dépeindre, s'exprime tout particulièrement dans la scène de l'urne (v. 1097 - 1287). Quant au découragement que parfois Electre éprouve et qui lui fait désirer la mort, il apparaît surtout dans le court monologue qui suit le récit du précepteur (v. 804-822) et qui se termine par ces mots : *Et alors qu'un des gens du palais me tue, si je l'importune : ce sera un bienfait, si je meurs, un chagrin, si je continue d'exister : je n'ai plus aucun désir de vivre*. Il apparaît également, à l'état affectif pur, dans le dialogue lyrique qui suit (v. 823 - 870). Ce profond désespoir éclate aussi, tout naturellement dans la première partie de la scène de l'urne, celle qui précède la reconnaissance (v. 1097 - 1214). Comme on peut le voir par nos références, ces sentiments du protagoniste courent, comme autant de thèmes dans une symphonie, tout au long de la pièce à qui ils donnent une texture qui est déjà un élément d'unité.

Cependant, si liés soient-ils les uns aux autres par leur vérité psychologique, ils ne suffisent pas à conférer à la tragédie cette progression organique qui est la condition d'une pièce bien construite. Quelque touchante ou pathétique qu'en soit la

(1) C'est par là, cependant, que le sujet de l'intrigue est relié au sujet véritable.

peinture, les scènes destinées à les exprimer, toutes dramatiques qu'elles puissent être, ne feraient ensemble pas autre chose qu'une de ces tragédies mal construites d'Euripide dont nous parlons au début. Si Croiset a raison contre Wilamowitz, c'est dans la transformation des sentiments en idées et en volonté, transformation liée au déroulement des péripéties qui en sont la condition contingente, mais indispensable, et aux confrontations du protagoniste avec les autres personnages, que doit résider la véritable progression de la tragédie. Il convient donc d'examiner maintenant de ce point de vue notre pièce.

Après le monologue et le dialogue lyriques de la *parodos* où Electre exprime sur un mode affectif tous ces sentiments, elle les expose dans la première scène du premier *épisode* avec une grande clarté et beaucoup de lucidité. S'ils ne sont pas encore transformés en volonté d'agir, — aucune circonstance n'est encore venue donner l'occasion de cette *transmutation* —, ils deviennent clairs et se fondent sur des raisons dont on voit Electre prendre une nette conscience. Ce double exposé, ce passage du lyrique au langage parlé sont d'une haute signification : ils marquent le premier pas vers une actualisation volontaire des sentiments. Puis arrive Chrysothémis, personnage dont les sentiments sont analogues à ceux du protagoniste, mais dont l'âme faible est incapable d'en faire jamais des raisons d'agir, personnage destiné à servir de repoussoir, au sens pictural de ce terme, au protagoniste à qui, par ses hésitations et sa faiblesse, il fait prendre conscience des raisons qu'il a de vouloir et d'agir. Comme Chrysothémis donne à sa sœur des conseils de modération, celle-ci refuse de les suivre; et ce refus, dont elle doit rendre compte à Chrysothémis, qui n'est pas son ennemie, l'amène à exposer plus clairement qu'auparavant ses motifs de haine, sa volonté de troubler le repos de sa mère par ses blâmes hautement exprimés. C'est là un second pas vers l'actualisation volontaire de deux sentiments : la haine, le désir de vengeance. Puis Chrysothémis annonce à Electre qu' Clytemnestre et Egisthe ont décidé, si elle ne met un frein à ses reproches, de l'enterrer vivante, — événement extérieur destiné à mettre en lumière la conscience que le protagoniste prend de l'un de ses sentiments, le désir de mourir. Electre alors affirme avec une volonté lucide qu'elle préfère la mort plutôt que de renoncer à l'assouvissement de sa haine. Mais sa sœur lui apprend le songe effrayant qu'a fait leur mère et lui explique qu'elle est envoyée pour déposer des offrandes

sur le tombeau d'Agamemnon afin de détourner la fureur vengeresse du mort. Aussitôt Electre reprend espoir; au désir de mourir se substitue de nouveau l'espoir de vengeance qui s'exprime, — troisième pas —, par un acte volontaire, une décision: elle donne des ordres précis à sa sœur pour contrecarrer le dessein de sa mère. Notons en passant que, dès qu'elle reprend espoir, Electre est capable de tendresse; elle dit: *O chère sœur!* (v. 431) à Chrysothémis si malmenée par elle un instant auparavant. C'est qu'elle n'est pas par nature haineuse; pour qu'elle devînt l'implacable Electre, il a fallu que la haine s'infiltrât en elle (cf. v. 1311). Là encore, un élément d'unité fourni par la psychologie du protagoniste.

Au deuxième *épisode*, Electre, toujours en scène, est mise en face de sa mère qui vient prier Apollon de détourner les menaces entrevues par elle en songe (1). Comme Créon vis-à-vis d'Antigone, Clytemnestre est un personnage ayant une volonté ferme et bien arrêtée dès le début de la pièce, volonté à la formation de laquelle le spectateur n'assiste pas; car ce personnage n'a d'intérêt que dans la mesure où, par son opposition au protagoniste, il oblige celui-ci à exposer les motifs qui le font agir. Son rôle est donc analogue à celui que le poète a dévolu, ici, à Chrysothémis, dans *Antigone*, à Ismène, mais non point identique: l'un et l'autre consiste à faire ressortir, le premier sur un arrière-fond un peu terne et de même teinte, le second par un vif contraste, la tonalité de l'âme du protagoniste. Cette rencontre, outre qu'elle illustre le malheur de la jeune fille, donne à Electre l'occasion d'affirmer, avec d'autant plus de force et d'assurance que le récit du songe l'a remplie d'espérance (2), sa volonté et ses raisons devenues maintenant idées parfaitement claires: en un réquisitoire d'une logique ardente, elle justifie sa haine: sa mère n'a aucune excuse, tous ses actes ont été iniques et la condamnent sans appel à mériter la haine de ceux qui, aimant la justice, se souviennent de l'assassinat d'Agamemnon. Tout cela, si Electre le sentait, elle ne l'avait pas encore "réalisé" avec une semblable clarté. Cette scène, qui ne fait nullement avancer l'action extérieure vers son dénouement, s'inscrit donc, comme quatrième pas, de façon nécessaire dans la progression interne

(1) On voit que, même en ce qui concerne l'intrigue, cette tragédie est fort bien agencée.

(2) C'est là une preuve du lien intime entre les sentiments et la volonté.

de la tragédie. Péripétie fournie par le déroulement de l'intrigue: le précepteur arrive qui annonce qu'Oreste n'est plus et raconte longuement les circonstances de sa mort. Est-ce là un hors-d'œuvre? Bien au contraire: ce récit prend toute sa signification, intimement liée à l'intérêt véritable de la tragédie, si l'on songe que le spectateur voit Electre l'écouter et recevoir, dans son amour fraternel et ses espérances de vengeance, ce coup terrible. De nouveau le désir de mourir s'empare d'elle; elle en fait la constatation lucide: ce n'est plus un simple sentiment, c'est un acte volontaire (v. 804 - 822) (1). Puis son désespoir éclate dans un court dialogue lyrique (v. 823 - 870). ce retour temporaire à l'un des états affectifs premiers est une péripétie profondément liée à l'intérêt véritable. C'est encore un pas, le cinquième, tout au long de ce chemin psychologique qui est celui de la progression interne de la tragédie, un pas en arrière certes, mais qui se fait sur la ligne même de la route intime suivie par l'âme d'Electre: dans la chorégraphie, le danseur peut revenir à une figure précédente sans que, pour cela, il y ait rupture dans la progression de la danse, de même que, dans la frise des Panathénées, cortège en marche vers le lieu où sont les douze dieux, on voit des personnages tourner le dos au but vers lequel se dirige la procession sans nuire le moins du monde au mouvement unique qui anime l'ensemble (2).

(1) Les mots: *Et alors qu'un des gens du palais me tue, si je l'importeune... je n'ai plus aucun désir de vivre* (v. 820 sqq.), sont l'expression d'un sentiment premier, le désir de mourir. Par contre, ceux-ci, qui s'inscrivent à l'intérieur de cette affirmation: *Ce sera un bienfait, si je meurs, un chagrin, si je continue d'exister*, sont l'exposé rationnel des motifs du vouloir auquel a donné naissance ce sentiment, dont les circonstances ménagées par le poète ont fait qu'Electre fût amenée à prendre conscience. Nous donnons ici cette analyse détaillée de ces trois vers comme exemple de celle que l'on pourrait faire de presque tous ceux de cette tragédie: elle confirmerait toujours notre thèse.

(2) Entre deux passages analogues de la tragédie (v. 86-309; 804-870), il y a une symétrie remarquable qui fait penser à celle d'un fronton. V. 86-250: dialogue lyrique exprimant des sentiments; v. 251-309: tirade parlée où ces sentiments deviennent idées claires (soit 2/3 contre 1/3). V. 604-822: tirade parlée, où les sentiments sont exposés en idées claires; v. 823-870: dialogue lyrique exprimant ces sentiments (soit 1/3 contre 2/3). Mais entre les deux membres de ce chiasme, il n'y a pas rigoureuse identité, ce qui serait contraire à la progression dramatique. Dans la seconde tirade, les sentiments sont des idées claires, parce que le protagoniste est déjà fort avancé dans la prise de conscience de ses affections; dans la première, les sentiments se cherchent des raisons pour devenir motifs d'action volontaire. Il y a donc progrès de la première à la seconde.

Au troisième *épisode*, nouvelle péripétie liée au déroulement de l'intrigue, Chrysothémis revient toute joyeuse du tombeau d'Agamemnon où elle a vu des offrandes déposées par quelqu'un dont elle ne doute pas qu'il ne soit Oreste. Sans lui dire que leur frère est mort, Electre la laisse faire ses joyeuses suppositions et le long récit de son pèlerinage. Maladresse insigne de l'auteur qui cherche ainsi à raccrocher son véritable sujet tout en repoussant aussi loin que possible l'obligation de dénouer son intrigue? Non pas : ce silence cruel, — la dureté est manifestation de force —, donne à Electre le temps de se recueillir, de surmonter son désespoir, de laisser bouillonner en elle les sentiments de haine et de vengeance. Enfin, avec une brièveté significative, sur un ton froid et dur, elle apprend à sa soeur la mort d'Oreste. Puis soudain, avec une force admirable, elle annonce qu'elle se décide à accomplir elle-même le meurtre, elle motive sa décision par des raisons précises, fondées sur les sentiments suivants : l'amour qu'elle porte à son père mort, sa haine de Clytemnestre, son désir de reconquérir le bonheur que sa mère lui a interdit. C'est un nouveau pas, le sixième, un pas décisif qui conduit d'un état affectif à son actualisation volontaire. Jusqu'alors, avec une clarté d'idées que nous avons vue s'affirmer progressivement de scène en scène, elle ne voulait rien d'autre qu'importuner activement Clytemnestre et Egisthe, *boire le sang de la vie* de sa mère, comme le disait cette dernière (v. 785 sq.), en attendant passionnément qu'Oreste vint pour la tuer. Maintenant, cette volonté devient plus nette et plus précise : elle tuera elle-même. Et le refus que Chrysothémis oppose à sa demande de collaboration lui donne l'occasion de montrer à quel degré d'intensité est parvenue cette volonté qui s'appuie sur des raisons nées des sentiments. Telle était donc la raison profonde du stratagème d'Oreste qui est une invention de Sophocle (1) : placer Electre dans une situation telle que deux de ses sentiments fondamentaux passent d'un état affectif plus ou moins conscient à une volonté ferme et clairement affirmée.

L'un des plus forts aussi parmi les sentiments d'Electre est la haine causée, nous l'avons vu, par les malheurs de sa destinée. C'est par le malheur que s'explique complètement ce qu'est Electre. Au quatrième *épisode*, la malheureuse Electre prend dans ses bras l'urne censée contenir les cendres de

(1) Ni dans la légende, ni dans Eschyle et Euripide, on ne voit Oreste se faire passer pour mort.

son frère. Pourquoi cette scène? Simplement à cause de son pathétique intense? Elle est au contraire intimement liée au sujet véritable, puisqu'elle est là pour que le protagoniste atteigne au tréfond de son désespoir et qu'il exprime, avec une netteté que le chagrin n'obscurcit pas, la conscience qu'il prend de l'immensité de son malheur. Evidemment, Electre oublie complètement la décision qu'elle avait prise de tuer sa mère. Mais, encore une fois, la mise à mort de Clytemnestre n'est pas le sujet véritable de la tragédie; d'ailleurs, le spectateur le sait, c'est Oreste qui tuera la reine. Le *prologue*, qui avait pu le tromper au début, rend maintenant au spectateur le service de lui faire comprendre que ce n'est pas le coup de poignard qu'Electre voulait donner à sa mère qui est intéressant, — Oreste s'en charge —, mais bien le fait qu'Electre en fût arrivée jusqu'à prendre une pareille décision. Ici, la courbe de la progression interne s'infléchit de manière à rejoindre, en une convergence qui est art suprême de composition, celle du déroulement de l'intrigue extérieure et à se confondre totalement avec elle : le stratagème d'Oreste et les actes meurtriers qu'il est sur le point de commettre vont maintenant coïncider toujours davantage avec la mise en lumière de l'âme d'Electre. En effet, si l'altercation avec Clytemnestre avait permis à Electre d'exposer les raisons de sa haine, elle n'avait pas encore eu l'occasion de toucher du doigt l'atrocité de sa destinée. Maintenant, elle est en face du plus atroce malheur qui pût lui arriver. Cette scène de l'urne constitue bien un pas en avant, le septième, dans le chemin douloureux que suit Electre en prenant conscience d'elle-même. Mais on se rappelle qu'Electre a, dans le fond de sa nature, plus vrais que sa haine, une immense capacité de tendresse, de joie, un immense besoin de bonheur. La scène de la reconnaissance est là pour qu'elle puisse savoir avec clarté, huitième pas, ce qu'est que le bonheur d'aimer, d'être joyeuse, d'espérer, bonheur qui, désormais, est manifestement possible (1). Les circonstances lui permettant de détendre sa volonté de haïr, elle voit vraiment clair en elle-même. Elle s'explique les raisons de tout ce qu'elle a ressenti et éprouvé : *car, depuis longtemps, la haine s'est infiltrée en moi, et maintenant que je t'ai vu, je ne cesserai de*

(1) Ce passage contient des rappels très conscients et très précis du sentiment de haine (cf. v. 1243-1246) : à côté de la progression que nous avons mise en lumière, ligne majeure selon laquelle se développe la tragédie, cette persistance des thèmes fournis par les sentiments premiers est un lien qui cimenter les unes aux autres toutes les scènes.

pleurer de joie, dit-elle dans deux vers (v. 1311 sq.) qui donnent la clé de toute sa psychologie. Il fallait qu'elle passât par ces alternatives d'espoir, de désespoir, qu'elle fût amenée à se décider à l'action suprême, que le malheur le plus atroce s'abattît sur elle pour qu'elle fût enfin capable de porter sur elle-même ce diagnostic définitif. C'est là le point culminant de l'oeuvre où tout le reste tendait en une convergence de plus en plus concentrée autour de l'âme d'Electre.

Quant aux dernières scènes, celles du sixième épisode, tout en dénouant l'intrigue, elles sont pour Electre l'occasion d'affirmer sa haine, et avec quelle violence parfaitement consciente (v. 1407 - 1418) ! Si Sophocle n'attire pas l'attention du spectateur sur le meurtre lui-même, mais sur l'attitude d'Electre au moment où Oreste tue sa mère, c'est parce que l'intérêt véritable de la tragédie n'est pas le meurtre commis par Oreste, mais Electre prenant conscience de ses sentiments, les fondant en raison et les traduisant en actes volontaires. Et les dernières paroles d'Electre sont encore de la haine traduite en un acte volontaire (v. 1483 - 1490 (2)). Là aussi, c'est la volonté d'Electre qui est mise en valeur au moment où Oreste mène Egisthe à la mort.

La conclusion de cet examen est évidente : l'intérêt véritable de la tragédie est la conscience qu'Electre prend de ses sentiments, leur traduction en idées claires, leur justification par des raisons toujours plus nettement exposées, leur transmutation en états volontaires. Les péripéties fournies par l'intrigue, celles qui proviennent du sujet réel, toutes obéissent à une progression continue qui suit la courbe de la transformation des sentiments en éléments de la conscience et de volonté, la courbe le long de laquelle, "le protagoniste, comme le dit Croiset, éclaire son âme". Même en ce qui concerne le prologue, *Electre* est une tragédie parfaitement construite.

A. DE MARIGNAC

(2) Les vers 1485 sq. sont une interpolation manifeste.

LA GUERRE D'ALEXANDRIE

INTRODUCTION

Le titre de *Bellum Alexandrinum* qu'on donne généralement à cet opuscule de 78 chapitres est inexact. Seuls les 33 premiers chapitres ont trait à la Guerre d'Alexandrie, les autres étant consacrés au récit des deux expéditions contre Pharnace, à la guerre d'Illyrie et aux événements d'Espagne. D'autre part, les préliminaires de l'expédition d'Egypte sont narrés par César lui-même dans les 7 derniers chapitres du *De Bello civili*, malheureusement inachevé, dont le *Bellum Alexandrinum* forme la suite.

Ces deux textes se rapportent donc aux mêmes événements, bien qu'ils ne soient pas du même auteur. Ils constituent la source la plus authentique que nous possédions sur cet épisode de la Guerre civile, et sont, en même temps, un document de premier ordre pour l'histoire d'Alexandrie et d'Egypte : « ...l'auteur du *De Bello civili*, est à la fois témoin oculaire et principal acteur des événements qu'il raconte ⁽¹⁾ » ; quant au *Bellum Alexandrinum*, si l'auteur ⁽²⁾ n'a pas assisté aux différentes péripéties de la Guerre d'Alexandrie, il en a noté les détails sous la dictée de César lui-même.

Le *De Bello civili* a été maintes fois traduit en français : nous nous contentons de donner en sommaire des 7 derniers chapitres (106-112) du troisième livre. Une traduction du *Bellum Alexandrinum* paraît dans le recueil de Nisard intitulé : *Salluste, Jules César, C. Velleius Paterculus et A. Florus* (Firmin-Didot, Paris, 1879, 1 v. in-8, 728 pages.) Elle est de M. Dumas-Hinard. Le traducteur a suivi le texte latin de l'édition Lemaire. Depuis lors, la critique a fait des progrès. Les éditions R. Schneider et A. Klotz, que nous avons utilisées, sont beaucoup

(1) Paul GRAINDOR, *La Guerre d'Alexandrie*, dans : *Recueil de travaux publiés par la Faculté des Lettres*, Le Caire, 1931, 7^{me} fascicule.

(2) On ne le connaît pas avec certitude. A s'en tenir à la lettre de la préface du VIII^e livre du *De Bello Gallico*, il faut admettre en toute vraisemblance, pense Klotz, qu'Hirtius est l'auteur du *B. A.*

plus exactes. Nous nous sommes efforcé de suivre de plus près le texte latin, en gardant, chaque fois que la syntaxe française le permet, l'ordre des mots latins, leur valeur précise, les tournures mêmes de l'auteur, en maintenant au besoin l'ambiguïté, la lourdeur ou la longueur de la phrase latine; bref, en conservant, dans la mesure du possible, au récit latin son caractère propre. L'espace limité réservé à cet article ne nous permet pas d'y joindre un long commentaire ni d'indiquer les nombreuses difficultés du texte latin. Nous n'en donnons que les explications indispensables.

On consultera avec grand profit l'ouvrage de M. P. GRAINDOR : *La Guerre d'Alexandrie*. M. Graindor résout, autant que possible, les problèmes que soulève cet épisode militaire.

R. SAVIOZ

Sommaire des sept derniers chapitres (106-112) du III^{ème} livre du "De Bello Civili"

Après Pharsale, César passe en Asie, où il ne reste que quelques jours : il est pressé de rejoindre Pompée en Egypte. Arrivé à Alexandrie avec deux légions et 800 chevaux, il apprend l'assassinat de Pompée. Il est accueilli par une population hostile, inquiète de ses succès. Il fait venir aussitôt d'autres légions d'Asie, mais lui-même est retenu dans le port d'Alexandrie par les vents désastreux. Il s'occupe d'abord d'arbitrer le différend qui divisait le roi Ptolémée et sa soeur Cléopâtre. Leur père, Ptolémée Aulète, avait désigné, par testament, pour ses héritiers l'aîné de ses fils et l'aînée de ses filles, et avait demandé au peuple romain, son allié, de faire observer ses dernières volontés. Mais le jeune roi et sa soeur avaient pris les armes pour décider lequel des deux aurait tout le pouvoir à lui seul. Pendant que César était occupé à apaiser ce différend, l'eunuque Pothin, gouverneur du jeune roi, fait venir de Péluse à Alexandrie, à l'insu de César, l'armée royale, commandée par Achillas. César députe, de la part du roi, vers Achillas Dioscoride et Sérapion, pour connaître ses intentions; mais Achillas les fait assassiner.

Achillas avait une excellente et puissante armée. Il s'empare de la ville, à l'exception du quartier occupé par César au sud du Grand Port, où s'élevait le palais royal. César distribue habilement ses cohortes à l'entrée des rues et soutient l'attaque dans la ville. Cependant une menace plus grave le presse au nord. En effet, les ennemis tentent de s'emparer au plus vite de la flotte égyptienne dans le Port Est. Celle-ci comprenait 50 galères revues de port après Pharsale, 22 autres stationnant d'ordinaire à Alexandrie et beaucoup d'autres bateaux dans les arsenaux. Achillas, maître du port et de la mer, aurait pu intercepter les vivres et les renforts destinés à César. La situation était donc très critique. Aussi César n'hésite-t-il pas à brûler toute cette flotte; et, par une habile manoeuvre, il s'empare de l'ilot sur lequel s'élevait le Phare, bastion qui commandait l'entrée du Grand Port. Par cette action rapide il libère sa propre flotte et peut recevoir désormais librement les secours attendus du dehors. Il augmente les jours suivants ses fortifications dans la ville.

Le *De Bello Civili* se termine par la brève mention de la fuite d'Arsinoë, soeur cadette de Cléopâtre, du palais royal et de l'assassinat de Pothin, l'administrateur du royaume.

LA GUERRE D'ALEXANDRIE

I. — Quand la guerre d'Alexandrie eut éclaté, César fait venir de Rhodes, de Syrie et de Cilicie toute la flotte; à la Crète il demande des archers; à Malchus, roi de Nabathée (1), des cavaliers; il ordonne de se procurer de toutes parts des machines de guerre et de lui envoyer du blé, de lui amener des troupes. Entre temps, ses fortifications s'augmentent chaque jour de nouveaux ouvrages; et à tous les points de la place forte, qui paraissent moins sûrs, on adapte des tortues et des mantelets (2); en outre, par des ouvertures pratiquées dans les maisons on frappe à coups de béliet les maisons voisines; et, autant l'on démolit ou, par la force, on gagne du terrain, autant l'on avance les fortifications. Alexandrie est à peu près à l'abri de l'incendie, parce que ses maisons sont construites sans bois de charpente; leur structure est consolidée par des voûtes et elles sont recouvertes de gravats ou d'un carrelage. César cherchait surtout à couper du reste de la ville, en poussant en avant ses ouvrages et ses mantelets, la partie de la place forte qu'un marécage (3) s'avancant du midi rendait très étroite; il considérait,

(1) La Nabathée était une vaste région s'étendant de l'Euphrate à la mer Rouge. Malchus avait hérité de son prédécesseur, Arétas, la reine de Pompée et de son parti, et devait être tout disposé à (...) venir en aide à César. (GRAINDOR, *La Guerre d'Alexandrie*, p. 73). Pompée avait repoussé Arétas de la Palestine en 63 avant J.-C.

(2) Les tortues et les mantelets étaient des ouvrages de défenses de différentes sortes.

(3) Le mot «*palus*» soulève un embarrassant problème topographique. Désigne-t-il le lac Marcotis lui-même ou un marais alimenté par le lac et par le canal dérivé du Nil? A quelques nuances près, c'est à l'une ou à l'autre de ces deux hypothèses que se rangent en définitive les critiques.

Pour M. Graindor le *palus* du *Bellum Alexandrinum* n'est autre que le lac Marcotis. Or cette hypothèse force le sens du mot latin, qui normalement signifie *marécage*, *marais*, *étang*, et, de plus, elle entraîne le commentateur dans une explication compliquée sinon invraisemblable. En effet, il ne peut s'agir du lac Marcotis, puisqu'il semble établi que le canal partant de la branche canopique du Nil suivait à peu près le cours du canal Mahmoudieh actuel et séparait sur toute sa longueur la ville d'Alexandrie du lac Mariout, et, par conséquent, ce *palus* du lac. Il est vrai que M. Graindor suppose, en s'appuyant sur Strabon, que «ce canal rejoignait l'extrémité septentrionale du *portus* Marcotis, pour se continuer ensuite vers l'ouest jusqu'au Kibotos.» M. Graindor ajoute: «En tout cas, il faut absolument renoncer à supposer que le canal contourrait le nord du lac Marcotis dans toute la longueur de la ville.» Impossible d'entrer ici dans les détails de la discussion.

Malgré l'autorité de Strabon et de M. Graindor, ce *palus* n'est, à notre avis, ni le lac Marcotis ni son prolongement, mais un marais

d'abord, qu'en divisant la ville en deux parties, la bataille serait dirigée par un commandement unique; ensuite, qu'on pourrait porter secours aux troupes en difficulté et amener du renfort depuis l'autre côté de la place; mais, en tout premier lieu, qu'il aurait de l'eau et du fourrage en abondance; sa quantité d'eau était très limitée; quant au fourrage il n'avait absolument aucun autre moyen de s'en procurer; le marécage pouvait lui en fournir largement l'une et l'autre.

II. — Les Alexandrins, de leur côté, ne mettaient ni hésitation ni retard dans leurs préparatifs. En effet, ils avaient envoyé dans toutes les parties du territoire égyptien, jusqu'aux frontières du royaume, des ambassadeurs et des recruteurs chargés de lever des troupes; ils avaient transporté dans leur place forte des armes et des machines de guerre en grande quantité et groupé une masse considérable d'hommes. En outre, ils avaient installé dans la ville de vastes ateliers d'armes. De plus, ils avaient armé les esclaves adultes; à qui les maîtres assez riches fournissaient la nourriture quotidienne et la solde. A l'aide de tant d'hommes bien répartis ils défendaient les fortifications des quartiers excentriques; ils maintenaient en réserve les cohortes de vétérans dans les endroits les plus fréquentés de la ville de manière que, dans quelque endroit que l'on combattît, elles pussent se présenter avec leurs forces intactes là où il faudrait porter secours. Ils avaient fermé toutes les rues et ruelles avec une triple barricade construite en pierres équarries et n'ayant pas moins de 40 pieds de haut; ils avaient muni toutes les parties basses de la ville de tours très élevées à dix étages. De plus, ils avaient construit d'autres tours mobiles de tout autant d'étages auxquelles ils avaient fixé des roues, et qu'ils déplaçaient, au moyen de câbles et de bêtes de trait, dans les avenues toutes droites, partout où il leur semblait bon.

III. — La ville, très productive et très riche en toutes choses, pourvoyait à ces préparatifs. Les habitants, très ingénieux et d'intelligence très vive, exécutaient eux-mêmes avec tant d'adresse les ouvrages qu'ils nous avaient vu faire, que c'étaient les nôtres qui paraissaient les avoir copiés; ils inventaient aussi beaucoup de choses de leur propre initiative; et, dans le même

s'avançant du côté sud dans la partie est de la ville d'Alexandrie et alimenté par les infiltrations d'eau du canal et peut-être aussi du lac Marcotis. C'est ce qui nous paraît ressortir du texte du *Bellum Alexandrinum*. César, qui n'en était pas éloigné, cherchait à s'y approvisionner en eau et en fourrage, mais Achilles réussit à l'en empêcher.

moment, ils attaquaient nos fortifications et détendaient les leurs. Cependant, voici les propos que leurs chefs tenaient dans les conseils de guerre : Le peuple romain prenait peu à peu l'habitude d'occuper ce royaume. Quelques années auparavant, A. Gabinus se trouvait en Egypte avec son armée (1). Pompée, en fuite, s'y était réfugié; César y était arrivé avec des troupes, et le meurtre de Pompée ne leur avait profité en rien, d'autant moins que César s'attardait chez eux. S'ils ne l'en expulsaient pas, leur royaume deviendrait une province romaine; il fallait agir promptement : car, coupé du dehors par le mauvais temps particulier à la saison, César ne pouvait recevoir des renforts d'outre-mer.

IV. — Cependant un désaccord s'était élevé, comme on l'a montré précédemment (2), entre Achilles, qui commandait les troupes de vétérans, et Arsinoë, fille cadette du roi Ptolémée; ils se tendaient des embûches l'un à l'autre, chacun voulant accaparer tout le pouvoir; poussée par l'eunuque Ganymède, son gouverneur, Arsinoë s'en empare la première et fait assassiner Achilles. Son allié et protecteur mort, Arsinoë détenait tout pouvoir. Elle confie l'armée à Ganymède. Ce dernier, dès son entrée en fonction, augmente ses largesses aux soldats et dirige tout avec une égale vigueur.

V. — Le sous-sol d'Alexandrie contient des galeries pratiquées dans presque toute son étendue; des canaux, communiquant avec le Nil, amènent l'eau dans les maisons particulières, où, avec le temps, elle se clarifie peu à peu et dépose. Les propriétaires des maisons et leurs familles avaient coutume de s'en servir; car celle qu'apporte le Nil est tellement limoneuse et trouble qu'elle engendre toutes sortes de maladies; mais la plèbe devait s'en contenter, parce qu'il n'y a pas de fontaine dans

(1) Ptolémée Aulète avait dû se réfugier à Rome par suite de révoltes provoquées par ses exactions. En son absence, les Alexandrins mirent à sa place sa fille, Bérénice, épouse d'Archelaus. Ptolémée obtint du sénat romain l'aide de Gabinus, proconsul de Syrie depuis l'année 57. En 55, Gabinus rétablit sur le trône Ptolémée, après avoir tué Archelaus et Bérénice, massacré un grand nombre de riches et confisqué leurs biens. Il repartit pour la Syrie en laissant en Egypte une partie de ses troupes pour protéger le roi. Ce sont ces mêmes troupes, mentionnées dans le *De Bello Civili* (chap. 110) et dans le *Bellum Alexandrinum* (chap. IV), qui formaient le noyau important de l'armée d'Archillas.

(2) Cf. *De Bello Civili*, III, 112, 11.

toute la ville. Or, ce fleuve (1) coulait dans la partie de la ville qu'occupaient les Alexandrins. De ce fait, Ganymède se rendit compte qu'il pouvait couper l'eau aux nôtres, qui, répartis par quartiers pour défendre les fortifications, puisaient l'eau dont ils avaient besoin dans les citernes et les bassins des maisons privées.

VI. — Son plan arrêté, Ganymède entreprend cette oeuvre importante et difficile. Il commence par boucher les canalisations et couper toutes voies d'accès aux parties de la ville qu'il occupait; puis, au moyen de machines hydrauliques actionnées par des roues, il aspire en masse l'eau de la mer; il en fait couler sans interruption des quartiers supérieurs vers celui de César. C'est pourquoi l'eau qu'on puisait dans les maisons voisines était légèrement plus salée que d'habitude; nos soldats, très surpris, se demandaient comment cela s'était produit; ils avaient de la peine à se fier à leur goût, parce que leurs camarades, postés plus bas, disaient qu'ils buvaient une eau de même saveur que celle qu'ils avaient précédemment l'habitude de boire; en comparant les eaux et en les goûtant, ils se rendirent compte combien elles différaient entre elles. Mais, en peu de temps, l'eau des bassins supérieurs devint absolument imbuvable, tandis que celle des bassins inférieurs s'altérait et prenait de plus en plus un goût salé.

VII. — A cette constatation tout doute disparaît et fait place à une frayeur telle qu'ils se crurent tous réduits à la dernière extrémité; au point que les uns se plaignaient de ce que César tardait à donner l'ordre de s'embarquer; que les autres redoutaient [dans cette opération] un sort beaucoup plus dur, car ils ne pourraient cacher aux Alexandrins les préparatifs de la fuite, étant si peu distants d'eux, ni trouver refuge sur les bateaux sous la pression menaçante des ennemis. Il y avait, en outre, dans le quartier occupé par César un grand nombre d'habitants qu'il n'avait pas expulsés de leurs maisons, parce que, en présence des nôtres ils feignaient d'être fidèles et paraissaient avoir abandonné le parti de leurs concitoyens. En sorte que, si j'avais à soutenir que les Alexandrins ne sont ni fourbes ni téméraires, j'épuiserais en vain toutes les ressources de mon

(1) Le terme latin *flumen* désigne un cours d'eau d'une certaine importance. Cf. *De Bello Gallico*, (I, 12) «*Flumen est Aror*», la Saône; B. A. XXIX. 1. *flumen*, canal étroit se déversant dans le Nil. Il s'agit ci-dessus non pas de la branche canopique du Nil, mais du canal qui alimente encore aujourd'hui Alexandrie et connu sous le nom de canal Mahmoudieh.

éloquence; car quiconque connaît à la fois et leur race et leur caractère ne peut douter que ce ne soit l'espèce d'hommes la plus portée à la trahison.

VIII. — César calmait la frayeur de ses soldats en leur montrant des motifs de consolation. On pourrait, affirmait-il, trouver de l'eau douce en creusant des puits; tous les rivages ont par nature des filets d'eau douce; si jamais la nature du littoral égyptien était différente de celle de tous les autres, cependant, puisqu'ils étaient maîtres de la mer et que les ennemis n'avaient pas de flotte, on ne saurait les empêcher d'aller chercher chaque jour de l'eau par bateaux soit à leur gauche, à Paratonium, soit à leur droite, à l'île (1); les vents ne seraient jamais contraires à la fois à la navigation dans l'une et dans l'autre de ces directions. Il ajoutait qu'en tout cas il n'était nullement question de fuir, non seulement pour ceux qui estimaient leur dignité avant tout, mais pas même pour ceux qui ne songeaient qu'à leur salut; que c'était une question importante de résister aux attaques des ennemis depuis les retranchements; qu'en les abandonnant ils seraient désavantagés et par leur position et par leur nombre; que, d'autre part, monter

(1) L'identification de *Paratonium* et de l'île en question continue à embarrasser les historiens. Voici, en bref, les précisions qu'apporte M. Graindor: Au X^{me} livre de la *Pharsale*, Lucain mentionne une *Paraetonia urbs*, qui désigne, d'après le contexte, Alexandrie elle-même. « Dans ce nom poétique semble s'être conservé le souvenir d'un quartier d'Alexandrie ou de sa banlieue, évidemment voisin de la côte, puisqu'il était synonyme d'Alexandrie. Non loin de ce quartier, à l'ouest de la ville devait se trouver une source d'eau. Ce n'est pas là une simple hypothèse, puisque le B. A. y fait allusion (X, 2). Elle se trouvait après du promontoire de Chersonesus, à 70 stades à l'ouest d'Alexandrie. César la connaissait. C'est là qu'il n'a fait provision d'eau lorsqu'il se porta au-devant de la XXXVII^e légion et c'est là sans aucun doute qu'il faut chercher l'emplacement de l'énigmatique *Paraetonia* ».

Quant à l'île, M. Graindor, après avoir rejeté deux autres hypothèses invraisemblables, conclut: « Sur la droite de César il n'existait guère que les îles de la rade d'Aboukir, telle celle qui porte aujourd'hui le nom de Nelson. Elle n'est qu'à 25 kilomètres environ d'Alexandrie, c'est-à-dire à une distance qui permettait aisément de s'y rendre et d'en revenir en un jour. Sans doute est-ce là ou dans un des flots voisins qu'il faudrait chercher l'insula dont il est question dans le *Bellum Alexandrinum*. A moins qu'il ne s'agisse d'une île disparue sous les flots, comme Anthirrodos ». (*La Guerre d'Alexandrie*, p. 83-84). M. E. Combe dit que les Croisés au moyen âge s'approvisionnaient en eau dans les citernes de l'île Nelson, réservoirs d'eau de pluie. Ces citernes remontaient à une haute antiquité. Elles existaient sans doute déjà au temps de César. Il paraît donc évident que l'insula du B. A. est l'île Nelson actuelle. Cf. *Bulletin de la Soc. royale d'Archéol. d'Alex.*, No. 24, 1928, art. E. COMBE, *Le nom arabe de l'île Nelson*.

à bord des bateaux, surtout en s'aidant de barques, exigerait beaucoup de temps et de peine; que les Alexandrins avaient pour eux l'avantage d'une extrême agilité et d'une connaissance parfaite des lieux et des édifices; qu'une victoire les rendrait particulièrement audacieux et qu'ils occuperaient les hauteurs et les maisons, et qu'ainsi ils empêcheraient les nôtres de s'embarquer pour fuir; qu'ils devaient, par conséquent, renoncer à un tel projet et ne penser qu'à vaincre à tout prix.

IX -- Après avoir ainsi harangué ses soldats et réveillé leurs bonnes dispositions, César charge les centurions de transmettre l'ordre d'interrompre tous les autres travaux et de réunir tous les efforts pour creuser des puits, sans se relâcher aucun moment de la nuit. Grâce à cette entreprise, à laquelle chaque homme s'appliqua avec ardeur, on trouva en une seule nuit de l'eau douce en quantité suffisante. Ainsi, par un travail de courte durée, on fit échouer les manoeuvres compliquées des machines et les suprêmes efforts des Alexandrins. Deux jours plus tard, la trente-septième légion, composée de soldats de Pompée qui s'étaient soumis et que Domitius Calvinus (1) avaient embarqués sur des navires de transport avec du blé, des armes offensives et défensives, des machines de guerre, fut entraînée vers les côtes d'Afrique un peu au-delà d'Alexandrie. Le vent du sud-est, qui soufflait sans trêve depuis plusieurs jours, avait empêché ces navires de gagner le port; mais toute cette région a des endroits excellents pour jeter l'ancre. Comme ils y étaient retenus depuis longtemps et qu'ils souffraient du manque d'eau, ils dépêchèrent à César un avis pour l'en informer.

X. -- Afin de pouvoir décider par lui-même ce qu'il y avait à faire, César monte sur un navire et ordonne à toute sa flotte de le suivre; il n'embarque aucun soldat avec lui, car, comme il devait passablement s'éloigner, il ne voulait pas dégarnir les retranchements. Quand il arriva près de l'endroit appelé Chersonèse, il envoya à terre des rameurs pour faire provision d'eau; quelques uns d'entre eux, s'étant trop éloignés des navires pour se livrer au pillage, furent pris par des cavaliers ennemis. Les Alexandrins apprirent de ces prisonniers

(1) Cneius Domitius Calvinus, consul en 53, commandant du centre de l'armée de César à Pharsale, fut chargé par César de gouverner les provinces romaines d'Asie. Il eut à lutter contre Pharnace. (B.A., ch. XXXIV, XLI).

que César lui-même était venu avec la flotte et qu'il n'avait pas de soldats à bord. Ce renseignement leur fit croire que la fortune leur offrait une belle occasion de mener à bien l'affaire. C'est pourquoi ils chargent de combattants tous les bateaux en état de naviguer et se portent à la rencontre de César qui s'en retournait avec sa flotte. César ne voulait pas combattre ce jour-là pour deux motifs : Il n'avait pas de soldats à bord et la 10^{me} heure du jour (1) était déjà passée; or, la nuit donnerait plus d'assurance, lui semblait-il, aux ennemis qui pouvaient compter sur leur connaissance des lieux; elle lui ôterait à lui-même jusqu'à l'avantage d'encourager les siens, car un encouragement n'est pas assez efficace, si l'on ne peut noter les actes de bravoure ou de lâcheté. C'est pourquoi César dirigea vers la côte les navires qu'il put; il ne pensait pas que les ennemis l'y suivraient.

XI. -- Un navire de Rhodes à l'ailé droite de César, s'était placé à l'écart du reste de la flotte. Les ennemis, l'ayant remarqué, ne peuvent se contenir de l'attaquer sur lui impétueusement avec quatre navires pontés et beaucoup d'autres déconverts. César fut contraint de lui porter secours pour ne pas subir en face un honteux affront; bien que, si quelque chose de grave était arrivé à ces maladroits, ils l'eussent bien mérité, pensait-il. Le combat fut engagé avec une grande vigueur de la part des Rhodiens; comme ils s'étaient distingués dans tous les combats par leur tactique et leur bravoure, ils ne se refusèrent pas à soutenir tout le poids de l'attaque dans cette circonstance surtout, pour qu'on ne pût leur reprocher un revers éventuel dû à la négligence de leurs hommes. C'est pourquoi l'issue du combat fut très heureuse. Un quatrième ennemi fut capturée, une autre coulée, deux autres dégarnies de tous leurs équipages; en outre, un grand nombre d'hommes furent massacrés sur les autres navires. Si le vent s'était mis fin au combat, César se serait emparé de toute la flotte ennemie. Ce revers consterna les ennemis. Malgré un léger vent debout, César fit remorquer jusqu'à Alexandrie par ses navires victorieux les bateaux de transport.

XII. — Les Alexandrins furent d'autant plus accablés par ce désastre qu'ils se voyaient vaincus non par la bravoure des soldats romains, mais par l'habileté des hommes de notre

(1) 5 heures de l'après-midi.

flotte (1) ... ils se retirèrent dans les lieux supérieurs afin de pouvoir se défendre depuis les maisons et de s'y retrancher en entassant toutes sortes de matériaux, parce qu'ils craignaient encore une attaque de notre flotte même près du rivage. Quand Ganymède eut promis dans le conseil de remplacer les navires perdus et d'augmenter le nombre de bateaux, les Alexandrins, pleins d'espoir et de confiance, se mirent à radoubler les vieux bateaux et s'adonnèrent avec beaucoup de soin et de diligence à cette besogne. Et, bien qu'ils eussent perdu plus de cent dix navires de guerre dans le port et les arsenaux (2), cependant ils ne renoncèrent pas au projet de restaurer leur flotte. Ils voyaient bien, en effet, que César ne pourrait recevoir ni renforts ni vivres, si eux-mêmes avaient une puissante flotte : en outre, ces hommes nés marins, exercés dès leur enfance et par une pratique quotidienne aux usages d'une ville et d'une région maritimes, désiraient recourir à un élément qui était pour eux un avantage naturel et familier : et ils se rendaient compte à quel point leurs petites embarcations leur avaient servi (3) ; aussi s'appliquèrent-ils de tout leur zèle à réparer leur flotte.

XIII. — A toutes les bouches du Nil des vaisseaux montaient la garde pour exiger les droits d'entrée. Il y avait aussi au fond des arsenaux du palais royal de vieux navires qui n'avaient plus servi à la navigation depuis de longues années. Ils radoubèrent ces derniers, ramenèrent les autres à Alexandrie. On manquait de rames ; on démolit la toiture des portiques, des gymnases, des édifices publics ; les poutres servirent de rames ; l'habileté naturelle des habitants procura telles choses, la richesse de la ville en fournit telles autres. Enfin, on ne préparait pas une navigation lointaine, mais on pourvoyait à la nécessité du moment, et on savait que la bataille se livrerait dans le port même. Aussi, en peu de jours et contre l'attente générale, achevèrent-ils 22 quadrirèmes, 5 quinquérèmes, auxquelles vinrent s'ajouter un grand nombre de plus petits ba-

(1) Lacune dans le texte latin.

(2) César incendia la flotte égyptienne au début des hostilités. Cf. *Sommaire*, p. 76; *B.C.*, CXL.

(3) Allusion aux attaques répétées à l'improviste contre les vaisseaux de César. Dion Cassius, plus explicite que l'auteur du *B.A.*, dit que Ganymède réussit à brûler ou à capturer des navires de transport romains. (DIO, XLII, 40, 2.) Plus bas, au chap. XIX, le *B.A.* contient une allusion plus précise à ces faits ; il est question de navires que les Alexandrins avaient coutume d'envoyer par les passages sous les deux ponts (de l'Heptastade) pour incendier les transports de César.

teaux non pontés. Et, après avoir essayé dans le port même à la rame chacun de ces bateaux, les Alexandrins les chargèrent de soldats d'élite et s'apprêtèrent à combattre de tous leurs moyens. César avait 9 navires de Rhodes (des dix qui lui avaient été envoyés un avait échoué en route sur le littoral égyptien), 8 du Pont, 5 de Cilicie, 12 venant d'Asie. Dans ce nombre on comptait [...] quinquérèmes et 10 quadrirèmes; les autres navires étaient de plus petite dimension et la plupart non pontés. Cependant, confiant dans le courage de ses soldats et renseigné sur les troupes ennemies, il se préparait au combat.

XIV. — Quand, les deux adversaires, furent arrivés chacun à une pleine confiance en ses forces, César contourne l'île de Pharos avec sa flotte et vient ranger ses navires face à l'ennemi : à l'aile droite il place les navires rhodiens, à l'aile gauche, ceux du Pont. Entre eux il laisse un intervalle de 400 pas, distance qui lui paraissait suffisante pour que les navires pussent manoeuvrer. Derrière cette ligne il dispose en réserve les autres bateaux de la flotte; il désigne expressément à chacun l'unité qu'il doit suivre et soutenir. Sans hésitation les Alexandrins font avancer leur flotte et la rangent en ligne de bataille : en première ligne ils placent 22 navires; au second rang ils disposent en réserve le resté de leur flotte. Ils font sortir encore un bon nombre de bateaux plus petits et de barques chargés de traits incendiaires et de torches, dans l'espoir de terrifier les nôtres par leur nombre, leurs cris et les flammes. Il y avait entre les deux flottes une passe étroite et des bas-fonds, qui s'étendent jusqu'à la côte d'Afrique (c'est pourquoi on dit que la moitié d'Alexandrie appartient à l'Afrique) (1); on attendit assez longtemps de part et d'autre pour voir qui prendrait l'initiative de traverser la passe; car, celui qui s'y engagerait serait vraisemblablement fort embarrassé, et pour déployer sa flotte et pour se retirer, si la situation devenait trop critique.

XV. — La flotte de Rhodes avait à sa tête Euphranor, dont la grandeur d'âme et la bravoure bien connues lui avaient valu d'être choisi par les Rhodiens pour commander leur flotte. Remarquant l'hésitation de César, il lui dit : «César, il me sem-

(1) Les anciens géographes ne sont pas d'accord sur la frontière qui sépare l'Asie de l'Afrique. Les uns la placent sur l'étroite bande de terre qui va de Port-Saïd à Suez; d'autres, sur le Nil; certains la reculent encore plus à l'ouest et considèrent l'Égypte comme faisant partie de l'Asie. C'est à cette dernière opinion que paraît se ranger l'auteur du B.A.

ble que tu crains, en engageant le premier tes navires dans ces bas-fonds, d'être contraint de combattre avant d'avoir pu déployer le reste de la flotte. Contie-nous cette opération : nous soutiendrons le poids de la lutte et nous ne tromperons pas ta confiance, en attendant que le reste de la flotte nous suive. C'est vraiment pour nous une grande honte et une grande peine de voir ces gens-là nous braver plus longtemps. — César l'encourage, le comble d'éloges, puis donne le signal du combat. Quatre des navires rhodiens traversent la passe; les Alexandrins les entourent et fonceent sur eux. Les Rhodiens soutiennent le choc et manoeuvrent avec art et habileté; et leur tactique réussit si bien que, malgré la disproportion numérique, aucun navire ne s'expose de flanc à l'ennemi, aucun ne laisse enlever ses rames, mais tous s'avancent toujours proue en avant contre les vaisseaux ennemis. Entre temps, le reste de la flotte les a rejoints. Alors, faute de place, il faut renoncer à la manoeuvre, et l'issue du combat ne dépend plus que de la bravoure. A Alexandrie tous les nôtres et tous les habitants délaissèrent les travaux de défense ou d'attaque, tous gagnèrent les terrasses des maisons ou cherchaient place n'importe où pour assister au combat; chacun faisait des prières et des vœux aux dieux immortels pour la victoire des siens.

XVI. — Au reste, l'enjeu de la bataille était tout à fait différent pour les uns ou pour les autres. En effet, dans le cas d'une défaite, les nôtres seraient bloqués par terre et par mer, victorieux, ils auraient devant eux toute l'incertitude de l'avenir. Tandis que, si les Alexandrins l'emportaient avec leur flotte, ils seraient maîtres de tout; vaincus, ils pourraient cependant tenter une dernière chance. C'était en même temps pénible et pitoyable de voir un très petit nombre combattre pour les plus graves intérêts et pour le salut de tous; si l'un d'eux venait à manquer de fermeté ou de courage, tous les autres auxquels il n'aurait pas été donné de combattre pour eux-mêmes devraient également capituler. C'est ce que César avait répété les jours précédents aux siens pour les engager à combattre avec d'autant plus de courage qu'ils voyaient le salut commun entre leurs mains. Et chacun avait adressé les mêmes exhortations à un camarade, à un ami, à une connaissance, le suppliant de ne pas tromper son attente ni celle de tous ceux qui l'avaient judicieusement choisi pour prendre part au combat. Aussi combattit-on si bravement que l'habileté ni l'art ne furent d'aucun secours aux ennemis habitués à la mer et à la navigation :

que, malgré leur supériorité numérique en navires, le grand nombre ne leur servit de rien; que leurs combattants, choisis d'après la valeur personnelle parmi une telle masse d'hommes, ne purent égaler la bravoure des nôtres. On prit au cours de la bataille une quinquérème et une birème avec les soldats et l'équipage, et on en coula trois autres sans que les nôtres ne subissent de perte. Le reste prit la fuite vers la ville, qui n'est pas éloignée; là les ennemis défendirent leurs bateaux du haut des môles et des édifices qui dominent la mer et empêchèrent les nôtres de s'en approcher.

XVII. — Pour éviter que de tels événements ne se reproduisent à l'avenir, César estima qu'il fallait mettre tout en oeuvre pour s'emparer de l'île (1) et de la jetée y conduisant. Il venait, en effet, d'achever en grande partie ses fortifications dans Alexandrie; il était plein d'espoir de pouvoir attaquer en même temps l'île, la jetée et la ville. Cette décision prise, il fait monter dans de petits bateaux et dans des barques dix cohortes et des cavaliers gaulois armés à la légère, choisis parmi ceux qu'il jugeait les plus capables; et, pour diviser les troupes ennemies, il fait attaquer avec ses navires pontés l'autre côté de l'île (2), après avoir promis de grandes récompenses à celui qui prendrait l'île le premier. Tout d'abord, les ennemis soutinrent dans l'ensemble l'assaut des nôtres. En effet, en même temps qu'ils combattaient du haut des terrasses des maisons, des soldats bien armés défendaient le rivage, dont l'escarpement n'offrait pas un accès facile aux nôtres; et ils gardaient l'entrée étroite de la rade avec des esquifs et 5 navires de guerre habilement manœuvrés. Mais, après avoir pris connaissance des lieux et sondé les gués, quelques uns des nôtres prennent pied sur le rivage; ils sont bientôt suivis par d'autres; ils attaquent aussitôt avec vigueur les ennemis qui se pressaient sur la plage; tous les Pharites tournent le dos. En les voyant fuir, la garde du port quitte son poste, aborde avec ses bateaux le rivage près de la bourgade, et se précipite hors des navires pour défendre les maisons.

(1) Il s'agit de l'île Pharos et non de la petite île sur laquelle s'élevait le Phare, reliée à l'ouest à la grande île par une courte jetée. La petite île était tombée entre les mains de César au début des hostilités. Cf. *Sommaire*, p. 78 et *B.C.*, III, 112.

(2) Sur le côté où fut déclenchée cette attaque cf. GRAINDOR *La Guerre d'Alex.*, p. 107-108.

XVIII. — Cependant, les ennemis ne purent résister bien longtemps depuis leurs fortifications, bien que les maisons ne fussent pas, toutes proportions gardées, d'un autre genre que celles d'Alexandrie, que de hautes tours, reliées entre elles, tinssent lieu de rempart et que les nôtres n'eussent emporté avec eux ni échelles ni d'ais ni rien de ce qui est nécessaire pour un siège. Mais le peur élève aux hommes la raison et la détermination, paralyse leurs membres, comme il arriva alors. Ces mêmes hommes qui eussent été capables de résister en terrain plat et uni, effrayés de la fuite des leurs et du massacre d'un petit nombre, n'osèrent pas rester dans des maisons de trente pieds de haut, ils se précipitèrent du haut dans la mer et se sauvèrent à nager vers la ville, distante de 800 pas. Toutefois beaucoup d'autres furent tués, pris et mis; tandis que le nombre des prisonniers s'éleva au total à 6000 (1).

XIX. — César, ayant accordé le butin aux soldats, les invita à piller les maisons. Il fit élever un fortin à la tête du pont le plus rapproché de Pharos et y établit une garnison. Dans leur panique les Égyptiens avaient abandonné ce pont; les Alexandrins défendaient l'autre plus solide et plus près de la ville. Mais, le lendemain, César l'attaqua de la même manière, parce qu'en occupant ces deux ponts il lui semblait empêcher toute irruption de la part des bateaux ennemis et les brigandages soudains. Il fit à cet effet employer les défenseurs de ce pont au moyen de catapultes placées sur les navires et en lançant des traits, et les avait refoulés dans la ville; déjà il avait envoyé à terre trois cohortes envahir, car l'étroitesse de la jetée ne permettait pas qu'un plus grand nombre s'y établît; le reste des troupes était maintenu aux postes sur les bateaux. Ces dispositions prises, César donna l'ordre d'élever des palissades sur le pont du côté de l'ennemi et d'obstruer en le comblant de pierres le passage ouvert aux navires ennemis sous l'arche qui soutenait le pont. Le second ouvrage achevé, il était absolument impossible à une barque de passer; mais le premier était à peine commencé que toutes les troupes des Alexandrins s'élançèrent hors de la ville et se massèrent sur la place assez spacieuse en face des retranchements, tandis que les navires qu'ils avaient coutume d'envoyer par les passages sous les deux ponts pour incendier les transports de César vinrent se poster près de la jetée. Nous combattions du haut du pont et de la jetée;

(1) Cf. ch. XII, note 1.

les Alexandrins, depuis l'esplanade qui précédait le pont et depuis les navires disposés le long de la jetée.

XX. — Pendant que César était occupé à diriger les opération et à exhorter les fantassins, les rameurs et les hommes d'équipage quittent en grand nombre nos bateaux de guerre et s'élancent sur la jetée, les uns poussés par la curiosité d'assister au combat et les autres aussi par l'envie d'y prendre part. D'abord à coup de pierres et de frondes ils écartèrent de la jetée les bateaux ennemis et semblaient produire un grand effet par le nombre de leurs projectiles. Mais bientôt une poignée d'Alexandrins audacieux débarquèrent au-delà de cet endroit sur le flanc découvert des Romains; comme ces derniers s'étaient avancés sans les enseignes, en désordre et à la légère, ils se mirent de même à se réfugier inconsidérément sur leurs navires. Enhardis par leur fuite, les Alexandrins quittèrent en plus grand nombre leurs bateaux et attaquèrent plus vigoureusement nos soldats pris de panique. En même temps, ceux des nôtres qui étaient restés à bord, se hâtent de retirer les échelles et d'écarter du môle leurs navires, de peur que l'ennemi ne s'en empare. Consternés par tous ces événements nos soldats des trois cohortes qui s'étaient postés sur le pont et à l'entrée de la jetée, entendant derrière eux de grands cris, voyant fuir leurs camarades, ayant à faire face à une grêle de projectiles, craignent d'être enveloppés par derrière et d'avoir la retraite tout à fait coupée par suite de l'éloignement de nos vaisseaux; ils abandonnent le retranchement commencé à la tête du pont et, dans une course précipitée, cherchent à atteindre nos navires. Une partie d'entre eux trouvent place sur les bateaux les plus proches, qui coulent sous le nombre et le poids des hommes; ceux qui tiennent bon et hésitent sur le parti à prendre sont massacrés par les Alexandrins; d'autres, plus heureux, atteignent les vaisseaux légers à l'ancre et s'éloignent sains et saufs; un petit nombre, se protégeant de leurs boucliers et comptant sur leur courage, gagnent à la nage les embarcations voisines.

XX. — César, occupé à exhorter les siens tant qu'il put à tenir ferme sur le pont et près des retranchements, courut le même danger; quand il les voit tous plier, il se retire sur son navire. Comme un grand nombre de soldats s'y précipitent à sa suite et qu'il est impossible de manoeuvrer ni de s'écarter de la jetée, César, pressentant ce qui allait arriver, s'élance du bateau et gagne à la nage les navires qui s'étaient arrêtés plus

loin (1). De là, il envoie des barques au secours des siens en détresse et en sauve un certain nombre. D'ailleurs, le navire qu'il venait de quitter sombra sous le grand nombre de soldats et périt avec les hommes. Dans ce combat on eut à regretter la perte de 400 légionnaires environ et d'un peu plus de matelots et de rameurs. Les Alexandrins construisirent à la tête de ce pont un fortin qu'ils renforcèrent au moyen de puissants retranchements et de nombreuses machines de guerre; ils retirèrent de l'eau les pierres entassées sous l'arche du pont et utilisèrent librement par la suite le passage pour lancer leurs embarcations contre César.

XXII. — Nos soldats, loin de se laisser troubler par cet échec, pleins d'ardeur et de zèle, redoublèrent d'efforts pour attaquer les ouvrages ennemis dans une lutte quotidienne; et chaque fois que l'occasion se présentait, ils en venaient aux mains avec les Alexandrins, qui faisaient des sorties précipitées (1)... les exhortations prodiguées par César ne réussissaient pas à modérer ni les efforts des légionnaires ni leur envie de se battre, de sorte qu'il fallait plutôt les contenir et les détourner de combats si dangereux que les exciter à la lutte.

XXIII. — Quand les Alexandrins se rendirent compte que les succès affermissaient les Romains et que les revers les excitaient; qu'eux-mêmes ne connaîtraient pas une troisième fois à la guerre la chance de pouvoir être les plus forts, agissant, comme nous pouvons en déduire par conjecture, soit sous l'instigation des amis du roi demeurés dans les garnisons de César, soit de leur propre initiative après communication faite au roi par des messagers secrets et après en avoir reçu l'approbation, ils envoient une ambassade à César pour lui deman-

(1) Dans le *B. A.*, en le voit, il n'est question ni du manteau de pourpre que César aurait abandonné «pour ne pas servir de cible aux Alexandrins et pour nager plus facilement», ni des documents importants qu'il aurait tenu élevés au-dessus de l'eau en nageant. La légende du manteau de pourpre abandonné n'est pas invraisemblable: Dion, Appien, Florus, Suétone en parlent; son historicité n'a pas été contestée. Mais l'anecdote des papiers paraît suspecte, bien qu'elle soit rapportée par plusieurs auteurs anciens. Les historiens modernes la rejettent avec raison. «Outre que le *Bellum Alexandrinum* n'en fait aucune mention, remarque M. Graindor, on se demande comment César aurait réussi à préserver ces papiers du contact de l'eau puisqu'il fut obligé de plonger pour sortir de la barque et échapper aux coups de l'ennemi (...) Enfin, on ne comprend pas pourquoi César emportait avec lui des documents de telle importance, alors qu'il aurait pu les laisser en sûreté dans son camp».

(1) Lacune dans le texte latin.

der de congédier leur roi et de lui permettre de passer chez les siens; les ambassadeurs font valoir que tout le peuple, dégoûté du gouvernement provisoire d'une jeune fille (1) et de la domination cruelle de Ganymède, était prêt à faire ce que le roi ordonnerait; que, si avec son approbation ils promettaient à César loyauté et amitié, la crainte d'aucun danger ne retiendrait le peuple de se soumettre.

XXIV. — César ne connaissait que trop cette nation perfide, toujours prête à feindre des sentiments qu'elle n'a pas; il jugea cependant à propos d'accorder aux Alexandrins la faveur qu'ils demandaient: s'ils étaient vraiment sincères dans leurs revendications, le roi congédié, croyait-il, demeurerait fidèle; si, au contraire, comme cela était plus conforme à leur caractère, ils voulaient avoir le roi pour chef dans la conduite de la guerre, il y aurait plus de gloire et plus d'honneur pour lui César de faire la guerre à un roi qu'à une bande d'aventuriers et d'esclaves transfuges. C'est pourquoi, après avoir exhorté le roi à veiller sur le royaume de ses pères, à épargner son glorieux pays déjà honteusement ravagé par le feu et d'autres fléaux, à ramener d'abord ses sujets à la raison, à les y maintenir, à être loyal envers le peuple romain et envers lui César, qui lui témoignait une si grande confiance en le rendant à ses ennemis armés. César, prenant la main du jeune roi déjà grand (1) s'apprêtait à le congédier. Mais le souverain, instruit dans l'art de feindre, pour se montrer digne de sa race, se mit à supplier en pleurant César de ne pas le congédier: Il lui serait moins agréable de régner, assurait-il, que de jouir de la présence de César. Après avoir séché les larmes du jeune roi, César, ému lui-même, le renvoya chez les siens en l'assurant que, s'il était sincère, ils seraient bientôt réunis. Comme si on l'avait lâché de prison et mis en liberté, ce prince se mit à mener si vivement la guerre contre César que les larmes qu'il avait versées lors de leur entretien étaient, croyait-on, des larmes de joie. Que telle chose se fût produite, nombre de lieutenants, d'amis, de centurions et de soldats de César n'en étaient pas fâchés, parce que sa bonté excessive avait été le jonet de la fourberie d'un enfant. Comme si César avait été vraiment amené à agir ainsi par pure bonté et non par un calcul très sage.

(1) Arsinoë, soeur cadette de Cléopâtre.

(1) Ptolémée devait avoir alors 13 ans: il était de 8 ans plus jeune que Cléopâtre. Cf. SCHNEIDER, *B.A.*, ch. 24, note 3, p. 19.

XXV. — Les Alexandrins s'aperçurent qu'en s'étant donné un chef ils n'en étaient pas devenus plus puissants ni les Romains, plus faibles. Ils éprouvèrent une grande amertume de voir leurs soldats se railler de la jeunesse et de l'incapacité du roi; ils se rendirent donc compte qu'ils n'avaient rien gagné. En outre, des bruits couraient que de grands renforts étaient amenés à César par voie de terre depuis la Syrie et la Cilicie; ce qui n'avait pas encore été annoncé à César; ils décidèrent d'intercepter les convois de vivres qui arrivaient aux nôtres par mer. C'est pourquoi ils postèrent en embuscade des navires rapides aux endroits propices près de Canope, pour guetter au passage nos navires. Dès que la nouvelle lui parvint, César fait équiper et appareiller sa flotte. Il en confie le commandement à Tiberius Néron (1). Partent avec cette flotte les navires de Rhodes et avec eux Euphranor, sans lequel jamais un combat naval n'avait été livré, en tout cas aucun sans un bon résultat. Cependant la fortune qui, d'ordinaire, réserve ceux qu'elle a comblés de faveurs pour un sort plus rude, la fortune, différente d'autrefois, était devenue contraire à Euphranor. En effet, dès qu'on se fut approché de Canope et qu'on eut rangé de part et d'autre les flottes en ligne de bataille, elles entrèrent en action. Selon son habitude, Euphranor engage le premier le combat. Il transperce et coule sur place une trirème ennemie. Tandis qu'il poursuit la trirème voisine, le reste de notre escadre étant trop lent à le suivre, il est entouré par les Alexandrins. Personne ne lui porte aide, soit qu'on pense qu'il a assez de ressources en lui étant donné son courage et sa chance, soit que chacun craigne pour soi. Ainsi le seul qui se distinguait dans ce combat périt seul avec sa quadrirème victorieuse.

XXVI. — Vers le même temps, Mithridate de Pergame (2), homme de naissance illustre, qui s'était distingué à la guerre par son talent et sa bravoure, fidèle et digne ami de César, avait été envoyé en Syrie et en Cilicie au début de la guerre d'Alexandrie pour y recruter des troupes auxiliaires. Grâce aux dispositions les plus favorables des habitants de ces

(1) Le questeur Tiberius Claudius Néron, père du futur empereur Tibère.

(2) «Fils de Ménodotos et de la princesse galate Adobogiana, Mithridate, lorsqu'il était tout jeune encore, avait été emmené à la cour par Mithridate Eupator et était resté de nombreuses années auprès de lui, si bien qu'il passait pour son fils naturel. En tout cas, c'est à l'école de ce fameux guerroyeur qu'il apprit l'art de la guerre et devint un général dont la science n'était pas moins priseée que la bravoure.» (GRAINDOR, *La Guerre d'Alex.*, p. 123-127).

pays et à sa diligence personnelle, il avait réussi à rassembler rapidement de nombreuses troupes avec lesquelles il arriva à Péluse par la route de terre qui relie l'Égypte à la Syrie. Achillas avait fait occuper par une forte garnison cette place forte à cause de son emplacement favorable. En effet, l'Égypte tout entière est pour ainsi dire gardée par deux portes, Pharos et Péluse (2) qui y donnent accès l'une par mer, l'autre par terre. Mithridate la fit investir à l'improviste par de nombreux effectifs, malgré la résistance acharnée des multiples garnisons ennemies. Grâce au grand nombre de ses troupes fraîches, qu'il envoyait relever celles qui étaient décimées ou fatiguées, grâce aussi à ses assauts opiniâtres et constants, il emporta cette place le jour même où il l'avait attaquée et y établit sa garnison. Après cet heureux exploit, il poursuit sa marche vers Alexandrie pour rejoindre César (3). Revêtu du prestige qui entoure d'ordinaire un vainqueur, il pacifie toutes les contrées qu'il traverse et les contraint à se déclarer pour César.

XXVII. Il y a un endroit qu'on appelle Delta, pas très loin d'Alexandrie, généralement le mieux connu de toutes ces contrées; il a reçu ce nom de sa ressemblance avec la lettre grecque : en effet, un bras dérivé du Nil se divise en deux branches laissant entre elles un espace qui va s'élargissant progressivement jusqu'au moment où elles se jettent dans la mer, où le littoral forme entre elles l'intervalle le plus large (1). Quand le roi apprit que Mithridate s'approchait de cet endroit et sa-

(2) Péluse était située à 220 stades de l'embouchure du Nil (STRABON, XVII, 1, 21). Cette ville était reliée au Nil par un canal, ce qui permit à Mithridate de faire participer sa flotte à l'assaut de la place forte. (DIO, XLII, 11, 1-2).

(3) L'auteur du *Bellum Alexandrinum* ne donne aucun détail sur la marche de Mithridate de Péluse jusqu'à l'endroit où eut lieu la bataille décisive décrite au chapitre suivant. Mithridate ne pouvait songer à traverser le Delta en ligne droite de Péluse à Alexandrie pour rejoindre César : les bras du Nil et les nombreux canaux auraient trop retardé sa marche. Il se dirigea donc vers le sud choisissant ainsi la voie la plus longue, qui contournait le Delta.

(1) Quel est l'endroit que le *B. A.* appelle Delta et où faut-il situer le lieu de la bataille décisive entre les troupes de Ptolémée et celles de César et de Mithridate? Ces deux problèmes n'ont pas reçu jusqu'aujourd'hui de solution définitive. La difficulté vient, d'une part, de l'imprécision des textes, et, d'autre part, des profondes modifications topographiques, en particulier du Nil, des canaux et du lac Mareotis depuis le temps où se sont déroulés les événements jusqu'à nos jours. Impossible de relater ici les débats entre les historiens relatifs à ces problèmes. Impossible également d'entreprendre une discussion nécessairement longue et complexe. Nous essayerons de préciser les princi-

chant qu'il avait le fleuve à traverser, il envoya en avant de nombreuses troupes avec lesquelles il croyait pouvoir vaincre et détruire Mithridate ou sans aucun doute l'arrêter. Or, bien qu'il souhaitât le vaincre, il lui suffisait cependant de l'empêcher de rejoindre César. Ces troupes d'avant-garde, qui purent traverser le fleuve depuis le Delta et rencontrer Mithridate, se hâtèrent d'engager le combat pour ne pas avoir à partager l'honneur de la victoire avec celles qui les suivaient. Mithridate, grâce à sa grande prudence, soutint leur assaut en se retranchant, selon notre usage, dans son camp. Mais quand il les vit s'approcher imprudemment et insolemment des retranchements, il fit une sortie de tous côtés et en massacra un grand nombre. Si les autres n'avaient réussi, grâce à leur connaissance des lieux, à se mettre à l'abri ou, en partie, à se retirer sur les na-

paux points sur lesquels doit porter l'étude minutieuse des textes, de la topographie et des opinions émises.

Tout d'abord, de quel Delta s'agit-il dans le *Bellum Alexandrinum*? Les anciens distinguaient trois Deltas. Strabon, par exemple, dit qu'on appelle Delta l'espace compris entre les deux branches extrêmes du Nil et le littoral et aussi l'extrémité ou la pointe de ce Delta, ainsi que, en troisième lieu, le village situé à cette extrémité. Le texte du *Bellum Alexandrinum* manque de précision. Voici, pour notre part, comment nous le comprenons: Le Delta, tel qu'il y est décrit, ne peut être le grand Delta de Strabon ni même l'un des deux autres, car dans le *Bellum Alexandrinum* il est question de la division d'une branche du Nil — et non du Nil encore entier — en deux autres branches. Il nous paraît évident qu'il s'agit de la branche ouest du Nil, qui se divise à son tour pour former les branches canopique et bolbitique. Par Delta le *Bellum Alexandrinum* désigne donc l'espace compris entre ces deux branches et la mer. L'endroit (*locus*) où s'opère le partage des eaux est bien connu (*nobilissimus*) et pas très loin (*non ita longe*) d'Alexandrie. Le récit fort vague de la marche des armées peut très bien se concilier avec la description précédente. Mithridate, après la prise de Peluse, s'est dirigé vers le sud. Arrivé dans la région de Tell El Iahoudieh, il eut à traverser d'abord la branche de Damiette. Quand Ptolémée apprit qu'il allait traverser le fleuve (*transeundum ei flumen*), c'est-à-dire la branche ouest, (sans doute immédiatement avant que celle-ci ne se divise en branches canopique et bolbitique) le roi envoya des troupes pour arrêter Mithridate dans sa marche. L'avant-garde de ces troupes venant du Delta (*a Delta*) (de celui qui est formé par les branches canopique et bolbitique) se hâta d'engager le combat avec l'armée de Mithridate, retranchée dans son camp à l'est du Nil. Mithridate la met en déroute. Malgré des attaques sporadiques de l'ennemi, il réussit à passer le Nil et se dirige vers le nord en suivant cette fois la rive ouest du Nil, plus précisément celle de la branche canopique. Il dépêche entre temps un courrier à César pour lui demander de l'aide. Les troupes royales avertissent, de leur côté, Ptolémée du danger qu'elles courent.

Ptolémée, dont la flotte patrouille à l'embouchure de la branche canopique, embarque de nouvelles troupes et part avec elles en direction du sud. Il prend position sur la colline décrite dans le *Bellum Alexandrinum*. César se hâte lui aussi d'aller à la rencontre de Mithri-

vires sur lesquels ils avaient traversé le fleuve, ils auraient été complètement détruits. Dès qu'ils se furent un peu remis de leur frayeur et qu'ils furent rejoints par les troupes qui les suivaient, ils recommencèrent à attaquer Mithridate.

XXVIII. — Mithridate envoie à César un messager pour lui rapporter ce qui s'était passé. Le roi en est également averti par les siens. De sorte que le roi et César partent presque en même temps, l'un pour écraser Mithridate, l'autre pour l'accueillir. Le roi prit le chemin le plus court en naviguant sur le Nil, où il avait une flotte nombreuse toute prête. César ne voulut pas choisir le même itinéraire dans la crainte d'un combat naval sur le fleuve; il fit donc un détour par la mer qu'on dit faire partie de l'Afrique, comme nous l'avons remarqué plus haut (1); il rencontra cependant les troupes du roi avant que ce dernier n'eût pu attaquer Mithridate et accueillit ce général victorieux avec son armée intacte. Le roi avait pris position avec ses troupes sur une hauteur pourvue de défenses naturelles,

date. Pour éviter un combat sur le Nil, il fait un détour par mer jusqu'à l'ouest d'Alexandrie. Il y fait débarquer son armée et suit la rive sud du lac Mareotis. Il rejoint Mithridate avant que celui-ci n'ait été attaqué par Ptolémée. La suite du récit est suffisamment claire et détaillée.

Mais où situer la colline sur laquelle le roi s'était retranché et où il fut battu? Sans vouloir essayer de déterminer exactement cet endroit nous croyons, avec M. Graindor, qu'il faut le chercher le plus près possible d'Alexandrie. «La position des Egyptiens, écrit M. Graindor, était, probablement, à une journée au plus d'Alexandrie: c'est ce qui résulte du texte de Dion relatif à la marche de nuit de César autour du lac Mareotis et de notre restitution des *fasti Caerentani*, qui suppose que la victoire et la capitulation d'Alexandrie datent du même jour». (*La Guerre d'Alex.*, p. 150). Il faudrait donc «définitivement renoncer à l'hypothèse suivant laquelle c'est près d'Illakam, à 130 kilomètres d'Alexandrie, que Ptolémée fut définitivement vaincu». (*Ibid.*, p. 144). A qui objecterait l'impossibilité de contourner en une nuit le lac Mareotis par le sud, depuis Chersonèse jusqu'au Nil, nous répondrions que l'étendue de ce lac était beaucoup moins grande qu'elle ne l'est aujourd'hui, comme l'a démontré M. E. Combe (*Alexandrie musulmane*, extrait du *Bulletin de la Soc. royale de Géographie d'Egypte*, p. 101 et ss.) Si le lac s'étendait très loin au sud et à l'ouest pendant la crue du Nil, il se réduisait à une lagune peu spacieuse à la période des basses eaux. Or c'est précisément durant cette période qu'a eu lieu la bataille du Nil où Ptolémée périt. En effet, d'après M. Graindor (*op. cit.*, p. 147), c'est le 27 mars que fut remportée la victoire finale. C'est l'époque de l'année où les nuits sont les plus longues.

En tenant compte de ces différentes données et hypothèses, on peut conclure que c'est entre l'extrémité sud-est du lac Mariout et la branche canopique du Nil qu'il faut chercher l'emplacement du camp de Ptolémée.

(1) Voir chap. XIV.

de sorte qu'il dominait la plaine de toutes parts, de trois côtés il était protégé par des défenses de différentes sortes : un côté s'appuyait au Nil; un autre était défendu par une élévation assez haute pour protéger le flanc du camp; un troisième était bordé par un marécage.

XXIX. — Entre ce camp et le chemin suivi par César coulait un canal étroit aux rives très escarpées, qui se jetait dans le Nil; il était éloigné d'environ 7000 pas du camp royal. Quand le roi eut appris que César arrivait de ce côté, il envoie vers le canal toute sa cavalerie et l'élite de son infanterie légère pour empêcher César de le traverser et pour engager avec avantage le combat du haut de la rive. En effet, le courage ne servait à rien ni la lâcheté n'avait de danger à craindre. Cette situation affecta vivement nos fantassins et nos cavaliers : ils luttent depuis longtemps sans résultat contre les Alexandrins. C'est pourquoi, en même temps que les cavaliers germains cherchent çà et là des gués et qu'un certain nombre d'entre eux traversent à la nage le canal à un endroit où les bords en étaient moins escarpés, les légionnaires abattent des arbres assez grands pour relier les deux rives, les couchant d'une rive à l'autre, les recouvrent de matériaux de fortune et passent ainsi le canal. Les ennemis redoutent tellement l'attaque de ces intrépides guerriers qu'ils cherchent leur salut dans la fuite, mais en vain; car peu de fuyards réussissent à se réfugier auprès du roi; presque tout le reste est massacré.

XXX. — Après ce brillant exploit, César jugeant que son intervention subite sèmerait une grande panique parmi les Alexandrins, marche aussitôt en vainqueur sur le camp du roi. Comme il le voit puissamment retranché et muni de défenses naturelles et qu'il aperçoit la foule compacte des soldats ennemis postés sur les retranchements, il renonce à faire avancer pour assiéger le camp ses soldats fatigués par la marche et le combat. Il campe donc à peu de distance de l'ennemi. Mais, le jour suivant, il attaque avec toutes ses troupes et prend d'assaut un fortin que le roi avait élevé dans le village voisin non loin de son camp et qu'il avait relié aux défenses du camp par des lignes de communication pour tenir le village; non que César jugeât la position difficile à emporter avec un moins grand nombre de soldats, mais il voulait par cette victoire effrayer les Alexandrins et assiéger immédiatement après le camp du roi. Ainsi d'un même bond nos soldats poursuivent les Alexandrins s'enfuyant du fortin vers le camp, arrivent au pied des

retranchements et de là engagent le combat avec la dernière vigueur. Ils avaient la possibilité d'attaquer de deux côtés : de l'un, où l'accès, je l'ai signalé, était libre; de l'autre, où il y avait un espace restreint entre le camp et le Nil. Les troupes les plus nombreuses et les meilleures des Alexandrins défendaient le côté dont l'accès était le plus facile; ils réussissaient en particulier à repousser et à blesser les nôtres qui attaquaient du côté du Nil : en effet, nos hommes recevaient des projectiles de directions diverses : de face, du retranchement du camp; par derrière, des frondeurs et des archers qui les attaquaient depuis les nombreux navires postés sur le Nil.

XXX. — Quand César vit que ses soldats ne pouvaient combattre avec plus d'acharnement, sans cependant progresser beaucoup à cause de leur situation désavantageuse; qu'il observa que les Alexandrins avaient abandonné la partie supérieure du camp, soit parce qu'elle se défendait d'elle-même soit que les défenseurs se fussent précipités sur le lieu du combat, les uns pour participer, les autres pour assister à la bataille, il donne l'ordre aux cohortes de contourner le camp et d'en attaquer la hauteur. Il confie le commandement de ses troupes à Carfulenus, homme aussi remarquable par sa grandeur d'âme que par sa science militaire. Quand elles y furent parvenues, elles ne rencontrèrent qu'un petit nombre de défenseurs de la position contre lesquels nos hommes luttent avec vigueur; les Alexandrins épouvantés par les cris qui s'élèvent de divers côtés et par l'attaque inopinée, se mettent à courir précipitamment dans toutes les directions du camp. La panique des Alexandrins anime à tel point le courage des nôtres qu'ils envahissent presque simultanément la position de toutes parts, cependant que les plus avancés s'emparent du sommet du camp; ils dévalent de cette hauteur et massacrent un grand nombre d'ennemis dans le camp. Pour échapper au danger, la plupart des Alexandrins se précipitent en masse du haut des retranchements vers le côté du camp qui touchait au Nil. Les premiers d'entre eux furent écrasés dans le fossé même du retranchement sous les lourdes décombres; les autres purent ainsi fuir plus facilement. Il est certain que le roi lui-même s'échappa du camp et se réfugia sur un navire qui coula sous le grand nombre de ceux qui cherchaient à atteindre à la nage les vaisseaux les plus proches, et qu'il se noya.

XXXII. — Après un succès si heureux et si rapide, César, avec l'assurance que lui donne une grande victoire, se hâte vers Alexandrie avec sa cavalerie par le chemin de terre le plus

court et pénètre en vainqueur dans la ville du côté qui était occupé par la garnison ennemie. Il ne se trompa point en comptant que les ennemis à la nouvelle de cette défaite ne songeraient plus désormais à la guerre. Il recueillit, à son arrivée, le fruit bien mérité de sa bravoure et de sa grandeur d'âme. En effet, tous les habitants de la ville jettent les armes et abandonnent leurs retranchements; ils prennent les habits dont les suppliants ont coutume de se revêtir pour implorer la grâce des vainqueurs; ils se font précéder de tous leurs objets sacrés à la faveur desquels ils avaient l'habitude d'adresser leurs supplications à leurs rois récemment irrités; ils se portent au-devant de César pour lui offrir leur soumission. César les prend sous sa protection, leur adresse quelques paroles de consolation, puis traverse les retranchements des ennemis et arrive dans le quartier de la ville occupé par les siens, qui le comblent de félicitations; ils ne se rejoissaient pas seulement de l'issue favorable de la guerre en-même et des combats, mais également de son heureux retour.

LXXXIII. César, maître de l'Egypte et d'Alexandrie, y établit les rois que l'holième (1) avait désignés dans son testament et qu'il avait supplié le peuple romain de ne pas changer. En effet, l'aîné des deux fils étant mort, il remet le pouvoir au plus jeune et à l'aînée des deux filles, Cléopâtre, qui était devenue sous sa protection, dans ses garnisons. Quant à Arsinoë, la cadette sous le nom de laquelle Ganymède, avons-nous dit, avait régné longtemps en tyran, il décida de l'emmener hors du royaume — pour éviter qu'elle ne rallume une nouvelle dissension à l'aide d'hommes séditions, avant que le temps n'ait affermi l'autorité des rois. Ramenant avec lui la sixième légion composée de vétérans, il laissa en Egypte les autres légions pour mieux assurer le pouvoir des rois, qui ne pouvaient pas se faire aimer de leurs sujets, parce qu'ils étaient demeurés loyaux envers César, ni avoir le prestige que procure l'ancienneté, n'étant établis rois que depuis peu de jours. Il estimait qu'il était et de la dignité de notre empire et de l'intérêt public de les protéger avec nos garnisons, si ces rois demeuraient fidèles; de pouvoir les châtier avec ces mêmes garnisons, s'ils se montraient ingrats. Après avoir ainsi accompli et disposé toutes choses, César partit pour la Syrie par voie de terre.

(1) Ptolémée Antitis.

(2) Arsinoë fut emmenée à Rome, ou, d'après Dion, elle figura au triomphe de César en 48 et assassinée, dans le temple d'Artémis, à Ephèse, après la bataille de Philippe. Cf. GRAINDOR, *op. cit.*, p. 169

LE TEXTE DE NUWAIRI SUR L'ATTAQUE D'ALEXANDRIE PAR PIERRE I DE LUSIGNAN

Cet événement est signalé plus ou moins brièvement par la plupart des chroniqueurs musulmans; mais le seul, qui l'ait traité en détail, est Muhammad ibn Qâsin ibn Muhammad al-Nuwairi (1), dont l'ouvrage est intitulé: «Livre de la connaissance des manifestations du destin et des décrets divins à propos de la bataille d'Alexandrie».

Cet ouvrage est conservé, partie à Berlin et partie au Caire: le manuscrit de Berlin (Ms. B), n° 9315, Weizstein, II, 359-60 comporte 2 tomes; et la suite se trouve dans le manuscrit du Caire (Ms. C), un tome, Dâr al Kutub, ta'rikh, n° 3942.

L'auteur nous apprend, Ms. B, 120 vo. qu'il fut témoin oculaire des événements; qu'il commença son livre en Djumâdâ II 767 (Janvier-Février 1366) et le termina en Dhu'l-Hijja 775 (Mai-Juin 1374), et qu'il vivait à Alexandrie depuis l'an 737 (1337). Son témoignage est donc appréciable et les renseignements qu'il fournit sur Alexandrie sont de première main. Malheureusement cette oeuvre est remplie de digressions étendues, qui détournent l'attention du sujet principal.

Ce texte arabe a déjà fait l'objet d'études et de remarques importantes, sur lesquelles je ne veux pas m'étendre ici; les principales sont les suivantes:

• HERZSOHN, *Der Ueberfall Alexandriens durch Peter I. von Lusignan*. Dissertation. Bonn. 1886.

CAPITANOVICI, *Die Eroberung von Alexandria durch Peter I. von Lusignan*. Dissertation. Berlin. 1894.

KAHLE, *Die Katastrophe des mittelalterlichen Alexan-*

(1) Voir déjà mon article dans «Bull. Soc. R. Archéol. Alexandrie», 30, 1936, p. 38.

dris, in «Mélanges Maspéro», III (Mém. Inst. Français, Caire, tome 68), 1935 pp. 137-154.

AZIZ SURYAL ATIYA, *The Crusade in the later Middle Ages*, London, 1938, pp. 348-377.

De même, je renvoie à plus tard l'étude comparative de ce texte et des sources occidentales, comme Guillaume de Machaut ou Machairas.

Le but principal de cet article est de donner une analyse des passages utiles aux historiens en particulier. Une étude exhaustive de l'ouvrage de Nuwairî suivra, de même que l'édition du texte arabe.

Voici cependant quelques renseignements préliminaires indispensables sur les 2 Ms. B et C étudiés :

(1) Le Ms. B n'a pas 272 folios comme l'indique la pagination, mais seulement 270, car on a passé du fol. 187 au fol. 190; le tome I finit au fol. 139; il y a 27 lignes à la page. La feuille de garde porte une indication inexacte du nom d'auteur et du titre de l'ouvrage. Il n'est pas daté et le nom du scribe n'est pas indiqué. La rédaction, comme la fin du texte, montre nettement que l'ouvrage n'est pas complet; et rien ne marque qu'il est achevé. Au reste, l'auteur fait de nombreux renvois et dit vouloir traiter plus tard diverses questions, qu'on trouve en partie dans le Ms. C. Mais il y a aussi deux vides, dont l'importance est impossible à déterminer :

(a) fol. 171 vo commence un paragraphe, qui est à peine abordé, sur la nourriture en cas d'épidémies; le fol. 172 ro, qui suit, débute au milieu d'une phrase, en citant en exemple 'Uqba b. Nâfi' al-Ansârî, et d'autres, qui, grâce à leur humilité et à leur foi, soumièrent plusieurs pays et apprivoisèrent les bêtes sauvages.

(b) fol. 217 vo on trouve des vers sur Kâfûr l'Ikhshîdide, mais la citation est tronquée; on lit au bas de la page l'amorce du vers suivant, qui manque. En effet, fol. 218 ro débute au milieu d'une phrase, en nommant des Compagnons qui portent des vêtements rapiécés; ce qui amène un court passage sur les Gens de la Suffa; puis aussitôt après l'auteur reprend l'histoire de la conquête de Jérusalem par Saladin, introduite par la formule courante de Nuwairî: «revenons à...». Donc il manque évidemment plusieurs notices sur la fin du règne des Ikhshîdides, celui des Fâtimides et le début des Ayyûbides. D'autre

part, vu ce passage tronqué sur les vêtements rapiécés, *Khurga*, il est possible, que l'auteur avait intercalé à cette place un paragraphe sur les tissus de soie, auxquels il fait allusion, fol. 211 ro, comme traités précédemment.

Le Ms. B est d'une petite écriture très nette, probablement du XVI^e siècle de notre ère.

(2) Le Ms. C a 290 folios et 29 lignes à la page; il a été terminé, et c'est la fin de l'oeuvre de Nuwairî, le dimanche 27 Rabi' I 1064 (15 Février 1654), par le copiste Ahmad Darwish al-Waqâdi, sur un exemplaire autographe de l'auteur. Il est écrit dans un thuluth assez gros et très net.

Le début ne fait aucune allusion au Ms. B et commence directement par un nouveau chapitre de digressions. Il est aussi incomplet, car il manque une partie du texte après fol. 189 vo, qui se termine par «Dieu a dit» et, au bas de la page, l'amorce du texte qor'ânique; or fol. 190 ro ne donne pas cette citation du Qo'rân annoncée et traite d'un tout autre sujet que la page précédente.

A. - *Les parties historiques*, concernant principalement l'Egypte et Alexandrie, sont les suivantes :

Ms. B.

1 vo, mention de l'attaque d'Alexandrie, le 21 Muḥarram 767 (8 Octobre 1365), par le roi Pierre, qui est toujours désigné sous la forme «Rebîr Butrus».

2 ro à 2 vo, renseignements sur ce roi, sa description, sa famille, soit son père, le roi Hughes «Reyûk»; son frère aîné le Prince, sous-entendu de Galilée, «al-Brinz»; son autre frère, Jacques, «Djakân»; et un frère plus âgé, Sir Jean de Morf, «Sandjûân Demurf». — L'allusion, faite ici et 37 vo, à l'attaque postérieure, manquée, de Jean de Morf contre la ville, au début de Dhû'l-Hidjdja 770 (Juillet 1369), est expliquée dans Ms. C, qui en donne le détail.

10 ro, suite du récit de l'attaque et titre du livre. — Simple mention, comme 166 vo et 169 vo, des défaites subséquentes du roi Pierre à Tripoli de Syrie et à Ayâs, en Asie Mineuse, exposées tout au long dans Ms. C.

25 vo à 26 vo, suite de l'attaque: les songes, faits par diverses personnes, avant la bataille et l'annonçant. (Voir ce texte dans la partie arabe de ce Bulletin).

25 vo et 27 ro, citations de la prophétie, «*Malhama*», de Badjurbaqî, qui servent à introduire plusieurs digressions.

28 ro à 30, le Muqauqis; Muhammad et les Coptes; Rastûlis, fils du Muqauqis.

30 vo à 31 ro, le Sa'id de Misr, les sorciers et le Pharaon.

32 ro, Moïse et Israël, le Tih.

32 vo, la Buhaira et la femme du Muqauqis.

33 ro, villes de Chypre et d'Andalousie.

37 ro et vo, nouvelles citations de la «*Malhama*» de Badjurbaqî.

37 vo à 40 vo, récit de l'attaque d'Alexandrie par les Normands de Sicile, en 570 H., «tiré d'un ouvrage du Qâdî al-Fâdil, vizir de Salâdin». Mention du roi de France, «al-Fransîs», et de la croisade contre Damiette.

40 vo, puis 57 ro, 58 ro, 68 ro, 69 ro, autres citations de la «*Malhama*» de Badjurbaqî, avec digressions et commentaires.

75 ro à 76 vo, Alexandrie et son fondateur (et plus loin, 205 ro, 214 ro); sa conquête par les Compagnons du Prophète. Iskandar le bicorne. Conquête par 'Amr Ibn al-'As; «sulh» et «'anwa». — Renvoi pour les armistices conclus avec les Rûm, pour les Qarmates et leur lutte contre le calife Fâtimide Mu'izz, fondateur du Caire; mais ces sujets ne sont pas traités dans Ms. C.

79 vo à 80 vo, le songe du roi Hughes avant la naissance de son fils, le roi Pierre (Voir ce texte dans la partie arabe de ce Bulletin). La conquête par les Compagnons. Récit de Wâqidî sur 'Amr et le Muqauqis.

88 ro à 93 vo, la prise de Damiette par les Compagnons; histoire de Hâmûk et de son fils Shatâ, d'après Waqidî.

94 ro à 98 vo, suite de l'attaque chypriote: les sept causes, qui poussèrent le roi Pierre à prendre la ville d'Alexandrie:

1) la suppression des Chrétiens dans l'administration mamlûke, en 755 (1354), sous le sultan Sâlih, fils de Nâsir Muhammad; les règlements concernant les Chrétiens et les Juifs, les restrictions vestimentaires. — Renvoi à plus tard de l'exposé des voyages de Pierre en Europe et de l'aide qu'il reçut pour exécuter son projet, cités 94 vo; renvoi pour des détails sur l'administration.

2) l'interdiction faite à Pierre d'aller à Tyr, pour accomplir un rite de royauté, à l'époque de Nâsir Hasan.

3) piraterie chrétienne sur les côtes égyptiennes, en 755 (1354), ce qui assure Pierre du succès. — Renvoi pour l'histoire d'un bateau maghrébin, attaqué dans le port, et d'un autre, pris sur la côte, par des Chypriotes.

4) attaque de Rosette par des navires chrétiens.

5) attaque d'Abûqîr et de Rosette par des navires chrétiens, en 764 (1363).

6) nouvelle piraterie contre ces deux villes.

7) les Vénitiens sont molestés à Alexandrie. — Renvoi de ce récit dans le Ms. C.

(Voir le texte de ces sept causes dans la partie arabe de ce Bulletin).

101 ro à 110 ro, description de l'attaque de la ville. — Le développement de plusieurs incidents mentionnés ici se trouve dans le Ms. C, ainsi : 102 ro (et plus loin 185 ro) les réparations faites en 767 à la Porte Verte, al-Bâb al-Akhḍar, par le wâlî de la cité, Saïf addîn al-Akuzz; 106 ro, l'illusion à la prise de Tripoli du Maghreb et d'Antakiya par les Francs; 110 ro (et plus loin 118 ro, 150 ro-vo, 201 ro) le port de ses vaisseaux emmenés par les Francs et leur départ de l'Égypte.

116 ro, les conditions imposées aux chrétiens de l'empire lors de la prise de Damas; il en fut de même à Alep et Adî.

116 vo, suite du récit de l'Année Égypte.

117 ro, suite des destructions de Chypriotes en ville.

118 ro à 121 ro, Elégie, Martûiya, de l'auteur, 116 vers, sur ces événements, avec son nom NIWAIRI, puis renseignements biographiques sur ce personnage, en particulier son séjour à Alexandrie, et la date de composition de cet ouvrage. Son nom reparaît, 169 ro et dans le Ms. C, 109 ro.

122 vo, citation d'un vers de l'Elégie d'Ibn Ari Hadjal, sur la cité, et de même, 123 vo, 128 vo, 129 ro, 132 vo, 133 ro, 134 ro, 148 ro-vo, 149 ro, 150 ro-vo, 154 ro, 166 ro-vo, 170 vo, 184 vo et 185 ro, soit 23 vers, qui servent d'introduction à de nombreuses digressions ou à des commentaires, dont quelques-uns intéressent l'objet du livre. — Ibn Iyâs, 1,215, donne 6 vers de la même Elégie. — Renvoi, 122 vo, pour des noms de califes, d'autres souverains ou de sultans égyptiens.

123 vo à 127 vo, les bateaux de la Méditerranée, des mers de l'Inde et du Yemen, du Nil et du Tigre. Quelques renseignements généraux sur la navigation; les constellations et les vents. — Renvoi, 124 vo, pour des ports de la Méditerranée,

leurs caps, leurs sources et les marchandises exportées, ce qui ne se trouve pas dans Ms. C. — Tout ce chapitre, est très intéressant; voir déjà le mémoire de KINDERMANN, «*Schiff im Arabischem. Untersuchung ueber Vorkommen und Bedeutung der Termini.*» (Dissert.) VII - 199 pp. 1934.

132 vo, les Bédouins en ville, lors de l'attaque.

148 ro-vo, sur 'Amr Ibn al-'As; les tribus arabes en ville à la conquête.

150 ro, noms de quelques nations chrétiennes. — Allusion aux récits des prisonniers musulmans, à leur retour et au rôle joué par Ibrahim al-Tâzi, chef de l'arsenal; voir Ms. C.

166 ro, sur Pierre d' Chypre, battu plus tard à Tripoli; renvoi.

166 vo, la protection des villes et des ribât.

167 ro à 168 vo, les mérites d'Alexandrie; les ribât. — Renvoi pour les cultures du blé et de l'orge.

168 vo, nouvelle menace chrypriote en 768 (1367) et précautions prises.

168 vo à 169 ro, et 169 ro-vo, poésie de Nuwairî, avec son nom, sur les armées musulmanes.

169 vo, les événements à Chypre, le meurtre de Pierre par son frère «al-Brinz». — Nouveau renvoi pour l'attaque de Pierre contre Tripoli, et autre renvoi pour des notices sur des îles de la Méditerranée.

170 ro, précautions militaires prises à Alexandrie, et noms des émirs en garnison.

179 ro : l'île Arwad (Rouad); l'île Aghraw, face à Abûqir. Sur cette dernière, mon article : «Le nom arabe de l'île Nelson. Aghraw, Argei insula dans «Bull. Soc. R. Arch. Alex.» 24, 1929, p. 17-20 et 28, 1933, p. 209.

On peut y ajouter les références suivantes : EVETTS, *Patriarch.* p. 273 (Patr. Or. V, 1, p. 19) qui mentionne les gens de أغرو var. أغراو; texte de SEYBOLD, p. 119 : أغرو. EVETTS, idem, p. 324 (P.O. - p. 70) le lieu أغراو; SEYBOLD p. 143 a seulement «régions maritimes». — EVETTS, idem, p. 538 (P.O. X, 5, p. 424) le lieu أغرو nommé jadis أغرا. Il semble bien que ces toponymes désignent le même lieu, bien qu'aucune précision ne ressorte de ces nouveaux textes.

184 vo, l'atabak Ylbughâ.

185 vo à 187 ro, Ylbughâ et Ibn 'Arrâm ordonnent des travaux de défense de la ville; pour le coulage de pierres dans le port Ouest, cité 187 ro, voir Ms. C, 278 ro. pose d'une chaîne et creusement d'un fossé le long des murs, face à la mer.

187 ro à 188 vo, «Marthiya» sur la ville, par Muhammad b. Hasan Abî 'Abdallah al-Shâtibî, et seconde Elégie du même, 188 vo.

188 vo à 190 vo, Elégie d'Abû 'Abdallah Muhammad b. Tâhir al-Ikhmîmî.

191 ro, préparatifs navals d'Ylbughâ sur le Nil au Caire et grande revue devant les envoyés Catalans.

191 vo, sur Misr et Rawda.

192 vo à 195 vo, Asyût, le Nil, le Fayûm, la crue et le Miqyâs; les cours d'eau, le crocodile.

196 ro, les sources du Nil.

197 vo à 200 ro, les versets du Qor'ân concernant l'Egypte; les Prophètes, les Compagnons, les saints, les savants, qui y entrèrent; une notice sur le qâdî Bakkar et Ibn Tâlûn.

202 ro et 203 ro, suite sur les savants et philosophes venus en Egypte; 204 ro, les habitants de Misr.

205 ro, Iskandar et la construction de la ville, et 214 ro.

207 vo, les rois «infidèles» de Misr; renvoi au Ms. C, pour leurs constructions et leurs temples.

208 vo, les Talismans, les Pyramides; renvoi au Ms. C.

209 vo, avantages de Misr, ses Merveilles, les régions du pays.

211 vo, le baume et histoires à son sujet.

212 vo, suite des particularités de Misr; l'arpentage, et renvoi à ce sujet, qui ne se trouve pas dans Ms. C.

213 vo à 214 ro, les Madjâlis du Pharaon; les Pyramides, avec renvoi au Ms. C, 171 ro; les Oasis.

214 ro-vo, la construction d'Alexandrie par Alexandre (déjà 205 ro), les quatre Merveilles du Monde.

215 ro-vo, particularités de Misr, les Kûra, les mois Coptes.

217 vo à 234 vo, les souverains musulmans de l'Egypte après 300 jusqu'à 775; digressions utiles, 221 ro, sur les «iqâtâ»; 229 vo et ss. long passage sur les tremblements de terre, les épidémies et divers phénomènes célestes, à comparer avec d'autres collections du même genre. — 228 vo, citation d'une

biographie de Nâsir Muhammad, «al-Sira al-sultâniya al-Mali-kiya al-Nâsiriya», par Bahâ 'îddîn b. al-Sawwâd, du bureau de la chancellerie de Halab. — Renvoi pour Khudabandâ en Syrie, voir Ms. C.

235 ro à 236 vo : les descendants de Nâsir Muhammad sur le trône de l'Egypte. Ce paragraphe se termine naturellement avec Ashraf Sha'bân, et il renvoie à plus tard le récit et la date de l'arrivée de son épée à Alexandrie, de l'établissement du Kursî royal dans le palais sultanien de la cité, puis de la venue du sultan en grand cérémonial; voir Ms. C, 89 ro et 129 vo.

236 vo à 238 ro : Elégie d'Abû 'Abdallah Muhammad al-Nastarawî sur la cité et ses malheurs.

238 ro à 239 vo : «Hikâyât», histoires racontées à Alexandrie lors de l'attaque. Le thème général est celui de «al-faradj ba'd shidda», avec ses variantes, comme «faqar ba'd ghanî» ou «Khallâs ba'd asar». C'est donc un paragraphe important à comparer avec l'article de A. WIENER, *Die Faradj ba'd Shadda - Literatur. Von Madâ'ini bis Tanûkhî. Ein Beitrag zur arabischen Literaturgeschichte.* in «Der Islam». IV, 1913 p. 270 - 98 et 386 - 420.

256 ro à 263 ro : mêmes histoires. -- Allusion 261 ro au motif pour lequel Pierre renvoya quelques prisonniers; cf. Ms. C. — Sur le lieu de la ville, appelé QLZI, 259 vo, voir déjà ma note, «Bull. Soc. R. Arch. Alex.», 34, 1941, p. 72 : c'est le grec «église», ἐκκλησία.

Ms C

Fol. 3 ro, rappel du texte de Wâqidi sur la conquête arabe de la Syrie, le rôle du Muqauqis et de son fils Rastûlis en Egypte.

22 ro à 23 ro, sur l'emploi du feu et l'éclairage des forteresses en temps de guerre.

24 vo à 25 ro, sur les approvisionnements des forteresses en blé, en bois et sur la conservation des viandes.

27 ro à 31 vo, début d'un très long mémoire sur l'attaque de Tripoli de Syrie par Pierre de Lusignan, avec une digression utile sur le pillage de Quçûra (Fantellaria) par des pirates Français.

36 ro à 37 ro, 42 vo à 43 ro, 53 vo à 54 ro, suite de cette attaque.

56 vo à 66 ro, fin de la guerre de Tripoli et récit de l'attaque contre Ladbakiya et Ayâs; mention de l'utilité de la pose de chaînes dans les ports.

66 ro à 67 ro, grave incident avec les Génois et les Vénitiens dans le port d'Alexandrie, en 769 H.

67 vo à 68 vo, courte notice sur la position administrative de la ville d'Alexandrie.

79 vo, l'auteur mentionne son pèlerinage en 750 H. et son passage à Humaïthira, dans le désert Oriental, où est la tombe d'Abû'l-Hasan al-Shâdhilî.

81 vo à 83 ro, les Francs essayent de vendre, sans succès, en Irâq des marchandises pillées à Alexandrie. Notice sur le sultan Uwais et les Tatar.

83 ro à 84 vo, l'invasion de Qâzân (Ghazan) en Syrie et son entrée à Damas; réaction victorieuse de Nâsir Muhammad.

87 ro-vo, la mort des trois sultans Qâzân, Abû Sa'îd et Khudâbandâ et description de leurs tombeaux.

89 ro-vo, récit de l'entrée à Alexandrie de l'épée du sultan Ashraf Sha'bân et de l'établissement d'un trône royal dans la cité. — J'ai déjà traduit ce passage, «Bull. Soc. R. Arch. Alex.», n° 30, 1936, p. 36-37.

97 ro à 103 ro, sur Ibrahim al-Tâzi, commandant de l'arsenal d'Alexandrie, et ses luttes contre les Chrétiens. Poésie de Nuwairî à ce sujet, 102 vo à 103 ro, avec son nom.

110 ro à 115 vo, lettre du sultan Abû 'Abdallah Muhammad b. Yûsuf Ibn al-Ahmar au souverain de Fâs sur sa lutte contre les Chrétiens en Andalousie; et arrivée de Maghrebins à Alexandrie, 113 ro et 117 ro.

125 ro à 129 vo, le gouvernement de Taydamur al-Balâsi à Alexandrie, en Dhû'l-Qa'da 769 H.

129 vo, 141 ro à 142 vo, 114 ro à 145 ro, 146 vo à 147 ro, récit de la visite du sultan Ashraf Sha'bân à Alexandrie. — J'ai traduit ces passages, «Bull. Soc. R. Arch. Alex.», n° 30, p. 37 et ss. — Puis poésie de l'auteur sur ce sultan, et considérations sur son nom Sha'bân, les nuits et mois sacrés, 147 ro à 150 vo.

150 vo et 151 ro, réflexions sur cette visite et celle de Baybars.

153 vo, un roi de Misr, nommé Baladkûr.

155 ro, sur les terres de l'Égypte.

168 vo à 169 vo, les anciens rois de l'Égypte et les idoles

171 ro à 178 ro, les Pyramides et les Birba de Misr.

179 ro, notice tirée de Safadî sur les richesses du vizir 'Alam addin b. Zaitûn, qui fut dépouillé par son souverain.

270 vo à 281 vo, le gouvernement de Salân Addin Ibn 'Arrâm à Alexandrie; arrivée d'un émissaire gènois: l'attaque manquée de Sandjûân de Morf.

283 ro à 284 ro, récit de l'envoyé du sultan à Chypre, négociations de paix, discussions sur l'échange des prisonniers; remplacement d'Ibn 'Arrâm par Taydamur.

286 vo à 287 vo, Ibn 'Arrâm retourne à son poste.

B. — *Les digressions*: il faut tout de même dire un mot des hors-d'œuvre, dont notre auteur a émaillé son récit, bien qu'ils sortent en général du cadre d'un travail historique. Plusieurs de ces passages présentent un certain intérêt, soit parce que le renseignement fourni est nouveau, soit parce que l'auteur a puisé dans des ouvrages peu connus.

Ms. B. — Les longues dissertations sur la religion islamique et la Sunna, 2 vo à 9 vo; sur le Tawhid, le Adhân et le Nâqûs, 110 vo à 115 vo; sur l'ascèse et le monde, 139 vo et ss.; sur les péchés, 156 vo et ss.; sur les martyrs et les tombeaux, 239 et ss., n'ajoutent rien à la valeur de l'ouvrage, car ces digressions coupent très fâcheusement le récit qui est le sujet véritable, soit l'attaque de Pierre de Lusignan. — Il en est de même des fol. 41 vo et ss., sur les femmes et l'amour; 69 ro à 75 ro sur la vengeance et le motto: il faut se garder de son ennemi. Les passages sur les Persans et les Rûm, 10 vo à 25 vo, entrecoupés de digressions, ne sont pas nouveaux, mais copiés principalement de Mas'ûdî.

Comme exemple de renseignement utile, je ne donne que le suivant, qui complète nos connaissances littéraires: 36 vo, citation d'une Urdjûza sur les grands Imâms, par al-Sirâdj 'Abd al-Latif al-Takrîfî, «résidant à Alexandrie»; 43 vo, quatre vers du même auteur sur l'amour 'Udhri; 111 vo à 112 ro, dix vers d'une Urdjûza du même à propos de l'interdiction de discuter sur l'essence divine; 122 ro, 21 vers du Dîwân de ce poète, tirés d'une Qasîdâ en l'honneur du Prophète, où il implore son intercession contre les Tatar, qui, sous la conduite de Hû-

lâgû, ont ravagé Baghdâd. — Or ce poète n'est cité que dans BROCKELMANN, *Gesch. d. Arab. Liter.*, Suppl. II, p. 897, n° 4, très brièvement dans la liste des auteurs, dont « ni l'époque, ni le pays, ne peuvent être fixés », comme suit : « Abd al-Latif al-Takritî, *Dîwân*. Poésies en l'honneur du Prophète Leiden, 705 ». Notre manuscrit permet une correction à cette affirmation; ces citations prouvent deux choses : 1) que l'auteur, originaire de Takrit, en Mésopotamie, est venu s'établir à Alexandrie, sans doute avec d'autres réfugiés de Baghdâd, lors de la prise de la ville par les Mongols, en 656 (1258); c'est pourquoi Nuwairî le dit « nazîl thaghîr Iskandariya »; 2) qu'il écrivit dans la suite son éloge du Prophète, faisant allusion à ces événements. Donc on peut dire avec quelque certitude, que cet auteur iraquien termina son existence en Egypte dans la seconde partie du 7^e (XIII^e) siècle, ce qui fixe un point important.

Ms. C. — On constate ici aussi des digressions considérables, 1 vo et ss., 4 ro et ss., 129 vo à 141 ro, et surtout 180 ro à 270 vo. — Toutes ne sont pas sans intérêt : 7 ro et ss., continue l'histoire d'al-Hadjdjâj, commencée dans Ms. B; 12 vo à 22 ro, traite d'Alexandre et d'Aristote, selon la légende; 123 vo à 125 ro, une longue « Malhama » en vers d'Ibn Abî Djum'a; 129 et ss., renseignements sur les animaux et les oiseaux de chasse; — divers passages sur l'Inde, 145 ro et ss., 160 ro et ss., 214 ro et ss.; l'histoire de la Ville aux Talismans, 253 ro et ss.; celle du mariage de Lûa' al-Mulk, fils de Saïf al-Tidjân b. Sâhâ, avec Da'dja', fille d'al-Hîman, 232 ro et ss. pour ne citer que les principales; 118 vo et ss. des notices sur les 4 Califes, les Umayyades et les Abbâssides jusqu'à Dja'far al-Mutawwakil; enfin 5 nouveaux vers de la qasida d'al-Takritî à la louange du Prophète, fol. 170 ro.

C. — Notons enfin dans les deux manuscrits un grand nombre de *notices lexicographiques*, car notre auteur emploie souvent des mots rares ou peu utilisés.

On trouvera dans la partie arabe de ce « Bulletin » trois extraits du Ms. B :

I. fol. 25 vo à 26 ro, les songes faits avant la bataille et l'annonçant.

II. fol. 79 vo à 80 ro, le songe du roi Hughes, « Reyûk », père de Pierre I de Lusignan.

III. fol. 94 ro à 98 vo, les sept causes, qui poussèrent le roi de Chypre à attaquer l'Egypte.

Notes au texte I:

(1) La Mosquée al-Gharbi est encore citée, fol. 105 ro, dans la description des bâtiments détruits; après la bataille, le shaykh Muhammad Ibn Sallām remit en état un ribât, qu'il avait élevé pour les soldats en garnison en ville, puis il revêtit la dite mosquée Gharbi de plusieurs rangs de nattes. Elle est citée à propos de la mort du juge Ibn Munayyar, enterré dans une turba, près de la Djâmi' al-Gharbi (QUATREMERE, *Sultans Mamlouks*, II, p. 79 note 81, d'après le polygraphe Nuwairi; mais il faut corriger sa traduction de la turba de son père 'Abd al-Jâmi Chachbi'). Dans le *Subh* de QALQASHANDI XI, p. 418-19, un paragraphe concerne le «nazir al-sâdir», qui est au même temps Khâtib, prédicateur de cette mosquée. Le vendredi Djumâda I 923 (5 Juin 1517), le sultan Ottoman Selim assista à la prière dans cette mosquée (MALIL EDHEM, *Tagebark d. asghar Expedition*, 1916, p. 41). — Le voyageur VANSLEB, *Nouv. Relations*, p. 181 et 192, cite «la Gienna il garbi, Mosquée du Ponant, Mosquée des Magrabinos».

Chez la plupart des voyageurs occidentaux, elle est nommée «Mosquée aux mille Colonnes». JENSEN, in CARMOLY, *Itin. d. Terre Sainte*, p. 519; POCKOCKE, *Descr. of the East*, p. 7 et plan, lettre (b) JONDET, *Afrique*, pl. XIV; CASSIS voir «Bull. Soc. R. Arch.» 36 1946, p. 127; D.E. planches, *Etat mod.*, II pl. 84 et JONDET, pl. XVII. *Antiq.* V pl. 37, 1-2; et la description XVIII, I, p. 129, X p. 520; I p. 352 s. 480 s. — DELOMIEU, in «Mém. Inst. Eg.» III, 1932, p. 3, 26-27. JONDET, pl. XIV, XXV, XXVIII etc. A l'époque de Bonaparte, elle servit de parc fortifié pour l'artillerie et d'ateliers. Elle s'appelait aussi al-Djâmi' al-Akadar, la Mosquée Verte, et je pense qu'au début de la conquête on l'appelait Mosquée Amr («Bull. Soc. R. Arch. Alex.» 37 1941, p. 23-24).

(2) Si le shaykh Muhammad voit en songe que ses frères sont brûlés par le feu, c'est sans doute une allusion au rite de la prière: il est indiqué en effet, en énonçant le tashahhud, le croyant doit «allonger l'index d'une façon indicative» (ABU ZAID QAYRAWANI, *Risâla*, Bélaq, 1319, p. 47, en bas 48. Ce geste de lever le doigt, comme reconnaissance de l'Islam et comme confession de foi, est exigé des nouveaux convertis: cf. p. ex. SCHILTBERGER, *Bondage and Travels*, ed. Hakluyt, p. 74-75. — «Der Islam», X, 1920, p. 154-56. — HAMMER, *Hist. Empire Ottoman*, XVI, p. 61. — «Rev. Etudes Islam., 1932, p. 39 et note 1. — MAXAIRAS, ed. Dawkins, II, p. 52 note au paragr. 23.

(3) Sur la Qâ'a des tireurs de la Qarafa, voir «Bull. Soc. R. Arch. Alex.» 36, 1946, p. 123.

Notes au texte III: (3) dans *Mille et Une Nuits*, ed. Breslau p. 332 (Nuit 849), *Karâsila* est expliqué par *طغ الطريق*. C'est le ba latin *cursorius*, qui se rencontre aussi dans le grec byzantin; cf. Ma-chairas, éd. Dawkins, p. 154, l. 92 et notes. Pierre Martyr D'Anghiera fol. 71 b: *corsali*.

(4) *asqala*, quelquefois *askâla*, est le latin *Scala* échelle. Nuwairi, fol. 61 ro, appelle aussi «asqala, saqala», le pont-levis qui, dans les convents, sert à passer dans la tour centrale, où sont les provisions.

ET. COMBE